



التقرب إلى الله تعالى

فضله ○ طريقه ○ مراتبه

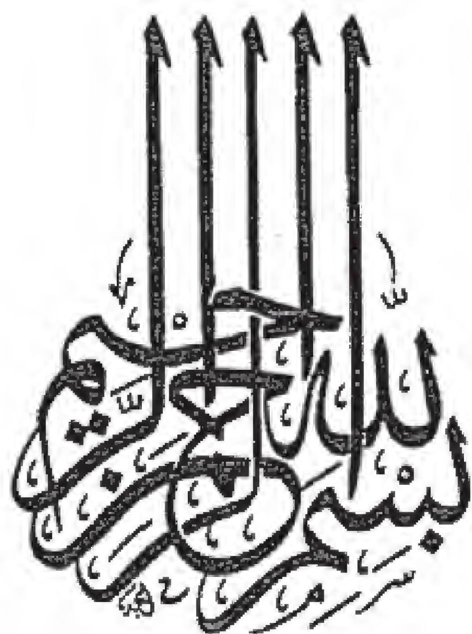


بقلم

الإمام المفسر المحدث الشيخ

عبد الله سراج الدين الحسيني

رضي الله عنه



أيها القارئ الكريم :

اقرأ سورة الفاتحة كلما قرأت في كتاب من كتبي ، وأهدِ ثوابها إلى العلامة الشهير ، والعارف الكبير ، حامل لواء الحجة بالكتاب والسنة ، المفسر والمحدث بالأسانيد المتصلة ، عن كبار المحدثين - في حلب ودمشق والمغرب وغيرها من البلاد الإسلامية - بإجازات عالية الأسانيد - محفوظة عندي - سيدي وشيخي والدي الكريم ، **الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني** رحمه الله تعالى ، وجزاه عن المسلمين خيراً ، إنه هو السميع العليم .

آمين

التقرب إلى الله تعالى

فضله ○ طريقه ○ مراتبه

بقلم

الإمام المفسّر المحدّث الشيخ

عبد الله سراج الدّين الحسيني

رضي الله عنه

مكتبة دار الفلاح

حلب - أقيول

هاتف: ٣٢١٧٣٠٠

الطبعة الثانية

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

العدد / ٣٠٠٠ /

مؤسسة

الشام للطباعة والتجليد

دمشق - هاتف: ٢٢٢٤٥٢٢ - ٢٢٤٩١٤٣ ص.ب ٢٥١٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد إمام الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه وعلينا معهم أجمعين ـ صلاةً وسلاماً دائمين بدوام ملك الله رب العالمين .

وبعد :

فإن الله تعالى قد بيّن لعباده أنه خلقهم لعبادته قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ، وذلك لأن في عبادتهم له سبحانه تقرباً إليه ، وتعزّزاً به .

فالعبادات هي قربات تقرّب العابد إلى رب البريات ، فاطر الأرض والسماوات ، وبها ينالون رفعة الدرجات ، وأعالي المقامات ، ويُكرمون بأنواع الكرامات ، ويفوزون بمقعد الصدق عند المليك المقتدر الحق ـ قال سبحانه : ﴿ إن المتقين في جنات ونَهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ .

وقد بيّنتُ في هذا الكتاب فضل مقام القرب وعلوّ شأنه ، وطريق التقرب إلى الله تعالى ؛ وبيّنت مراتب القرب ومقامات المقربين ، وما يعطيه كل مقام من خصائص ومكرمات . وأتيتُ بالأدلة من الكتاب والسنة على ذلك كله ـ ليكون المؤمن على بيّنة من أمره ، ويسير إلى الله تعالى على هدى في سيره ، قال تعالى لحبيبه الأكرم ﷺ : ﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتبعني ﴾ الآية .

فطريق التقرب إلى الله تعالى واضح المسير ، هدانا إليه سيدنا محمد ﷺ البشير النذير ، السراج المنير ، قال تعالى : ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ .

فالصراط الموصل إلى الله تعالى هو الذي دلّنا عليه وأرشدنا إليه رسول الله ﷺ ، وقد سار عليه أصحابه الكرام والتابعون لهم بإحسان إلى يوم القيام ـ جعلنا الله تعالى منهم بفضله ورحمته آمين .

وإن جميع تلك الأبحاث التي ذكرتها في هذا الكتاب ، وجميع تلك التفصيلات التي فصلتها ـ لتدور في فلك الآية الكريمة ، وهي قوله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ﴾ .

وإن الكواكب التي تسبح في فلك كل آية من كتاب الله تعالى لا تعدّ ولا تحصى ، وذلك لأنها كلمات الله تعالى التي لا تنفد معانيها ـ قال سبحانه : ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ .

والمقصود من ذلك كله تذكير المؤمن المحمدي ـ بما أكرمه الله تعالى به ، ليزيد شكره لله تعالى ، وثناؤه عليه وتعظيمه إياه ، وليزداد تقرباً إلى الله تعالى ، وحُبّاً فيه .

وليعلم المؤمن المحمدي أن جميع هاتيك الفضائل التي أكرمه الله تعالى بها ـ أنه نالها بواسطة حبيب الله الأكرم ؛ ورسوله المعظّم سيدنا محمد ﷺ الذي فضّله الله تعالى على جميع الأنبياء والمرسلين ، واصطفاه على جميع المخلوقين ، وجعله أكرم الأولين والآخرين على رب العالمين .

مقام القرب وفضله

قال تعالى : ﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون ﴾

وقال تعالى : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيُّهم أقرب ﴾

وقال تعالى : ﴿ واسجد واقترب ﴾ .

إعلمْ أن أشرف المقامات المقصودة بالذات هو مقام القرب من حضرة الرب جلَّ وعلا ، ذي الجلال والإكرام ، والطول والإنعام .

والقرب هو على مراتب متفاوتة ومتعددة ، حسب رتبة المقرَّب ، ومِنْ ثَمَّ وصف الله تعالى ملائكته تشريفاً لهم فقال : ﴿ لن يَسْتَنْكِفَ المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقرَّبون ﴾ .

ووصف الله تعالى أنبياءه ورسله المكرمين تفضيلاً وتشريفاً لهم فقال في عيسى ابن مريم عليهما السلام : ﴿ اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين ﴾ أي : من الأنبياء والمرسلين المقربين قرب النبوة والرسالة .

وإن أقرب المقربين وإمام المتقربين من الأنبياء والمرسلين هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم صاحب مقام الوسيلة التي هي أفضل المنازل وأعلاها ، وأرفع المراتب وأسماها ، وجميع المنازل والمراتب فهي دونها .

ووصف الله تعالى بالقرب خاصة عباده فقال سبحانه : ﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون ﴾ .

وبيّن أن كُمَّل عباده وخواصَّهم الذين يبذلون جهودهم ويحرصون كلَّ الحرص على مقام القرب ويتسارعون أيُّهم أقرب ، فقال سبحانه : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيُّهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ الآية .

كما بيّن سبحانه أن مقام القرب الخاص يكون بـه الشرف الأكبر ؛ شرف الملأ الأعلى والأدنى ، فقال تعالى : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكةُ المقربون ﴾ .

وإن مقام القرب الخاص يُعطى صاحبه مرتبة الشهود والشهادة على من دونه قال تعالى : ﴿ كَلَّا إنَّ كتاب الأبرار لفـي علِّـيين ومـا أدراك ما علِّيون كتاب مرقوم يشهده المقربون ﴾ .

وقد جاء في الحديث القدسي عن رب العزة ــ ما فيه تنشيط الهمم وتقوية العزائم نحو التقرب إلى الله تعالى ، وأن مَنْ تقرَّب إليه سبحانه فإن الله تعالى يتقرب إليه ضعف ما تقرب العبد إليه ، لأنه سبحانه يحب من عبده أن يتقرب إليه حتى يقربه ، وما شرع الله تعالى العبادات والطاعات إلا ليقربهم بها إليه ، فإنها قربات تقربهم إلى الله زلفى .

قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ أي : لأنَّ شرفهم في عبادتي ، وبها أدخلهم حضرتي ، وينعمون بقربي ، وحبي ، وجنتي .

فالله تعالى يحب من عبده أن يتقرب إليه بعبادته ليقربه الله إليه ، ويحب من عبده أن يذكره ليذكره سبحانه عنده .

جاء في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يقول الله عز وجل :

« أنا عند ظن عبدي ، وأنا معه إذا ذكرني ،ــ وفي رواية : وأنا معه حين يذكرني ــ فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ، وإن تقرب إلَيَّ شبراً تقربت منه ذراعاً ، وإن تقربَّ إلَيَّ ذراعاً تقربت منه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » .

ففي هذا الحديث القدسي ترغيبات وبشارات ، وتنبيهات للمسلم ، وذلك بأن يدخل في باب العبادات وهو محسن الظن بالله تعالى ، فإن حُسن الظن بالله من العبادة ، فالله تعالى عند ظنك به ، فادخل في الذكر وسائر العبادات والقربات وأنت حَسَن الظن بالله تعالى ، بأن يتقبَّل منك عملك ، ويؤجرك عليه ، لأنه ذو الفضل العظيم ــ وإن كنت أنتَ في تقصيرٍ كبير ، فترجو منه قبول العمل ، لا لإخلاصك في عملك وصدقك به ، بل لأنه هو الله الكريم ، ذو الفضل العظيم ، الغفور الحليم .

قال : « وأنا معه حين يذكرني » وهذه بشارة عظمى ، وفضيلة كبرى ، تنهض بهمة الذاكر ، فينبغي أن يلاحظ حين يذكر الله تعالى أن الله تعالى معه ، ومن كان الله تعالى معه فيجب عليه أن يتأدب معه ، فيتوجه إليه بكليته ، ولا يلتفت إلى شيء سواه ، فأنت محفوف ومكرم بالمعية الإلٓهية الخاصة ، فاعرف فضل الله تعالى ، ومن كان الله معه فلا يخشى

ولا يخاف أحداً سواه .

قال تعالى : ﴿ إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ .

وقال تعالى لموسى وهارون : ﴿ قال : لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ﴾ .

ومن كان الله معه فلا ينبغي أن يخشى الخزيَ والمضيعة ، قال تعالى عن موسى : ﴿ كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ .

اللهم كن لنا ومعنا ، ولا تكن علينا – برحمتك يا أرحم الراحمين – اللّهم آمين .

ثم قال : « فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي » إلى تمام الحديث – فبيَّن سبحانه أن من يذكره فإن الله تعالى هو يذكره على وجه أفضل ، ولذكر الله أكبر من ذكر العبد لربه ، وأن من تقرب إليه فإنه سبحانه يتقرب إليه قرباً مضاعفاً ، وإن قربه سبحانه أعظم وأكبر – فافهم ذلك ، ولا نريد الإطالة خوف الملالة .

وإن أقرب المقربين إلى ربِّ العالمين هو إمام الأنبياء والمرسلين ، وأفضل خلق الله أجمعين : سيدنا وحبيبنا وشفيعنا ، وروح أرواحنا ، وقرة أعيننا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم : صاحب مقام قاب قوسين أو أدنى ، وصاحب مقام الوسيلة وهي : منزلة القربة التي ليس فوقها منزلة ، بل هي أعلى المنازل ، وأشرف المقامات ، وأرفع المراتب ، وأكرم المناصب ، فهو ﷺ الشفيع في الخلق أجمعين ، ولا شفيع له ، وهو الواسطة العظمى

والوسيلة الكبرى للعالمين ولا واسطة له ، وهو إمام الكل ولا إمام له ، وهو صاحب القول المسموع في يوم الجموع ، وكلهم عن الكلام ممنوع ، يقول الله تعالى له : « يا محمد ارفع رأسك ، وقل : يسمع لكَ — أي : خاصة — وسَلْ تعطه ، واشفع تشفع » الحديث .

صلى الله عليه وآله وسلم صلاة وسلاماً دائمين بدوام ملك الله العظيم ، وعلينا معهم أجمعين — آمين .



طريق التقرب إلى الله تعالى

هو القيام بالعبادات التي شرعها الله تعالى

اعلم أن التقرب إلى الله تعالى لا يكون إلا بما شرعه الله تعالى من العبادات ، وهذا لا يُعلم إلا من باب سيدنا محمد رسول الله ﷺ الذي قال الله تعالى له : ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ .

فشريعة الله تعالى التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ هي الطريق الموصلة إلى الله تعالى قرباً وحباً ، فإن معنى الشريعة والشرعة هو الطريقة ، قال تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ .

فالتقرب إلى الله تعالى هو سلوك طريق الشريعة على الوجه الذي جاء به رسول الله ﷺ : إتباعاً له ، واقتداءً به ﷺ ، فهو الإمام الذي لا إمام له ، قال تعالى : ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله ﴾ فمن اتبعه اهتدى بهديه ، ووصل إلى ربه سبحانه وتعالى .

ولذلك يجب على المسلم أن يقتدي برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويجعله نصب عينيْه إماماً ، ووجهته أماماً .

اللهم حققنا بذلك ، ووفقنا لاتباعه في الأقوال والأعمال والأحوال بجاهه عندك يا رب العالمين .

والكلام على العبادات وتفاصيلها وآثارها وأسرارها ـ ذلك يحتاج إلى مؤلف كبير ولكن : لابد من كلمات موجزة حول وجوب العبادة

لله تعالى وحَقِّيَّتِها لله تعالى ، وحول معناها ، وحول بعض آثارها وأنوارها .

العبادة هي حق لله تعالى على عباده

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ .

فقد خاطب الله تعالى الناس كلهم ، وطالبهم بحق له عليهم يعترفون به ، ويقرون به ، لا يسعهم إنكاره فقال لهم : ﴿ اعبدوا ربكم ﴾ والمعنى : أنكم كلكم عبيد له ، وهو وحده ربكم ، فإن أنكرتم ذلك فتعالوا فكروا :

من الذي خلقكم بعد أن كنتم عدماً ؟ ومن الذي حَوَّلكم من طور العدم إلى طور الوجود ؟ فأنتم لم تخلقوا أنفسكم ، وآباؤكم هم مثلكم ، وجميع المخلوقات مثلكم ، إذاً لا محالة أنَّ لكم خالقاً ، وهو غير مخلوق ، بل هو واجب الوجود ــ ألا وهو الله تعالى رب العالمين .

إذاً اعبدوا ربكم لأنه ربكم : ﴿ الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ عذابه ، وعقابه ، وعتابه ، وغضبه .

ثم إنه سبحانه بعدما خلقكم لستم في غنًى عنه ، بل أنتم لم تزالوا ولن تزالوا فقراء إليه ، محتاجين إلى تربيته لكم ، وإمداداته وتغذيته ورحمته قال سبحانه : ﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء

ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴾ أي : فاعبدوه واشكروا له وأخلصوا له ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ وأنتم تعلمون أن الأوثان التي تعبدونها ، والآلهة التي اتخذتموها لا تنفعكم شيئاً ولا تضركم ، بل هي عاجزة عن الدفاع عن نفسها : قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس ضُرِبَ مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾ .

فالعبادة هي حق ذاتيٌّ لله تعالى على عباده ؛ باعتبار أنهم عباده ، وهو وحده ربهم ، جاء في الصحيحين وغيرهما عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : كنت خلف النبي ﷺ على الدابة فقال لي : « يا معاذ » ، قلت : لبيك يا رسول الله .

ثم سكت ساعة ثم قال : « يا معاذ » ، قلت : لبيك يا رسول الله .

ثم سكت ساعة ، ثم قال : « يا معاذ بن جبل » ، قلت : لبيك وسعديك يا رسول الله .

قال : « أتدري ما حق الله على عباده ؟» .

قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : « حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » .

ثم قال : « يا معاذ » ، قلت : لبيك يا رسول الله .

قال : « أتدري ما حق العباد على الله إذا عبدوه ولم يشركوا به شيئاً ؟» .

قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : « حق العباد على الله إذا عبدوه و لم يشركوا به شيئاً أن لا يعذبهم » .

فحق الله تعالى على عباده أن يعبدوه لأنهم عباده وهو ربهم ، وقد عمَّ هذا الحق جميع أنواع العباد : الملائكة ، والأرواح ، والإنس ، والجن ؛ قال تعالى : ﴿ وله مَنْ في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ .

فنعيم الملائكة عليهم السلام ورَوْحهم وريحانهم ـــ عبادة الله تعالى ، وهم في عباداتهم مُستغرقون فرحون ، كَلفون غير متكلفين ولا تعبين ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ .

وهكذا أهل الجنة فإنهم يعبدون الله تعالى كلفاً بغير تكلف ولا تكليف ، يتنعمون بذلك ويفرحون كما وصفهم رسول الله ﷺ بقوله : « يلهمون التسبيح والتحميد » وفي رواية : « والتكبير كما تلهمون النفس » ـــ اللهم اجعلنا منهم ، اللهم آمين .

فالعبادة لله تعالى هي مقتضى العبدية ، فشأن العبد أن يعبد ربه سبحانه وتعالى وبذلك قُربه وعزه وكرامته ـــ ويرحم الله القائل :

أدب العبد تذلّلٌ ... والعبد لا يدع الأدبْ
فإذا تكامل ذلُّه ... نال المودة واقتربْ

والقائل :

تذلَّل لمن تهوى لتكسب عزّةً ... فكم عزة قد نالها المرء بالذلِّ
إذا كان من تهوى عزيزاً و لم تكن ... ذليلاً له فاقرا السلام على الوصلِ

معنى العبادة لله تعالى

العبادة هي قيام العبد بما أمره الله تعالى به من أعمال وأقوال ، ملاحظاً عبوديته لرب العالمين ، وعبادته لله ــ الإلَه الحق المبين الذي لا إلَه إلَّا هو وحده لا شريك له ، فالعبادة هي أعمال وأقوال ، يقوم بها العبد حباً وتذللاً وتقرباً إلى ربه سبحانه إلَـه العالمين ــ وبهذا القيـد الأخير وهـو ملاحظة العبودية لله تعالى يظهر لك الفرق بين أعمال التكـريم وأقـوال التعظيم ، وبين أعمال وأقوال العبادة لرب العالمين .

فالملائكة عليهم السلام هم يسجدون لله تعالى دائماً قال تعالى : ﴿ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾ .

وقد أمرهم الله تعالى أن يسجدوا لآدم ، قال تعالى : ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ فأمرهـم بالسجـود لآدم سجوداً حقيقياً على الجباه بدليل ﴿ فقعوا لـه ساجديـن ﴾ لا ركوعـاً ولا انحناءً .

ولكن شتان بين سجودهم لله تعالى وبين سجودهـم لآدم ، فـإن سجودهم لله تعالى هو سجود عبد مخلوق لرب خالق غير مخلوق ، سجود عبادٍ لإلَه يُعبد حقاً وحده ــ وهذا هو العبادة .

وأما سجودهم لآدم فهو سجود عبد مخلوق لعبد مخلوق مثله ، ولكن الله تعالى كرمه عليهم ، فهو سجود تعظيم وتكـريم لآدم ــ ومِن هنـا استكبر إبليس فقال : ﴿ أهذا الذي كرمت عليّ ﴾ الآية ــ وقد كان

سجود التعظيم والتكريم مشروعاً في الشرائع السابقة ، ثم حرم في هذه الشريعة المحمدية ﷺ سداً لذرائع الشرك والكفر قال تعالى مخبراً عن سجود إخوة يوسف عليه السلام ليوسف : ﴿ ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال : يا أبتِ هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ﴾ الآية .

ويشير بذلك إلى قوله : ﴿ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾ .

فسجود العبادة هو سجود عبدٍ لرب ، وسجود مَأْلُوهٍ للإله ، وأما سجود التعظيم فهو سجود مخلوق لمخلوق أكرم منه ؛ تكريماً له لا عبادة ، وقد حرم أيضاً في الشرع المحمدي ﷺ وقد استأذن الصحابة رضي الله عنهم رسول الله ﷺ أن يسجدوا له تعظيماً وتكريماً فنهاهم عن ذلك .

روى أبو داود عن قيس بن سعد رضي الله عنه قال : أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم فقلت : رسول الله ﷺ أحقُّ أن يُسجدَ له ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقلت : إني أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم فإنه أحق أن يسجد لك .

فقال لي : « أرأيتَ لو مررت بقبري أكنت تسجد له ؟» .

فقلت : لا .

فقال : « لا تفعلوا ، لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحق » .

وعن ابن أبي أوفى رضي الله عنه قال : لما قدم معاذ بن جبل من الشام

سجد للنبي ﷺ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما هذا ؟» .

فقال : يا رسول الله قدمت الشام فوجدتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم فأردت أن أفعل ذلك بك ـ أي : تعظيماً وتكريماً لك فإنك أحق بذلك ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « فلا تفعل فإني لو أمرت شيئاً أن يسجد لشيء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، والذي نفسي بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدِّي حق زوجها » .

رواه ابن ماجه وابن حبان واللفظ له كما في (ترغيب) المنذري .

وعن أنس رضي الله عنه قال : كان أهل بيت من الأنصار لهم جَمل يَسنون عليه ـ أي : يستقون ـ وأنه استصعب عليهم فمنعهم ظهره ، وإن الأنصار جاؤوا إلى الرسول ﷺ وقالوا : إنه كان لنا جمل نسني عليه ، وإنه استصعب علينا ومنعنا ظهره وقد عطش الزرع والنخل .

فقال ﷺ لأصحابه : « قوموا » فقاموا ، فدخل ﷺ الحائط ـ أي : البستان ـ والجمل في ناحيته ، فمشى النبي ﷺ نحو الجمل .

فقالت الأنصار : يا رسول الله قد صار الجمل مِثْل الكلب الكَلِبِ ـ نخاف عليك صولته .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « ليس عليَّ منه بأس » .

فلما نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ أقبل نَحْوَ رسول الله ﷺ حتى خرَّ ساجداً بين يديه ، فأخذ رسول الله ﷺ بناصية الجمل ـ أذلَّ

ما كانت قط ـ حتى أدخله في العمل ـ في استعماله للسقيا والسني عليه .

فقال أصحاب النبي ﷺ : يا رسول الله هذا بهيمة لا يعقل يسجد لك ، ونحن نعقل فنحن أحق أن نسجد لك .

فقال ﷺ : « لا يصلح لبشرٍ أن يسجد لبشرٍ ، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها » الحديث رواه أحمد والنسائي وغيرهما .

فهذا سجود التعظيم والتكريم وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك سداً لذرائع الشرك ، ومخافة الوقع في سجود العبادة لغير الله تعالى ، وإنّ سد باب ذرائع الفساد فيه الحفاظ على دين العباد ، وذلك من خصائص الشريعة المحمدية ﷺ ، فإنها الشريعة العامة لجميع البرية ، الباقية إلى يوم الفصل في القضية ، فكانت حصينةً رصينة ، محكمة مُبرمه، لا يتسرب الفساد إليها ، فلا يجوز السجود ولا الركوع لغير الله تعالى .

ويتلخص من ذلك أن عبادة الله تعالى تقوم على أسس ثلاثة :

١ ـ عبادة قلبية . ٢ ـ وعملية . ٣ ـ وقولية .

١ ـ فعبادة القلب هي اعتقاده الجازم ، وشهوده بأنه لا إلّه إلا الله ولا رب سواه .

٢ ـ وعبادة الأعمال هي تأدية الأعمال التي أمر الله تعالى بها من إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والصوم ، والحج وسائر الفرائض ثم النوافل .

٣ ـ وعبادة الأقوال هي : تأدية ما شرعه الله تعالى من التلاوات والأدعية والأذكار على مختلف أنواعها والتسبيح والتحميد ... إلخ .

فيلاحظ العابد في صلاته ويشهد قلبه أنه عبد يؤدي حق الله تعالى عليه الذي هو ربه رب العالمين ، فيقوم في صلاته قيام عبد لرب العالمين .

ويركع ركوع عبد لرب العالمين .

ويسجد سجود عبد لرب العالمين وإله الأولين والآخرين .

ويسبح ويكبر مشهداً قلبه عبادته لرب العالمين .

وإلى هذا كله أرشدنا رسول الله ﷺ ونبهنا إليه كما روى النسائي وغيره عن جابر رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ إذا ركع قال : « اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، وعليك توكلت ، أنت ربي ، خشع سمعي وبصري ، ولحمي ودمي وعظامي لله رب العالمين ») .

وروى أصحاب السنن وغيرهم عن أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه قال : (كان النبي ﷺ إذا سجد قال : « اللهم لك سجدت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، سجد وجهي للذي خلقه وصوَّره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين » .

ثم يدعو قبل التسليم فيقول : « اللهم اغفر لي ما قدمت ، وما أخرت ، وما أسررت ، وما أعلنت ، وما أسْرفت ، وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم ، وأنت المؤخِّرُ ، لا إله إلا أنت ») .

فلقد سَمَّع رسول الله ﷺ الصحابة ما يقوله في ركوعه وسجوده : ليهتدوا بهديه ، ويهدوا الناس بهديه ﷺ ، ويسلكوا سبيله .

والدليل على ذلك أن الصحابة حفظوا ذلك وعملوا به ، وبلغوا ذلك

لمن بعدهم وهكذا حتى يرث الله الأرض ومن عليها ـ والحمد لله رب العالمين .

وهكذا يُلاحِظُ العابد في عباداته كلها ، ويشهد قلبه عبوديته لرب العالمين ، مُؤَدِّياً ما أمر الله تعالى به .

فالعبادة قيام العبد بما أمره به معبوده ـ وهو الله تعالى رب العالمين ، الملك الحق المبين ، وإله الخلق أجمعين .

آثار العبادات وأنوارها

العبادات التي شرعها الله تعالى لعباده لها آثارها في العابد ، وبها يرتقي العابد من حضيض الإنسان البهيمي الحيواني ، إلى مستوى الإنسان الكامل الربَّاني ـ وها أنا أذكر بعض تلك الآثار ، وأترك بعضها الآخر لموضع آخر إن شاء الله تعالى .

الأول : للعبادات انصباغات نورانية ربانية ينصبغ بها قلب العابد وروحه وعقله ، وانصباغات ينصبغ بها سمعه وبصره وجميع حواسّه ، وانصباغات ينصبغ بها وجهه وسائر جسده .

قال تعالى : ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغةً ونحن له عابدون ﴾. وبهذه الانصباغات النورانية الربانية ، يتخلَّى العابد عن النقائص والرذائل ، ويتحلى بالكمالات والفضائل ، وإلى هذا ينبه الله تعالى عباده :

قال الله تعالى : ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾ .

فبين لهم أن ما شرعه الله تعالى في الدين ، وأمر به من العبادات ، ليس ذلك من باب الإحراج لهم ، والإشقاق عليهم ، ولكن من باب تطهيرهم وتزكيتهم ، وتكميلهم ، وترقيتهم وتحليتهم .

كما بين سبحانه لعباده أنه سبحانه لم يخلقهم إلا ليكرمهم بعبادته ، وبذلك ينالون القرب من حضرته جل وعلا ، ويَحلُّون في مقعد الصدق .

قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ أي : لأشرِّفهم بعبادتي ، وأكرمهم بها ، فإنهم إذا عبدوني أحببتهم وقربتهم ؛ حتى أجعلهم : ﴿ في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ ، قال تعالى : ﴿ إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر ﴾ .

فالعبادات طُهرة للعابد وتخلية ، وتكميل له وتحلية .

جاء ذلك كله عن المعلم الأول ، والمكمِّل الأكمل ، والرسول الأفضل سيدنا وحبيبنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي قال الله تعالى له : ﴿ لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾، وقال له : ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ فقد بين لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آثار العبادات وأنوارها وتكييفاتها للعابد وأسرارها .

وإن بسط الكلام في ذلك وتفصيله يحتاج إلى مصنفات كبيرة لا يتسع لها هذا الكتيب الصغير ولكني أذكر مجملات وموجزات حول ما يتعلق ببعض العبادات تعبّر عما وراءها :

فالوضوء هو عبادة شرعها الله تعالى بين يدي الصلاة .

وفيه التخلية من الأوساخ والأدناس الجسمية ، ومن الأوساخ

والأدناس النفسية وهي الذنوب .

كما أن فيـه التحْلية بالوضاءة الحسية ، وبالمحاسن والأنوار الإلّهية .

أما ما في الوضوء من التخلية من الأدناس النفسية وهي الذنوب فقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إذا توضأ العبد المسلم ـ أو المؤمن ـ فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء ـ أو مع آخر قطر الماء ـ، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتْها يداه مع الماء ـ أو مع آخر قطر الماء ـ، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء ـ أو مع آخر قطر الماء ـ، حتى يخرج نقيّاً من الذنوب » رواه الإمام مالك ومسلم والترمذي كما في (الترغيب) .

وعن عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره » .

وفي رواية أن عثمان رضي الله عنه توضأ ثم قال : (رأيت رسول الله ﷺ توضأ مثل وضوئي هذا ثم قال : « من توضأ هكذا غفر له الله ما تقدم من ذنبه ، وكانت صلاته ومشيه إلى المسجد نافلة ») .

أي : زيادة حسنات ، ورفعة درجات ـ قال المنذري : رواه مسلم والنسائي مختصراً ولفظه :

قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من امرىء يتوضأ فيحسن وضوءه إلا غفر له ما بينه وبين الصلاة الأخرى حتى يصليها » .

ورواه ابن ماجه باختصار وزاد في روايته : وقال رسول الله ﷺ في آخر الحديث : « ولا يَغْتَرَّ أحدٌ » .

وجاء في رواية للبخاري وغيره قال رسول الله ﷺ : « لا تغتروا » .

والمعنى والله أعلم : توضؤوا واستبشروا بمغفرة الله تعالى لكم ، ولكن لا تغتروا بذلك فتقصِّروا في بقية الأعمال الصالحة ، أو يحملكم ذلك على عدم الخوف من الله تعالى من حسابه وعقابه وعتابه وحجابه ، بل استبشروا واستكثروا ، فإن من شأن البشارة أن تنهض بالهمم ، وتقوّي العزائم .

وعن حمران رضي الله عنه قال : (دعا عثمان رضي الله عنه بوضوء ـ أي : بماء للوضوء ـ وهو يريد الخروج إلى الصلاة في ليلة باردة ، فغسل وجهه ويديه ورجليه ، فقلت : حسبك الله ـ أي : كافيك الله الثواب فاختصر الوضوء ولا تسبغ ـ فإن الليلة شديدة البرد .

فقال عثمان رضي الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يسبغ عبد الوضوء إلا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ») قال المنذري : رواه البزار بإسناد حسن . اهـ .

وروى الإمام أحمد وغيره عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أيُّما رجل قام إلى وضوئه يريد الصلاة ، ثم غسل كفيه نزلت كل خطيئة من كفيه مع أول قطرة من الماء ، فإذا مضمض واستنشق واستنثر نزلت كل خطيئة من لسانه وشفتيه مع أول قطرة ، فإذا غسل وجهه نزلت كل خطيئة من سمعه وبصره مع أول قطرة ، فإذا غسل يديه

إلى المرفقين ورجليه إلى الكعبين سَلِمَ مِنْ كل ذنب كهيئة يوم ولدته أمه » .

قال : « فإذا قام إلى الصلاة رفع الله تعالى درجته ، وإن قعد قعد سالماً » .

وقد يعجب الإنسان من هذا الفضل الكبير المرتب على الوضوء .

فيقال : إن الله تعالى ذو الفضل العظيم ، قد يعطي على الخصلة من الخير فضلاً كبيراً ، كما نبهنا إلى ذلك رسول الله ﷺ حيث قال : « إن الخصلة الصالحة تكون في الرجل فيصلح الله بها عمله كله ، وطهور الرجل ــ أي : وضوءه ــ لصلاته يكفر الله بطهوره ذنوبه ، وتبقى صلاته له نافلة » رواه أبو يعلى والبزار والطبراني عن أنس رضي الله عنه .

وأما ما في الوضوء من التحلية فقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إن أمتي يُدْعَون يوم القيامة غرّاً مُحجَّلِين من آثار الوضوء ، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل » .

فبالوضوء يتحلى المتوضىء بنور وجهه وجماله ، ويصير أغَرَّ ، وتتحلى مواضع الوضوء من يديه ورجليه بالنور والبياض فيصير محجّلاً .

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت خليلي رسول الله ﷺ يقول : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث الوضوء » ــ أي : فيحليه الله تعالى بنورٍ وجمال وحسن في جميع المواضع التي ينتهي إليها وضوؤه .

وروى مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث له أن أصحاب النبي ﷺ قالوا : كيف تعرف من لم يأت بَعْدُ من أمتك

يا رسول الله ؟ أي : حين يردون الحوض .

فقال ﷺ : « أرأيت لو أن رجلاً له خيل غُرٌّ مُحَجَّلةٌ بين ظَهْرَيْ خيل دُهْمٍ بُهمٍ – أي : سود – ألا يعرف خيله ؟» .

قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : « فإنهم يأتون غرّاً محجلين من الوضوء ، وأنا فرطهم على الحوض » – أي : ساقيهم ومستقبلهم على الحوض .

اللهم اجعلنا من الواردين عليه ، الشاربين من كفيه صلى الله عليه وآله وسلم – اللهم آمين .

وفي رواية للإمام أحمد : قال رجل :كيف تعرف أمتك يا رسول الله من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك ؟

فقال ﷺ : « هم غرٌّ محجلون من أثر الوضوء » .

والمعنى أن لهذه الأمة علامة خاصة بهم من بين الأمم وهي : البياض وبهاء النور في وجوههم وأيديهم وأرجلهم من آثار الوضوء ، فإن الوضوء عبادة ولها آثارها .

اللهم اجعلنا من الغرِّ المحجّلين ، الواردين على حوض حبيبك سيدنا محمد ﷺ ، المكرمين بحفاوته ، وبالشرب من كفه الشريفة شَربة لا نظمأ بعدها أبداً – بجاهه عندك يا أرحم الراحمين – اللهم آمين .

وفي (مسند) الإمام أحمد عن وفد عبد القيس أنهم سمعوا رسول الله ﷺ يقول : « اللهم اجعلنا من عبادك الغرّ المحجَّلين ، الوفد المتقبلين » .

فقالوا : يا رسول الله : ما عباد الله ؟ قال : « عباد الله الصالحون » .

قالوا : فما الغرّ المحجّلون ؟ قال : « الذين تبيض منهم مواضع الطهور » ــ أي : الوضوء ــ.

قالوا : فما الوفد المتقبلون ؟ قال : « وفد يغدون من هذه الأمة مع نبيهم إلى ربهم عز وجل » .

اللهم اجعلنا منهم برحمتك يا أرحم الراحمين .

من آثار الصلاة وأنوارها

وهكذا الصلاة فإنها عبادة ــ بل هي أهمّ العبادات وأعظمها وأجمعها ، فلها آثارها من التخلية والتحلية :

أما آثارها في التخلية فمنها : أن الصلاة تهذب النفوس من الأخلاق الذميمة والعيوب ، ويمحو الله تعالى بها الخطايا ويغفر الذنوب ، ويفرج الله تعالى بها الكروب .

أما تهذيبها للنفوس فقد قال الله تعالى : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾ الآية .

فالصلاة تشتمل على أمرين عظيمين جامعين وهما : التخلية والتحلية .

فمن التخلية أنها تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، يعني : أن الصلاة تحمل صاحبها على ترك الفحشاء والمنكر ، وذلك على قدر خشوعه وحضور قلبه فيها ، فأضعف ما يكون أنها تنهاه ما دام في صلاته كما روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي عوف الأنصاري في قوله تعالى : ﴿ إن

الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ قال : إذا كنت في صلاة فأنت في معروف ، وقد حجزتك ـ أي : منعتك صلاتك عن الفحشاء والمنكر ، والذي أنت فيه من ذكر الله تعالى أكبر . اهـ .

فإذا عظم نورها ، وقوي الخشوع فيها ، وواظب عليها نهته ومنعته عن الفحشاء والمنكر : في حال أدائها وما وراءها وقد يمتد ذلك إلى الصلاة التي تليها وهكذا .

وإلى هذا يشير ما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن حبان والبيهقي وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له : إن فلاناً يصلي في الليل ، فإذا أصبح سرق .

فقال ﷺ : « إنه سينهاه ما تقول » .

أي : صلاته ستنهاه مآلاً لا محالة .

فهناك صلاة بحضور وخشوع تنهى صاحبها حالاً ومآلاً ، وهناك صلاة أضعف منها تنهى صاحبها حال أدائها وتضعف عن النهي فيما وراءها ، فهي لا بدّ وأن تنهى عن الفحشاء والمنكر .

وأما ما رواه ابن جرير والبيهقي في (الشعب) عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له » ـ وفي رواية : « لم يزدد من الله إلا بُعداً » .

وقد روى الخطيب وابن مَرْدُوْيَهْ بسند ضعيف عن ابن عمر وابن مسعود نحوه مرفوعاً وموقوفاً : فقد يُشكل ذلك على بعض الناس .

قال الحافظ ابن كثير : والأصح في هذا كُلِّهِ أنها من الموقوفات على ابن مسعود وابن عباس والحسن وقتادة والأعمش وغيرهم والله أعلم .

قال عبد الله : وعلى القول بتقوية بعض أسانيدها لبعض لضعفها ، فإن الحديث قد ورد مرفوعاً وورد موقوفاً ، وتصحيح القول بوقف الكل لا يكفي ، فإن الموقوف في مثل هذه الأمور التي لا مجال للرأي أن يحكم فيها بالبعد عن الله تعالى — فإن الموقوف في مثل هذا له حكم المرفوع كما هو منصوص عليه .

فالجواب أن يقال : المراد بأنه لا صلاة له أي : لا صلاة كاملة ، وهذا له نظير في الأحاديث من أن النفي فيها يحمل على نفي الكمال كما هو معلوم ، أو المراد بأنه : « لا صلا له » أي : لا صلاة له أصلاً وهذا هو الأقرب بدليل رواية : « لم يزدد بها من الله إلا بُعداً » ، وتكون تلك الصلاة هي صلاة المنافقين الذين يصلون ظاهراً ، ولكن قلوبهم خالية من الإيمان ، فإن المنافق هو يظهر الإسلام بقول أو عمل ، ولكن يبطن في نفق قلبه الإنكار والكفر ، فصلاته لم تزده من الله تعالى إلا بعداً ، وأما المؤمن بقلبه ولسانه فإن صلاته تعطيه القرب من حضرة الرب على حسب حضوره وإخلاصه ، وتكفر عنه من خطاياه على حسب ذلك .

فلا يقال لمن هو واقع في معصية : لا تُصَلِّ لأن صلاتك لا تنفعك ، بل تبعدك عن ربك ، بل نقول له : صَلِّ ، وانته عن معصيتك ، فإذا تركت المعاصي ضمنت لنفسك صلاتك وخيراتها ومنافعها كاملة ، فلم يقل رسول الله ﷺ للرجل الذي يصلي ويسرق ، لم يقل له لا تصلِّ ، بل أخبرهم أنَّ صلاته ستنهاه ، أي : هي صحيحة ولا بدّ أن تنهاه ، مادام مواظباً عليها .

فلا تقل للسارق ، ولا لشارب الخمر ، ولا لفاعل المعصية من

المغتابين والنمامين وغيرهم الذين يُصلون ويفعلون ذلك ، لا تقل لأحدهم : لا تصلِّ ، لأن صلاتك لا تنفعك ، ولا تقل للمرأة المصلية ولكن تخرج أمام الناس بغير حجاب ، وتبدي زينتها لمن لا يحل له أن ينظر إليها ــ لا تقل لها : لا تصلي لأن صلاتك لا تنفعك ، فإن الحسنات والطاعات والعبادات كلها تُجعل يوم القيامة في كفة الميزان ، وتوضع السيئآت والمعاصي في كفة أخرى ، ويجري الميزان ﴿ فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ما هيه نار حاميه ﴾ .

وإذا كانت الذنوب متعلقة بحقوق المخلوقات و لم يحصل منهم عفو ولا سماح ، فإنهم يأخذون من حسنات المسيء إليهم مقابل إساءته ، فإنْ وَفَّت حسناته بما عليه من الحقوق والمظالم : من الدماء والأموال والأعراض سَلِم ونجا ، وإن لم تَفِ حسناته بذلك أخذ من سيئآتهم وطرحت عليه .

فكم من المصلين والمتصدقين والصائمين والفاعلين للخيرات ، يجيئون يوم القيامة ومعهم الحسنات الكثيرة الكبيرة ، فبعد الحساب صارت إلى غيرهم من أهل الحقوق عليهم ، مقابل الغيبة ، والنميمة ، والسب ، والشتم ، واللعن ، والحقد ، والحسد ، والسخرية ، والتكبر عليهم .

فاحفظ عليك أعمالك الصالحة بترك الأعمال الطالحة ، واحفظ عليك أعمال الخير بترك أعمال الشر ؛ فالناقد بصير ، وبأعمالك خبير جل وعلا .

روى الترمذي وأحمد وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أتدرون من المفلس ؟» .

قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه ، أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار » .

فصلوات العصاة تنفعهم ، فقد تترجح على سيئآتهم في الميزان ، وإن لم تترجح فقد تنالهم الشفاعة بسبب صلواتهم وطاعاتهم ، وإن لم يحصل ذلك بل استحقوا العذاب لكثرة المعاصي أو فحشها فدخلوا النار ، فإن الله تعالى حرم على النار أن تأكل مواضع السجود منهم — كما جاء في الصحيحين وغيرهما .

فقل للمصلين الذين يصلون ويعصون : كفُّوا عن المعاصي ، ولا تتعرضوا للمهالك والمتالف ، والعذاب في القبر وما وراءه ، ولربما استحسنتم المعصية واستحللتم فعلها فتخرجون من الإيمان ، وترتدون عن دينكم وأنتم لا تشعرون ، ويقال لكم غداً : ﴿ أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ أعاذنا الله تعالى من ذلك — آمين .

وأما تخلية الصلاة من الذنوب فقد جاء في الأحاديث النبوية أن الله تعالى يمحو بها الخطايا ويكفر السيئات :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهنّ ما لم تغش الكبائر » رواه مسلم والترمذي وغيرهما .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه — أي : وسخه — شيء ؟» .

قالوا : لا يبقى من درنه شيء .

فقال ﷺ : « فكذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » رواه الشيخان وأصحاب السنن .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله ملكاً ينادي عند كل صلاة : يا بني آدم قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتموها فأطفئوها » رواه الطبراني في (الأوسط والصغير)، قال المنذري : ورجاله كلهم محتج بهم في الصحيح سراة . اهـ .

وعن عثمان رضي الله عنه قال : (والله لأحدثنكم حديثاً لولا آية في كتاب الله تعالى ما حدثتكموه ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يتوضأ رجل فيحسن وضوءه ثم يصلي الصلاة إلا غفر الله له ما بينها وبين الصلاة التي تليها ») رواه الشيخان .

وعن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا : خطبنا رسول الله ﷺ يوماً فقال : « والذي نفسي بيده — ثلاث مرات — ثم أكبَّ » فأكبَّ كل رجل منا يبكي لا ندري على ماذا حلف ، ثم رفع رأسه وفي وجهه ﷺ البشرى — وكانت أحبَّ إلينا من حمر النعم .

فقال ﷺ : « ما من رجل يصلي الصلوات الخمس ، ويصوم رمضان ، ويخرج الزكاة ، ويجتنب الكبائر السبع : إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يوم القيامة ، حتى إنها لتصفق ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ إن

تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئآتكم وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾ » رواه الحاكم وصحح إسناده .

وعن عثمان رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من امرىء مسلم تحضره صلاة مكتوبة ـ أي : حضر وقتها ـ فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم تؤت كبيرة ـ وذلك الدهر كلّه » رواه مسلم .

ومن الأحاديث المتقدمة تعلم أيها العاقل كثرة تعرض الإنسان إلى الذنوب في حركاته ، وأقواله ، وأفعاله ، وسائر تقلباته ، وتعلم شدة حاجته إلى مغفرة الله تعالى .

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى : « يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم » .

وبالصلاة تنفرج الكربات ، وتقضى الحاجات كما بينت ذلك في كتابي : (الصلاة في الإسلام) فارجع إليه .

وكما أن في الصلاة تخلية كما تقدم فإن في الصلاة تحلية للمصلي بأنواع الحُلى :

تحلية الصلاة للمصلي

قال الله تعالى : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾ .

فقوله تعالى : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ يدل على التخلية كما تقدم .

وقوله تعالى : ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ يدل على التحلية .

والمعنى : **أن في الصلاة خصلتين عظيمتين** :

الأولى : نَهْيُها المصلي عن الفحشاء والمنكر .

والثانية : صبغتها وتحليتها المصلي بذكر الله تعالى .

وقد اختلفت أقوال السلف في معنى : ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ اختلاف تَنَوُّع لا اختلاف مضادَّة — فإن كل قول منها يستلزم الآخر .

فقال بعضهم : ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ أي : ولذكر الله لعبده الذي يذكره في الصلاة ، وخارج الصلاة أكبر من ذكر العبد لربه ، فإن الله تعالى قال : ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ الآية .

فأول مايدخل تحت عموم الآية ، ذكر العبد لربه في الصلاة : بتلاوة القرآن الكريم ، والتسبيحات ، والتكبيرات ، والتحميدات ... إلخ ، فإن هذا الذكر من العبد مقابل بذكر الله تعالى للعبد ، وذكر الله لعبده أكبر وأعظم من ذكر العبد لربه — وهذا القول هو الأشهر ، وهو الذي جرى عليه أكثر السلف .

وقال بعضهم في معنى : ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ أي : ذكر العبد لله تعالى في الصلاة هو أكبر من كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهذا المعنى يستلزم المعنى الأول ، لأن العبد إذا ذكر الله تعالى فإن الله تعالى يذكره كما قال سبحانه : ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ وبهذا صار أكبر وأعظم من كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر .

فمن تحلية الصلاة للمصلي أنها تصبغه وتحليه بذكره لله تعالى ، فيتحلَّى بذكر الله تعالى له .

ومن تحليتها للمصلي : أنها تجعله في مقام الاقتراب الذي يحققه بمقام القرب ، قال تعالى : ﴿ واسجد واقترب ﴾ .

وروى مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجلَّ وهو ساجد فأكثروا الدعاء » .

هذا وقد جاء في الحديث أن الله عز وجل يتقرب إلى عبده ضعف ما يتقرب العبد إليه كما روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ، وإن تقرب إلّي شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت منها باعاً » الحديث .

فتقرب وتقرب يجعلك في مقام المقربين .

ومن تحلية الصلاة أنها ترفع الدرجات حتى تحققك في مقام الوصول :

فعن ثوبان رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله تعالى ، أو قال : أخبرني بفعل أعمله يدخلني الله به الجنة ؟

فقال له رسول الله ﷺ : « عليك بكثرة السجود فإنك لا تسجد لله تعالى سجدة إلا رفعك الله بها درجة ، وحَطَّ بها عنك خطيئة » رواه مسلم وأصحاب السنن .

ومن حلية الصلاة أنها تجعل المصلي في مقام المناجات لرب العالمين :

روى ابن خزيمة في (صحيحه) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ الظهر فلما سلَّم نادى رجلاً كان يصلي في آخر الصفوف فقال : « يا فلان ألا تتقي الله ؟!، ألا تنظر كيف تصلي ؟!، إن أحدكم إذا قام يصلي إنما يقوم يناجي ربه ، فلينظر كيف يناجيه ، إنكم ترون أني لا أراكم ؟!!، إني والله لأرى مَنْ خلف ظهري كما أرى مَنْ بين يدي » .

وروى الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فليقبل عليها حتى يفرغ منها ، وإياكم والالتفات في الصلاة ، فإن أحدكم يناجي ربه ما دام في الصلاة » .

ومن حلية الصلاة أن فيها إقبال الله تعالى على عبده المصلِّي :

عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يزال الله تعالى مقبلاً على العبد في صلاته ما لم يلتفتْ ، فإذا صرف ــ العبد ــ وجهه انصرف ــ الله تعالى ــ عنه » رواه أبو داود والنسائي وأحمد وغيرهم .

وعن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إذا قام الرجل في الصلاة أقبل الله تعالى عليه بوجهه .

فإذا التفت قال : يا ابن آدم إلى من تلتفت ؟! إلى من هو خير مني ؟!، أقبل إليَّ .

فإذا التفت الثانية قال له مثل ذلك ، فإذا التفت الثالثة صرف الله تبارك وتعالى وجهه عنه » رواه البزار .

ومن حلية الصلاة مباهاة الله تعالى بالمصلِّي :

روى ابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (صلينا مع رسول الله ﷺ المغرب ، فرجع - إلى بيته - مَنْ رجع ، وعَقَّب - أي : أقام في مصلاه عقب الصلاة - مَنْ عَقَّب .

فجاء رسول الله ﷺ مسرعاً قد حفزه النفس - أي : أتعبه من شدة سعيه ﷺ - فقال : « أبشروا : هذا ربكم قد فتح باباً من السماء يباهي بكم الملائكة ، يقول : انظروا إلى عبادي قد قضوا فريضة ، وهم ينتظرون أخرى »).

فالمباهاة من الله تعالى هي : إعلان حسنات المحسنين ؛ وصلاح الصالحين ، عنده في الملأ الأعلى .

ومن حلية الصلاة أن بها تحصل المرافقة والمعية لحبيب الله تعالى الأكرم ورسول الله المعظم سيدنا محمد ﷺ :

روى مسلم عن ربيعة بن كعب رضي الله عنه قال : « كنت أبيت مع رسول الله ﷺ ، فآتيه بوضوئه وحاجته ، فقال لي : « سلني » .

فقلت : أسألك مرافقتك في الجنة .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « أوغير ذلك ؟» .

قلت : هو ذلك .

فقال ﷺ : « فأعني على نفسك بكثرة السجود » .

وروى الإمام أحمد عن أبي فاطمة رضي الله عنه قال : قال لي نبي الله ﷺ : « يا أبا فاطمة إن أردت أن تلقاني فأكثر السجود » .

اللهم إني أسألك مرافقة نبيك سيدنا محمد ﷺ بجاهه عندك يا رب العالمين .

ومن **حلية الصلاة** أنها نور للمصلي في بيتـه ، وفي قبره ، وفي حشره ونشره ، وفي سيره على الصراط ، وفي قصوره في الجنة :

روى مسلم عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان » الحديث كما سيأتي إن شاء الله تعالى بتمامه .

فالصلاة نور البيوت كما روى ابن خزيمة في (صحيحه) عن أبي موسى رضي الله عنه قال : خرج نفر من أهل العراق إلى عمر رضي الله عنه ، فلما قدموا عليه سألوه عن صلاة الرجل في بيته فقال عمر سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « أما صلاة الرجل في بيته فنور ، فنوِّروا بيوتكم » .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ : أيما أفضل : الصلاة في بيتي أو الصلاة في المسجد ؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « ألا ترى بيتي ما أقربه من المسجد ؟ فلأن أصلي في بيتي أحبُّ إليّ من أن أصلي في المسجد ، إلا أن تكون صلاة مكتوبة » رواه الإمام أحمد وابن ماجه وغيرهم .

فالصلوات المكتوبة — أي : المفروضة — هي في المسجد أفضل ، وأما النافلة فهي في البيت أفضل :

كما روى مسلم وغيره عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا قضى أحدكم الصلاة في مسجده فليجعل لبيته نصيباً من صلاته ، فإن الله تعالى جاعلٌ في بيته من صلاته خيراً » .

ومن ثَمَّ يستحب للمسلم أن يتخذ من بيته مكاناً خاصاً للصلاة يسمى **مسجد البيت** ولو في زاوية من زوايا البيت ، يكون طاهراً نظيفاً .

الزكاة وآثارها وأنوارها

تقدم معنا أن لكل عبادة شرعها الله تعالى صبغة نورانية في العابد ، تخليه عن النقائص والرذائل ، وتحليه بالكمالات والفضائل ، ومن فرائض العبادات الزكاة ، ففيها التخلية والتحلية .

فمن تخلية الزكاة : أنها تطهر صاحبها الذي يؤديها طيبة بها نفسه — من مذمة البخل ، وتقيه شح النفس ، فيتحلى بالفلاح ، ويلتحق بالمفلحين ، قال الله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم . ومن يُوْقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ .

عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ثلاث من كن فيه فقد برىء من الشحّ : من أدى زكاة ماله طيبة بها نفسه ، وقرى الضيف ، وأعطى في النوائب » أي : في أوقات الشدة — رواه الطبراني في (الصغير والكبير) بروايات متعددة .

وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (ضرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثل البخيل والمتصدق : كمثل رجلين

عليهما جُنَّتان – درعان – من حديد قد اضطرت أيديهما إلى ثديهما وتراقيهما ، فجعل المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه حتى تُغَشّي أنامله وتعفو أثره ، وجعل البخيل كلما هَمّ بصدقة قَلَصَتْ وأخذت كل حلقة مكانها) .

قال أبو هريرة رضي الله عنه : (فأنا رأيت رسول الله ﷺ يقول – أي : يعمل – بأصبعيه هكذا في جيبه يوسعها ولا تتوسّع).

فالمتصدق كلما تصدق بصدقة اتسعت له جبته وانبسطت عليه ، والبخيل كلما تصدق شدت عليه وضاقت ، حتى تشد على ترقوته – أي : ما بين نقرة نحره إلى عاتقه – وكادت أن تخنقه .

والصدقة قد تطلق على الزكاة ، قال تعالى : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ الآية فالمراد بالصدقات هنا الزكاة .

وقد تطلق على التطوع ، قال تعالى : ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ .

زكاة المال تقي صاحب المال عذاب الله تعالى ، وإذا لم يؤد زكاة ماله عذبه الله تعالى بجميع ماله :

قال الله تعالى : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ .

المراد بالكنز في هذه الآية الكريمة : المال الذي لا تؤدى زكاته ، كما

ورد ذلك عن ابن عمر وابن عباس وجابر وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم مرفوعاً وموقوفاً .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (أيّما مال أديت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفوناً في الأرض ، وأيُّما مال لم تؤدَّ زكاته فهو كنز يكوى به صاحبه وإن كان على وجه الأرض ؟).

وقد بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم معنى قوله تعالى : ﴿ يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ﴾ الآية :

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار ، فأُحمَي عليها في نار جهنم ، فيكوى بها جنبه ، وجبينه ، وظهره ، كلَّما رَدَّت ـ أي : بردت ، كما جاء في بعض النسخ : كلما بردت ـ أعيدتْ له ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد ، فيُرى[1] سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار » .

قيل يا رسول الله : فالإبل ؟

قال : « ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة بطح له[2] بقاع قرقرٍ[3] أوفر ما كانت ، لا يفقد منها فصيلاً واحداً ، تطؤه بأخفافها ، وتعضه بأفواهها ، كلما مَرّ عليه أُوْلَاها رُدّ عليه

(١) قال الإمام النووي رحمه الله تعالى : ضبطناه : بضم ياء يرى وفتحها ، ورفع لام سبيله ونصبها . اهـ .

(٢) أي ألقي على وجهه ، وفي رواية : « تخبط وجهه بأخفافها » وهذا يدل على أن البطح قد يكون على الوجه وقد يكون على الظهر .

(٣) القاع : هو المكان المستوي من الأرض الواسعة ، والقرقر : هو الأملس .

أخراها ــ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار » .

قيل يا رسول الله : فالبقر والغنم ؟

قال : « ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدِّي حقها إلا إذا كان يوم القيامة بطح له بقاع قرقر لا يفقد منها شيئاً ، ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضبَاء[1] تنطحه بقرونها ، وتطؤه بأظلافها ، كلما مَرَّ عليه أُوْلاها رُدَّ عليه أخراها ــ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار » الحديث كما في الصحيحين والسنن .

المال الذي لا يزكى يكون شجاعاً أقرع يطوَّق به صاحبه :

إن الله تعالى قد أوعد من آتاه سبحانه وتعالى مالاً فلم يؤدِّ زكاته ـ بأنه سيطوّقه يوم القيامة :

قال الله تعالى : ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة . ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير ﴾ .

وقد جاء بيان هذه الآية الكريمة في الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

---

(١) العقصاء هي : الشاة الملتوية القرنين ، والجلحاء : وهي الشاة التي لا قرن لها ، والعضباء هي : الشاة المكسورة القرنين .

« من آتاه الله مالاً فلم يؤدِّ زكاته مُثِّل له ماله شجاعاً أقرع له زبيبتان[1] يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهزمتيه - أي : شدقيه - ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك ، ثم تلا قول الله تعالى : ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شرٌّ لهم سيطوَّقون ما بخلوا به يوم القيامة . ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير ﴾ .

وروى الترمذي والنسائي عن ابن مسعود رضي الله عنه يَبْلُغُ به النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ما من رجل لا يؤدِّي زكاة ماله إلا جعل الله يوم القيامة في عنقه شجاعاً - أي : حية كبيرة - ثم قرأ علينا مصداقه من كتاب الله تعالى : ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير ﴾» .

الزكاة حصانة للمال :

عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « حصنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة ، وأعدُّوا للبلاء الدعاء » رواه الطبراني وأبو نعيم ، والخطيب ، وأبو داود في (مراسيله) عن الحسن .

مطالبة الفقراء بحقوقهم عند الأغنياء يوم القيامة :

قال الله تعالى : ﴿ وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ .

---

(١) الشجاع هنا المراد به الحية العظيمة ، والأقرع : صفته بطول العمر ، لأن الحية بطول عمرها يذهب شعر رأسها فتكون أخبث وأشد شراً ، ومعنى له زبيبتان : أي نكتتان سوداوان فوق عينيه ، أو المراد الزبدتان في الشدقين ، أي : الزبد السام على شدقيه .

روى الطبراني في (الصغير والأوسط) عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة ، يقولون : ربنا ظلمونا حقوقنا التي فرضت لنا عليهم ، فيقول الله عز وجل : وعزتي وجلالي لأدنينكم – لأقربنكم – إلى دار كرامتي ورحمتي ، ولأباعدنهم » .

ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ وفي أموالهم حقٌّ للسائل والمحروم ﴾ .

فهناك الفقير المحتاج الذي يسأل الناس قدر حاجته وعياله ، وهناك الفقير المتعفف عن السؤال فهذا ينبغي البحث عنه أيضاً :

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ليس المسكين بالطواف ، ولا بالذي ترده التمرة والتمرتان ، ولا اللقمة واللقمتان ، ولكن المسكين : المتعفِّف الذي لا يسأل الناس ولا يُفْطَن له فَيُتَصدَّقُ عليه » رواه الإمام أحمد ورجاله رجال الصحيح .

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم – أي : بقدر ما يكفي الفقراء –، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا وعروا إلا بما يصنع أغنياؤهم – أي : بتقصير الأغنياء – ألا إن الله تعالى يحاسبهم حساباً شديداً ، ويعذبهم عذاباً أليماً » رواه الطبراني في (الصغير والأوسط) .

فالأغنياء يعذبون إذا قَصَّروا في واجب الفقراء .

مانع الزكاة يلقى عند وفاته أهوالاً شديدة ، فيتمنى الرجعة إلى الدنيا ليؤدِّي الزكاة :

قال الله تعالى : ﴿ وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول : رَبِّ لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصَّدَّقَ وأكن من الصالحين ﴾ .

روى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنه قال : (من كان له مال يبلّغه حج بيت ربه ، أو تجب فيه زكاة فلم يفعل ، سأل الرجعة عند الموت) .

فقال رجل : يا ابن عباس اتق الله فإنما يسأل الرجعة الكفار !!

فقال ابن عباس رضي الله عنهما : (سأتلو عليك بذلك قرآناً ، فقرأ : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول : رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ﴾) .

الزكاة هي برهان على صدق إيمان المزكي :

روى مسلم وغيره عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو فبائع نفسه : فمعتقها أو موبقها ».

من أدى زكاته كل عام فقد طَعِمَ طَعْمَ الإيمان :

روى أبو داود عن عبد الله بن معاوية الغاضري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ثلاث من فعلهن فقد طَعِمَ طعْم الإيمان :

من عَبَد الله وحده وعلم أنه لا إله إلا الله .

وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه ، رافدة[1] عليه كل عام ، ولا يعطي الهرمة ، ولا الدرنة ، ولا المريضة ، ولا الشرط اللئيمة ، ولكن من وسط أموالكم ، فإن الله لم يسألكم خيره ، ولم يأمركم بشرِّه .

وزكَّى نفسه » .

جاء في رواية الطبراني : « قيل يا رسول الله : كيف يزكي العبد نفسه » أي : كيف السبيل إلى تزكية النفس ، وتطهيرها من الذنوب ، وإبعادها عن المعاصي ؟ .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « أن تعلم أن الله معك حيثما كنت ».

زكاة المال تزيده وتنميه :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما نقص مال من صدقة ، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزّاً ، وما تواضع عبد لله تعالى إلا رفعه الله تعالى » رواه الترمذي وغيره .

ترك الزكاة يؤدي إلى تلف المال ولو بعد حين :

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله

---

(١) (رافدة عليه) من الرفد .

صلى الله عليه وآله وسلم : « ما من يوم يصبح فيه العباد إلا وملكان ينزلان من السماء .

يقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً مالاً خلفاً .

ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً مالاً تلفاً » .

من أسرار الصيام وآثاره

للصيام آثار كبيرة وكثيرة : منها فيه التخلية ، ومنها فيه التحلية ، أذكر هنا جملة موجزة ، وأرجىء الباقي لأذكرها في رسالة خاصة بالصيام إن شاء الله تعالى :

فمن آثار الصيام : تخليته للصائم من ذنوبه وتطهيره منها :

جاء في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » .

ومعنى الصيام إيماناً واحتساباً : هو أن يصوم رمضان تصديقاً وتحقيقاً لأمر الله تعالى ، وطاعة واتباعاً لرسول الله ﷺ ، واحتساباً : أي طلباً لمرضاة الله تعالى ، ورغبة في الثواب عند الله تعالى .

وروى مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان : مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » .

فالصوم له أثر عظيم في مغفرة الذنوب ، كما أن له أثراً عظيماً في صحة الأجسام ، ودفع الأسقام :

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اغزوا تفتحوا ، وصوموا تصحّوا ، وسافروا تستغنوا »[1].

والصوم هو جنة ووقاية من النار :

روى الإمام أحمد بإسناد حسن عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « الصيام جُنَّة — أي : وقاية — يستجن بها العبد من النار » .

وفي رواية لأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « الصيام جُنَّة وحصن حصين من النار » والسند حسن .

ومن آثار الصيام في تحليته الصائم وفوزه بالمكرمات والفضائل : شفاعة الصيام بالصائم :

روى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة : يقول الصيام : أيْ ربِّ منعته الطعام والشهوة فشفعني فيه ، ويقول القرآن : منعته النوم بالليل فشفعني فيه — قال : فيشفعان »[2].

الفرحة الكبرى للصائم عند لقاء ربه :

روى مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « كلّ عمل ابن آدم يضاعف ، الحسنة بعشر

---

(١) رواه الطبراني في (الأوسط) ورواته ثقات .

(٢) قال المنذري : رواه أحمد والطبراني في (الكبير) ورجاله محتج بهم في الصحيح إلخ .

أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال الله تعالى : إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به ، يدع شهوته وطعامه من أجلي ، للصائم فرحتان : فرحة عند فطره ، وفرحة عند لقاء ربه ، ولخلوف[1] فَم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » .

الصائمون لا يعطشون يوم العطش الأكبر والحر الأعظم :

عن ابن عباس رضي الله عنهما : (أن رسول الله ﷺ بعث أبا موسى الأشعري رضي الله عنه على سرية في البحر فبينما هم كذلك قد رفعوا الشراع في ليلة مظلمة ، إذا هاتف فوقهم يهتف : يا أهل السفينة قفوا أخبركم بقضاء الله تعالى على نفسه .

فقال له أبو موسى : أخبرنا إن كنت مخبراً .

فقال : إن الله تعالى قضى على نفسه : أنه من أعطش نفسه له في يوم صائف ـ أي : صام في يوم حار ـ سقاه الله تعالى يوم العطش) .

رواه البزار بإسناد حسن ، ورواه ابن أبي الدنيا من طريق أخرى بلفظ : (إن الله تعالى قضى على نفسه أنه من عَطَّش نفسه لله تعالى ـ أي : صام في يوم حارٍّ ـ، كان حقاً على الله أن يرويه يوم القيامة).

قال : وكان أبو موسى الأشعري : يتوخّى ـ أي : يقصد ـ اليوم الشديد الحر ؛ الذي يكاد الإنسان ينسلخ فيه حَرّاً فيصومه . اهـ .

الصيام زكاة الجسد ، كما أن الزكاة زكاة المال :

روى ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله

(١) قال المنذري : الخَلوف : بفتح الخاء وضم اللام هو : تغير رائحة الفم من الصوم . اهـ .

ﷺ : « لكـل شيء زكاة ، وزكاة الجسد الصوم ، والصيـام نصف الصبر » .

الصائمون يدخلون الجنة من باب الريان :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أنفق زوجين في سبيل الله ، نودي من أبواب الجنة يا عبد الله هذا خير ، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة » .

فقال أبو بكر رضي اللهعنه : يا رسول الله هل يُدعى أحد من تلك الأبواب كلها ؟

فقـال صلى الله عليـه وآلـه وسلـم : « نعم – وأرجـو أن تكـون منهم » .

رواه الشيخان وأصحاب السنن وأحمد .

ثواب الصيام لا يعلمه إلا الله تعالى :

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « الأعمال عند الله عزَّ وجلَّ سبع : عملان موجبان ، وعملان بأمثالهما ، وعمل بعشر أمثاله ، وعمل بسبعمائة ، وعمل لا يعلم ثواب عمله إلا الله عز وجل :

فأما الموجبان : فمـن لقـي الله يعبـده مخلصاً لا يشرك بـه شيئاً – وجبت لـه الجنـة ، ومـن لقـي الله قـد أشرك بـه وجبت لـه النـار .

ومن عمل سيئة جزي بها ، ومن أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها — أي : لعجزه عن عملها — جزي مثلها .

ومن عمل حسنة جزي عشراً .

ومن أنفق ماله في سبيل الله ضُعِّفَتْ له نفقته : الدرهم بسبعمائة ، والدينار بسبعمائة .

والصيام لله عز وجل لا يعلم ثواب عامله إلا الله عَزَّ وجلَّ »(١).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من صام يوماً في سبيل الله تعالى — أي : مخلصاً لله تعالى — جعل الله تعالى بينه وبين النار خندقاً كما بين السماء والأرض » رواه الطبراني في (الأوسط والصغير) بإسناد حسن .

هذا وأجملت الكلام على أسرار العبادات وآثارها ، وأخرت الكلام على أسرار الحج وآثاره إلى كتاب آخر يتعلق بمناسك الحج إن شاء الله تعالى .



---

(١) قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني في (الأوسط) والبيهقي ، وهو في (صحيح) ابن حبان اهـ .

بيان أنواع القرب التي يتقرَّب بها المقرَّبُون

والخيرات التي يسبق إليها السابقون

التقرب إلى الله تعالى لا يكون إلا بما شرعه الله تعالى ، فإن شريعة الله تعالى هي الطريقة الموصلة إلى قربه وحبه سبحانه وتعالى ، ومن المعلوم في اللغة العربية أن : الشرعة ، والشريعة هي الطريقة قال تعالى : ﴿ لكلٍّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ .

فالتقرب إلى الله تعالى هو القيام بما أمر الله تعالى به شرعاً ، وترك ما نهى عنه قال الله تعالى : ﴿ واسجد واقترب ﴾، فبالسجود لله تعالى يكون الاقتراب إليه .

وفي الحديث الصحيح قال رَسول الله ﷺ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء » .

وهكذا الصلوات والصدقات والصيام والحج وجميع الأوامر الشرعية ـ كلها قربات يتقرب بها العبد إلى الله تعالى ، وكلها عبادات يقوم بها العبد أداءً لحق الله تعالى عليه كما قال ﷺ : « يا معاذ أتدري ما حق الله على عباده ؟» قلت : الله ورسوله أعلم ، قال ﷺ : « حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » الحديث .

وإن تلك العبادات ، وتلك القربات التي شرعها الله تعالى هي على نوعين : فرائض ونوافل .

فالقائم بجميع الفرائض : له مقام قرب الفرائض ، والقائم بالنوافل فوق

الفرائض : له مقام قرب النوافل ، وهو أرفع وأفضل من الأول ، والدليل على ذلك هو ما يلي :

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يقول الله عز وجل : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبَّ إلـيَّ مما افترضتـه عليـه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التـي يمشي بها ، ولئـن سألنـي لأعطينَّـه ، ولئـن استعـاذني لأعيذنّـه » الحديث .

فدلنا هذا الحديث على طريق التقرب إلى الله تعالى ، كما دلنا على أن القرب على مقامين وكل مقام هو على منازل متفاوتة ، ودرجات متعددة :

فهناك مقام قرب الفرائض وهو المطلوب أولاً ـ وذلك بأن يؤدي العبد جميع فرض الله تعالى عليه ، وما أوجبه عليه كاملاً موفَّراً ، ويدخل في ذلك ترك جميع المحرمات .

وهناك مقام قرب النوافل ، والنوافل هي الزيادات على الفرائض ، ولا تتحقق النافلة ؛ وتعتبر زيادة على الفرائض والواجبات إلا إذا كملت للعبد فرائضه وواجباته ، كمّاً وكيفاً ، فتعتبر الزيادة عند ذلك نافلة .

وأما إذا كانت الفرائض أو الواجبات ناقصة ، فإن النوافل تعتبر مكملة لذلك النقص ، وليست بزيادة عليها ، وحينئذ فلا تعتبر نافلة ، ولا تأخذ حكم النافلة ، لأن النافلة في اللغة العربية هي الزيادة على أصلٍ ـ وبناء على ذلك :

فكم من متنفِّلين ظاهراً ولكن في الحقيقة لا نافلة عندهم لأن فرائضهم التي يؤدونها ناقصة ، فنوافلهم هي جوابر ومكملات وليس بنوافل وزيادات .

روى أصحاب السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن أوَّلَ ما يحاسَب عليه العبد يوم القيامة من عمله الصلاة ، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح ، وإن فسدتْ فقد خاب وخسر ، وإن انتقص من فريضته شيئاً قال الله تعالى للملائكة : انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة ، ثم يكون سائر عمله على ذلك » .

فالنوافل تكمل نقص الفرائض ، فإذا كانت الفرائض كاملة وليس لصاحبها نوافل فإنه في مقام قرب الفرائض ، وهذا مقام أصحاب اليمين ، ويقال لهم المقتصدون ويُسمَّون الأبرار عند مقابلتهم بالمقربين ـ فافهم كما تقدم علينا ولا تخلط بين المراتب لسوء فهمك .

واعلم أن مقام قرب الفرائض لا يكمل للعبد إلَّا إذا أدَّى جميع الواجبات ، وانتهى عن جميع المحرمات ، ولذلك يجب على المكلّف أن يتعلّم ما أوجبه الله تعالى عليه ليؤدي تلك الواجبات ، كما يجب عليه أن يتعلم ما حرم الله تعالى عليه ليجتنبه .

فمن المسلمين من يظن أن الفرائض الإسلامية هي خمسة لا غيرها ، وهي الخمسة الواردة في الحديث المتفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء

الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان » .

فيظن بعض المسلمين أن تلك الفرائض الخمسة هي الدين كله ، وذلك من جهله في أمور دينه ، أو اغتراره بنفسه أو بماله .

فيقال له : إن هذه الفرائض الخمسة هي أهمُّ الفروض الإسلامية وأوجبها ، وهي متعينة على كل مكلّف بأدائها .

ولكن هناك فروض وواجبات إسلامية غيرها ، وهي كثيرة ، ولا يتحقق العبد بمقام القرب إلا بأدائها كلها .

فمن ذلك : أداء حقوق العباد المالية والثابتة في الذمة والتي دخلت عليك من غير طريق شرعي ، والعدل في المبادلات المالية والمعاملات دون ظلم ، ولا بخس حق ، ولا غش ، ولا تطفيف كيل ، ولا نقص وزن ، ولا تدليس عيب ، ولا قول كذب ، ولا خيانة أمانة ، ولا إخلاف في وعد ، ولا نقض عهد ، ولا رجوع عن عقد بعد إبرامه دون خيار .

ومن الواجبات إغاثة الملهوف ، ونصرة المظلوم ، وإعانة الضعيف ، وصلة الرحم ، وردُّ السلام ، وحسن اللقاء ، ومعاملة الناس بخلق حسن ، والنصيحة لعباد الله تعالى ، وحبُّ الخير لهم كما تحب لنفسك .

ومن الواجبات : حسن القيام بحقوق الزوجية الواجبة على الزوجين قال تعالى : ﴿ ولهنَّ مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهنَّ درجة والله عزيز حكيم ﴾ .

والملاطفة في المعاشرة الزوجية ، وحسن الجوار ، والبعد عما يؤذيهم .

ومن الواجبات الإسلامية : تحسين الظن بالمسلمين ما لم يشاهَد منهم غير ذلك ، والستر على العصاة المستترين ، والنصح لهم مع الدعاء لهم بالعافية من ذنوبهم .

ومن الحقوق الواجبة على الإنسان حقوق الحيوانات : فيجب على الإنسان الرفق بالحيوان ، فلا يجيعه ، ولا يوجعه ، ولا يتعبه ، ولا يزعجه ، ولا يحمله فوق طاقته ، ولا يؤذيه بنفسه ، ولا في أولاده ، سواء في ذلك البهائم والطيور وغيرها .

روى الإمام أحمد وغيره عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « لو غُفِر لكم ــ أي : لو غفر الله لكم ــ ما تأتون إلى البهائم لغفر لكم كثيراً » أي : لأنكم قد تغفلون عن أداء حقوقها .

ومن الفروض الإسلامية : إبعاد النفس عن المحرمات وهي كثيرة فمنها : الربا ، والزنا ، والخمر ، والميسر ، والغصب ، والظلم ، وشهادة الزور ، واليمين الغموس ، وقول الزور ، وانتهاك الأعراض بالقذف ونحوه ، والسباب ، والتعيير ، والتفسيق ، والتبديع ، والتكفير من غير دليل قطعي ثابت شرعاً ، وتتبع عورات الناس وزلاتهم وأخطائهم وهفواتهم .

والسب ، والشتم ، واللعن ، وكشف ستر المسلم ، والغيبة ، والنميمة ، وسوء الظن ، والسخرية بعباد الله تعالى واحتقارهم ، والتكبر ، والعجب ، والرياء ، والسمعة ، والغرور ، وحب الظهور والمفاخرة أو المكاثرة بالمال ، وحب المال ــ فإن ذلك يفسد دين صاحبه ، قال

ﷺ : « ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » .

فحب المرء للمال والفخر والظهور وحرصه عليهما ، يفسد عليه دينه أعظم من إفساد ذئبين جائعين أرسلا في غنم قد غفل عنها راعيها .

فإذا كملت الفرائض ، وأتى صاحبها بنوافل متعددة كثيرة ، فإنه يرتقي إلى مقام قرب النوافل ، وهو مقام السابقين بالخيرات ، المقربين قرباً خاصاً .

وهذا المقام له خصائصه وكراماته وفضائله ، فمن ناله نال تلك المكرمات والخصوصيات ، وذلك أنه يرتقي بصاحبه إلى مقام المحبوبية الخاصة كما جاء في الحديث القدسي الذي تقدم : « ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل – وفي هذه الصيغة من الكلام ما يدل على الإكثار من النوافل – حتى أحبَّه » . وفيهم يقول سبحانه : ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ .

وإذا انتهى العبد وارتقى إلى مقام قرب النوافل الذي تثبت له فيه المحبوبية ؛ نال خصوصياته ومكرماته كما جاء في الحديث :

« فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنَّه » .

وروى الإمام أحمد عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : « قال الله تعالى : من آذى لي ولياً فقد استحلَّ محاربتي ، وما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء الفرائض ، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت عينه التي يبصر بها ، وأذنه التي يسمع بها ، ويده

التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وفؤاده ــ أي : قلبه ــ الذي يعقل به ، ولسانه الذي يتكلم به ــ إن دعاني أجبته ، وإن سألني أعطيته ، وما تردَّدْتُ عن شيءٍ أنا فاعله تردّدي عن وفاته ، وذلك لأنه يكره الموت وأنا أكره مَساءته » .

وروى الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى يقول : من أهان لي ولياً فقد بارزني بالعداوة .

ابنَ آدم ــ أي : يا ابن آدم ــ لن تدرك ما عندي إلا بأداء ما افترضتُ عليك ، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه : فأكون أنا سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ولسانه الذي ينطق به ، وقلبه الذي يعقل به ، فإذا دعاني أجبته ، وإذا سألني أعطيته ، وإذا استنصرني نصرته ، وأحبُّ ما تعبَّد لي عبدي به النصيحة » .

وروى الطبراني وغيره عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ عن جبريل عليه السلام عن ربه تعالى قال : « مَنْ أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تردَّدتُ عن شيء أنا فاعله ما تردَّدتُ في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بُدَّ له منه .

وإن من عبادي المؤمنين من يريد باباً من العبادة فأكفه عنه أن لا يدخله عجب فيفسده ذلك .

وما تقرَّب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه .

ولا يزال عبدي يتنفل حتى أحبه ، ومن أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً .

دعاني فأجبته ، وسألني فأعطيته ، ونصح لي فنصحت له .

وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر وإن بسطت له لأفسده ذلك .

وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك .

وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك .

وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك .

إني أدبّر عبادي بعلمي بما في قلوبهم إني عليم خبير » .

والمراد بهؤلاء العباد ـ العباد المخلصون المؤمنون الكاملون ، فلله تعالى بهم عناية خاصة ، وهو وليهم ومولاهم ومتوليهم ، كما جاء في الحديث : « وإن من عبادي المؤمنين »ـ أي : كُمَّل الإيمان .

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وإني لأسرعُ إلى نصرة أوليائي إني لأغضب لهم كما يغضب الليث الحرد .

وما ترددت عن شيءٍ أنا فاعله ترددي عن قبض روح عبدي المؤمن وهو يكره الموت وأنا أكره مساءته ولابدَّ له منه .

وما تعبدني عبدي المؤمن بمثل الزهد في الدنيا .

ولا تقرَّب إليَّ عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه .

ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيِّداً ـ إن سألني أعطيته وإن دعاني استجبت له .

وإن من عبادي المؤمنين لمن يسألني باباً من العبادة فأكفه عنه ولو أعطيته إياه لدخله العجب وأفسده ذلك .

وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك .

وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك .

وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلحه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك .

وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلحه إلا السقم لو أصححته لأفسده ذلك .

وإني أدبِّر عبادي بعلمي بقلوبهم إني عليم خبير »[1].

وروى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « يقول الله تبارك وتعالى : من عادى لي ولياً فقد ناصَبني بالمحاربة .

وما ترددت عن شيءٍ أنا فاعله كترددي عن موت المؤمن يكره الموت وأكره مساءته .

وربما سألني وليِّي المؤمن — الغنى فأصرفه إلى الفقر ولو صرفته إلى الغنى لكان شراً له .

وربما سألني وليِّي المؤمن الفقر فأصرفه إلى الغنى ، ولو صرفته إلى الفقر لكان شراً له .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا والحكيم الترمذي وابن مَرْدُوْيَهْ وغيرهم .

وإن الله تعالى يقول : وعزتي وجلالي ، وعلوي وبهائي وجمالي وارتفاع مكاني : لا يؤثر عبد هوائي — أي : محبته لي — على هوى نفسه إلا ضمنت السماء والأرض رزقه ، وكنت له من وراء تجارة كل تاجر ».

وقد أوردت لك أيها اللبيب هذا الحديث — المسمى بحديث الأولياء — برواياته حتى تكون على يقين من الأمر ، وحتى تعلم يقيناً فضل التقرب إلى الله تعالى وشرف مقام القرب من حضرة الربّ جلَّ وعلا ، وتعلم مراتب المقربين وما أكرمهم الله تعالى به ، وتولَّاهم بتوليته الخاصَّة ، وحتى تعلم الطريق الموصلة إلى مرتبة الولاية ومقام القرب .

كلمات موجزة حول حديث الأولياء

إعلم أن الكلام على معاني هذا الحديث الشريف وما يدل عليه — مفصَّلاً يحتاج إلى كتاب واسع خاص به ، ولكن أذكر فصولاً موجزة ينفعني الله تعالى بها وينفعك بها إن شاء الله تعالى :

أولاً — هذا الحديث المسمى بحديث الأولياء يبين لنا أن لله تعالى أولياء لهم فضلهم ومكانتهم عند الله تعالى وكرامتهم ، تولَّاهم الله تعالى بعنايته ونصرته لهم ، وأن من أحبهم فقد أحبَّ الله تعالى ، ومن عاداهم فقد عادى الله تعالى ، ومن عادى الله تعالى فالله محاربه ؛ ولا شكّ أن الله تعالى خاذله وغالبه .

فيقول سبحانه : « من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب » أي : فقد أعلنت وأعلمته بأني محاربه .

وفي ذلك وعيد شديد وتهديد أكيد لمن أهان ولياً لله تعالى أو عاداه ؛ كما جاء في شأن المرابين : قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحربٍ من الله ورسوله ﴾ الآية .

فأولياء الله تعالى تجب موالاتهم ومحبتهم وتعظيمهم : قال تعالى :﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾ .

فمن أهان أولياء الله تعالى ؛ أو آذاهم ؛ أو احتقرهم ؛ فقد تصدّى لأن يحاربه الله تعالى .

وإن أخصَّ أولياء الله تعالى هم أصحاب رسول الله ﷺ ، وقد أوصى بهم رسول الله ﷺ ، وحذّر من بغضهم وإيذائهم حيث قال كما في الحديث الذي رواه الترمذي عن عبد الله بن مغفَّل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اللهَ اللهَ في أصحابي لا تتخذوهم غَرَضاً من بعدي ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » .

أعاذنا الله تعالى من محاربته ، ومن إيذائه ، ومن إهانة أوليائه وأحبته ، وجمعنا وإياهم في حظيرة قدسه ، وفي فسيح جنته مع سيد العالمين ، وأشرف خليقته سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وذريته وشيعته ـــ آمين .

ثانياً ـــ في الكلام على معنى وليّ الله تعالى :

اعلم أن الوليَّ في لغة العرب له عدة معانٍ تعلم من سياق الكلام

الذي ورد فيه ، والمعنى المراد به هنا يدل على القرب والحب والنصرة .

فوليُّ الله تعالى هو مشتق من الولْي – أي القرب – ومنه قوله ﷺ للآكل : « كُلْ مما يليك » أي : من أمامك القريب .

ومنه حديث : « لِيلِني أولوا الأحلام منكم والنهى » .

أو أنه مشتق من الولاء ، وهو المحبة والنصرة – وسواءٌ قلت هذا أو ذاك فهما متلازمان .

وهو – أي : وليّ – على وزن فعيل ، ويستوي في هذه الصيغة اسم الفاعل واسم المفعول .

وقد اختلف في المراد بولي الله تعالى أهو معنى الفاعلية أو المفعولية – والحق أنهما متلازمان ، فولي الله تعالى هو المتقرب إلى الله تعالى بما شرعه الله تعالى ، وفي هذا معنى الفاعلية ، وهو أيضاً مقرَّب من جانب الله تعالى فإنه كلما اقترب وتقرَّب قربه الله تعالى حتى يصير من المقربين – بمعنى المفعولية .

ووليّ الله تعالى هو المحب لله تعالى بل هو أشدُّ حباً لله ، بمعنى الفاعلية ووليّ الله تعالى هو محبوب الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ .

ووليُّ الله تعالى هو الناصر لله تعالى ولدينه على الفاعلية ، وهو منصور من جانب الله تعالى ومؤيَّد – على المفعولية ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ﴾، وقال تعالى : ﴿ ولينصرنَّ الله من ينصره ﴾ فهو ناصر ومنصور ، ومحبٌّ ومحبوب ، ومتقرِّب ومقرَّب .

ثالثاً – هذا الحديث القدسي يبين لنا طريق الوصول إلى مرتبة الولاية

والقرب من الله تعالى ، وذلك بأن يتقرب العبد إلى ربه بما أحبه الله تعالى وشرعه ، فيأتمر بأوامره وينتهي عن مناهيه ، وأحب الأوامر إليه هي الفرائض ـ قال : « وما تقرب إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إليَّ مما افترضته عليه » .

وامتثال الأوامر واجتناب المناهي ذلك هو التقوى ، قال تعالى : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

ففي هذه الآية الكريمة يعلن الله تعالى منشور أوليائه وحفاوته بهم بالإيمان والأمان ، ويعلن صدقهم في أعمالهم ، وما لهم من البشائر من الله تعالى في الدنيا والآخرة ، كما سيأتي شرح هذه الآية الكريمة إن شاء الله تعالى .

فأولياء الله تعالى هم المتقون لله تعالى ـــ أي : الممتثلون أوامره ، والمجتنبون ما نهى عنه ، قال تعالى : ﴿ وما كانوا ـــ أي : الكفار ـــ أولياءه . إنْ أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

فالمتقون هم أولياء الله تعالى وهم أولياء رسول الله ﷺ : فقد روى الحاكم في (المستدرك) أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جمع قريشاً فقال : « فيكم من غيركم » .

فقالوا : فينا حليفنا ، وابن أختنا ومولانا .

فقال ﷺ : « حليفنا منا ، وابن أختنا منا ، ومولانا منا ، إن أوليائي منكم المتقون » .

وروى الإمام أحمد في (مسنده) عن معاذ رضي الله عنه قال : لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى اليمن خرج معه رسول الله ﷺ يوصيه ، ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي إلى جانب راحلته فلما فرغ — من وصيته له — قال : « يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري » فبكى معاذ جشعاً لفراق رسول الله ﷺ ، ثم التفت ﷺ فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال : « إن أولى الناس بي المتقون ، مَنْ كانوا وحيث كانوا » .

اللهم اجعلنا منهم .

رابعاً — هذا الحديث القدسي يبين لنا أن أولياء الله تعالى هم صنفان :

الصنف الأول : المقتصدون وهم المقتصرون على أداء الفرائض — أي الواجبات التي أوجبها الله تعالى عليهم ، ويدخل في ذلك الواجبات فعلاً ، وهي المأمورات العملية والقولية والخلقية ، والواجبات تركاً وهي المحرمات .

فإن المأمورات يجب فعلها ، والمنهيات يفترض ويجب تركها .

وبذلك يرتقي المسلم من مرتبة الظالم لنفسه إلى مقام قرب الفرائض .

ويجب أن يعلم أن جميع الأمور الدينية التي شرعها الله تعالى هي من العبادات والطاعات والأعمال الصالحة والأقوال الطيبة ، والأخلاق المرضية ، وجميع ذلك تعتبر قربات تقرِّب العبد إلى ربه جلَّ وعلا ، ولما كانت الصلاة أهمها وأعظمها قال تعالى فيها : ﴿ واسجد واقترب ﴾، وفي

الحديث عنه ﷺ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء » .

فمن العبد الاقتراب والتقرب إلى الله تعالى بما شرعه الله تعالى ، ومن الله تعالى التقريب إليه ضعف ما يتقرب العبد إليه كما قال ﷺ في الحديث الذي رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله عزَّ وجلَّ : « أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ، وإن تقرَّب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ــ أي : ضعف ما تقرَّب العبد ــ وإن تقرب إليَّ ذراعاً تقربت منه باعاً ــ أي : ضعف ما تقرب العبد ــ وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » وسيأتي شرح هذا الحديث إن شاء الله تعالى . وقد تقدم الكلام مفصلاً على مقام المقتصدين .

الصنف الثاني : من أولياء الله تعالى : المقربون : وهم الذين تقربوا إليه سبحانه بالنوافل زيادة على الفرائض ، فهم لهم المقام الأعلى .

والنوافلُ المذكورة في هذا الحديث هي : الخيرات التي سبق بها السابقون ، الذين ذكرهم الله تعالى بقوله : ﴿ ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ كما تقدم .

وسُميتْ النوافل بذلك : لأنها تجلب لصاحبها خيرات وخيرات لا يعلمها إلا الله تعالى ؛ في الدنيا والآخرة ، وتفتح أبواب الخير الإلٓهي الذي لا يغلق أبداً كما قال ﷺ لمعاذ بن جبل بعدما بيَّن له فرائض الإسلام ــ قال له : « ألا أدلك على أبواب الخير » ثم ذكر له جملة من النوافل .

فالنوافل ـ أي : العبادات والطاعات زيادة على الواجبات ـ هي الخيرات ، وهي أبواب الخير ، ومنها يدخل العبد المؤمن فيصل إلى مقام المقربين ؛ قرب السابقين أهل النوافل .

ومن أي باب دخل المؤمن فيه من تلك الخيرات النافلة زيادة على الواجبات التامة ، فإنه بذلك يلتحق بالمقربين الذين هم فوق مقام المقتصدين أصحاب اليمين ، فالله تعالى فتَّح أبواب الخير ، وجعلها كثيرة ليقصده القاصدون ، وليدخلوا منها إلى حضرة قربه .

إذاً ما هي أنواع أبواب الخير والخيرات ـ أي : الطاعات والقربات النافلة ؟ .

نعم بيَّنها النبي ﷺ ونصَّ على التقرب بها إلى الله تعالى وهي أنواع كما سيتضح لك إن شاء الله تعالى ، فمن دخل بعض تلك الأبواب فهو من السابقين ، ومن دخلها كلها فهو من سابقي السابقين .

فجزى الله تعالى نبينا ورسولنا وروح أرواحنا سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أفضل ما جازى نبياً عن قومه ، ورسولاً عن أمته ، وجعلنا الله تعالى من أتباعه ، وحشرنا في زمرته ، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم دَلّنا على خير ، ودَلّنا على أبواب الخير كلها ، كما قال : « ألا أدلك على أبواب الخير »، وبَيّن لنا طريق التقرب إلى الله تعالى ، وفصَّل لنا كل شيء ، فلم يتركنا حيارى ، ولم يتركنا في ظلمة الجهل ، ولا في ظلمات وحشة الفكر ، ولا في ظلمات الشكوك والشبهات ، بل تركنا على نوره الباقي أبد الآبدين ، قال ﷺ : « تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها ونهارها سواء ، لا يزيغ عنها إلا هالك » .

فجزاك الله تعالى يا سيدي يا رسول الله خير الجزاء ، كما أنت أهله وأنتَ الذي يقال فيه حقاً :

إذا نحن أثْنينـــا علـــيك بصالح فأنتَ الذي تُثني وفوق الذي تُثني
وإن جَرَت الألفاظ منـا بمدحـةٍ لغيركَ إنساناً فأنتَ الـذي نعنـي

أنواع الخيرات والقربات وأبواب الخير

التي يدخل منها إلى مقام القرب الخاص

المسمى قرب النوافل

إن نوافل القربات والطاعات التي يتقرب بها إلى الله تعالى هي أنواع متعددة :

١ ـ نوافل عملية:قلبية أو جارحية .
٢ ـ نوافل قولية .
٣ ـ نوافل مالية .

وسأبينها مع أدلتها إن شاء الله تعالى ، حتى يكون السائر في طريق العبادة لله تعالى ، والسالك طريق القرب من حضرة الرب جلَّ وعلا ــ يكون على بينة من أمره ، متبعاً هدى رسول الله ﷺ وتعاليمه ، منتهجاً سبيل رسول الله ﷺ ، الذي دعا العباد إليه ، ليوصلهم إلى ربهم تبارك وتعالى ، ويحبِّب قلوبهم به سبحانه ، قال تعالى : ﴿ قل : هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ .

اللهم اجعلنا من أتباعه ، واملأنا من أسراره وأنواره ﷺ .

والنوافل كما بينت لك هي ما زاد على الفرائض والواجبات ، من العبادات والطاعات ، وفعل الخيرات ، وهي : كثيرة شهيرة والحمد لله رب العالمين ، ولا يمكن جمعها كلها في هذا الكتيب ، ولذلك فإني أذكر لك أيها القارىء الكريم جملاً منها موجزةً ، تنهض بهمتك ، وتقوّي عزيمتك إلى المسارعة إليها ، وإلى ما وراءها إن شاء الله تعالى .

التَقرُّب إلى الله تعالى بالنوافل العمليَّة

روى الترمذي وغيره عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار ؟

قال ﷺ : « لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يَسَّره الله تعالى عليه :

تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت » .

ثم قال ﷺ : « ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما تطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل في جوف الليل ، ثم تلا : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ــ حتى بلغ ــ يعملون ﴾ .

ثم قال ﷺ : « ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟»

قال معاذ : قلت : بلى يا رسول الله .

فقال ﷺ : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد » .

ثم قال ﷺ : « ألا أخبرك بمِلاك ذلك كله ؟» .

قلت : بلى يا رسول الله .

فأخذ بلسانه وقال ﷺ : « كفَّ عليك هذا » .

قلت : يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟

فقال ﷺ : « ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكبُّ الناس في النار على وجوههم – أو قال : على مناخرهم – إلا حصائد ألسنتهم » .

فبيَّن النبي ﷺ في هذا الحديث أولاً مرتبة المقتصدين أصحاب اليمين ، وما يعطيه قرب الفرائض من دخول الجنة والأمان من عذاب النار ، ثم نهض بهمَّة معاذ فبيَّن له شأن المقربين السابقين بالخيرات ، فدلَّه على أبواب الخيرِ من نوافل الصيام ، ونوافل الصدقات المالية ، والدليل على أنها النوافل ذكر الصيام والزكاة المفروضين في أول الحديث ، ثم نوافل الصلوات وأهمُّها وأفضلها : صلاة الليل ، فإنها شعار الصالحين الكمّل – أي المقربين الذين قال تعالى فيهم : ﴿ فلا تعلم نفسٌ ما أُخفي لهم من قُرّة أعين ﴾ أي : فلا تعلم نفس قامت من الليل وتركت المضاجع ، لا تعلم قدر ما أعد الله تعالى لها ، وأخفى لها من النعيم الأبدي ، الذي تَقَرُّ به عينها ، ﴿ جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ .

وقوام الليل هم : المواظبون عليه ، هم داخلون في المقربين السابقين بالخيرات ، والداخلين في باب الخير العظيم – الذين جاء في الحديث القدسي فيهم عن رب العالمين كما روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال ﷺ : « يقول الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

ثم قال : « اقرأوا إن شئتم قول الله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ » الآية .

فلما أخفوا لله تعالى عملاً في الليل ، تقربوا به إلى الله تعالى ، و لم ترهم أعين الناس — أخفى الله تعالى لهم ثواباً لم تره عين ، و لم تسمع به أذن ، و لم يخطر على قلب بشر ، فإذا قَدِمُوا عليه سبحانه ، أقرَّ أعينهم بذلك .

اللهم اجعلنا من أولئك فضلاً منك ونعمة . آمين .

فكم و كم من واصلين مقربين ، وصلوا إلى الله تعالى ونالوا مقام القرب الخاص بسبب مواظبتهم على قيام الليل ، كما أخبر عن ذلك رسول الله ﷺ :

روى الترمذي وغيره عن أبي أمامة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وقربة إلى ربكم ، ومكفرة للسيئات ، ومنهاة عن الإثم » .

كما أخبر ﷺ أن قُوّام الليل هم من السابقين إلى الجنة بغير حساب :

روى البيهقي وغيره عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ قال : « يحشر الناس في صعيد واحد يوم القيامة ، فينادي منادٍ فيقول :

أين الذين كانوا تتجافى جنوبهم عن المضاجع .

فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب — ثم يأمر بسائر الناس إلى الحساب » .

فمن صلّى في جوف الليل فقد تقرَّب إلى الله تعالى في الوقت الذي

يتقرب الله تعالى إلى عباده قرباً خاصاً : فقد روى الترمذي وصححه عن عمرو بن عيينة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول : « أقرب ما يكون العبد في جوف الليل الآخر ، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن » .

والمعنى : فاحرص كل الحرص على أن تكون في تلك الساعة ممن يذكر الله تعالى : بصلاة ، وتلاوة قرآن ، أو استغفار ، أو دعاء ، ونحو ذلك – فإنها قرب ، وهكذا نوافل الصلوات ، كما فصلت ذلك في كتاب : (الصلاة في الإسلام) ، ونوافل الصيام والحج النافلة : كلها قربات تقرب العبد إلى الله تعالى قرب المقربين السابقين بالخيرات ، إذا كملت لصاحبها فرائضه وواجباته ، ولم ينقص منها شيئاً .

وإن كانت ناقصة كانت النوافل مكملات لذلك النقص وليست نافلة زائدة .

التقرب إلى الله تعالى بالنوافل القولية

هناك نوافل قولية يتقرب بها العبد إلى الله تعالى وهي داخلة في الحديث القدسي حيث قال فيه : « وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه » الحديث .

والنوافل القولية أبواب خيرها كثيرة وواسعة ، فمن سبق إلى باب منها فهو سابق ، ومن سبق إلى أبوابها فهو أسبق .

وهي تشمل المواظبة على تلاوة كتاب الله تعالى ، والإكثار من الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والإكثار من التهليل ، والتسبيح ،

والتحميد ، والتكبير ، وجميع أنواع ذكر الله تعالى بأسمائه وصفاته ومحامده ودعائه .

فكلها أبواب خير ، وكلها خيرات وعبادات ، فمن سبق بها فهو سابق إليها يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴾ .

التقرب إلى الله تعالى بتلاوة كتابه

إن أفضل هذه النوافل القولية وأهمها : تلاوة كتاب الله تعالى مواظبة : قال تعالى : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارةً لن تبور . ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ﴾ .

وتسمى هذه الآيات آيات القرَّاء ، لأنها نزلت في مدحهم وتكريمهم وبشائرهم ، فذكر فضائلهم وأعمالهم ، وبدأ ذلك بأنهم يتلون كتاب الله ، وهذا يدل على أن تلاوة كتاب الله تعالى هي عبادة وقربة إلى الله تعالى ، لها شأنها الكبير ، وأجرها الكثير عند الله تعالى ، وبها يطوي العبد السالك مراحل مديدة ، وأسفاراً بعيدة ، حتى يصل إلى مقام القرب من حضرة الرب سبحانه ، ويحل في حظيرة القدس الرباني ، والأنس الرحماني .

روى الترمذي وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رجلاً سأل النبي ﷺ أيُّ الأعمال أحب إلى الله تعالى ؟

فقال ﷺ : « الحالُّ المرتحل » .

قال : وما الحالُّ المرتحل ؟

فقال ﷺ : « الذي يضرب من أول القرآن ـ أي : يبدأ من تلاوة أول القرآن ـ إلى آخره كلَّما حلَّ ارتحل » . أي : كلَّما ختم ختمةً أخذ بغيرها ، وهكذا مواظباً ، فهو مسافر إلى الله تعالى يقطع أشواطاً بعيدة المدى ، فهو لا بدَّ أن يصل لأنه يتقرب إلى الله تعالى بكلامه .

وقد بين النبي ﷺ أن التقرب إلى الله تعالى بتلاوة كتابه هي أعظم مقرب ، وأقرب تقرب ، وأفضل تقرب ، وأن العباد مهما تقربوا إليه بكلام ؛ ما تقربوا إليه بمثل كلامه .

روى الترمذي وحسَّنه عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « ما أذن الله لعبدٍ ـ أي : ما استمع الله تعالى لعبد ـ في شيء أفضل من ركعتين يصليهما ، وإن البرَّ ليُذرُّ على رأس العبد ما دام في صلاته ، وما تقرَّب العباد إلى الله تعالى بمثل ما خرج منه » أي : بمثل ما بدأ منه يعني القرآن الكريم ، فإنه كلام الله تعالى ، منه بدأ لأنه سبحانه هو المتكلم به ، وإليه يعود فهو كلامه لا كلام غيره .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم لا ترجعون إلى الله بشيءٍ ـ أي : لا تتقربون إليه بشيءٍ ـ أفضل مما خرج منه[1] » ـ أي : بدأ منه يعني القرآن .

وقد بيَّن النبي ﷺ أن أهل القرآن ـ أي : الموظبين على تلاوة القرآن ـ هم أهل الله وخاصَّته :

---

(١) قال الحافظ المنذري : رواه الحاكم وصححه ، ورواه أبو داوود في (مراسيله) عن جبير بن نفير . اهـ .

فعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله أهلين من الناس » .

قالوا : من هم يا رسول الله ؟!

قال ﷺ : « أهل القرآن هم : أهل الله وخاصَّته »[1] أي : هم أولياؤه وأحبابه .

فأهل القرآن الكريم الملازمون لتلاوته ، المتأدبون بآدابه ، هم أولياء الله تعالى وخاصَّة أهله بلا ريب ولا شك ، كما أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإن كلام الله تعالى هو أفضل الكلام .

روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الربُّ تبارك وتعالى : مَنْ شغله القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين ، وفضل كلام الله تعالى على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » .

ولذلك جاء في فضل تلاوته من الفضائل والأجور والثواب ما ليس في غيره ، فإن بكل حرف يتلى حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، وهذا أقل المضاعفات في تلاوة القرآن ، وفوق ذلك مضاعفات لا يقدر قدرها إلا الله تعالى ، على حسب تلاوة القارىء وخشيته وحضوره .

وروى الترمذي وصححه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول : ﴿ الۤم ﴾ حرف ، ولكن : ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » .

---

(١) قال المنذري : رواه النسائي وابن ماجه والحاكم . اهـ ورواه أحمد في (مسنده).

ومَنْ أراد التوسع في معرفة فضل التلاوة فليرجع إلى كتابي (تلاوة القرآن المجيد) يجد ما ينهض بالهمّة ويقوّي العزيمة .

ومن النوافل الإكثار من الصلاة والسلام على النبي ﷺ أبداً أبداً .

قال الله تعالى : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلّموا تسليماً ﴾ .

ففي هذه الآية الكريمة يأمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يصلوا على هذا النبي الكريم ، تكريماً لمقامهم ، وتشريفاً لهم — كما شرَّف الملائكة بذلك — ورفعة لدرجاتهم ، وتكفيراً لسيئاتهم ، ولينالوا الصلوات من الله تعالى ، والتسليمات عليهم ، ولينالوا الصلاة منه ﷺ عليهم ، ولينالوا صلاة الملائكة عليهم ، وليكونوا أولى به ﷺ ، وبشفاعته ، وبقربه ، وإكرامه ، وعطفه يوم القيامة ، ولينالوا بذلك خير الدنيا والآخرة .

وكل واحدة من تلك المكرمات جاءت فيها أحاديث نبوية ثابتة أذكرها لك بإيجاز ، أما تفاصيلها فارجع إلى كتابي : (الصلاة على النبي ﷺ).

روى مسلم وأصحاب السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من صلّى عليَّ صلاة واحدة صلى الله عليه عشراً » .

وروى الإمام أحمد وغيره عن أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والسرور يُرى في وجهه الشريف ، فقلنا يا رسول الله : إنا نرى السرور في وجهك ؟!

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إنه أتاني الملك فقال يا محمد أما يرضيك أن ربّك عزَّ وجلَّ يقول : إنه لا يصلي عليك أحدٌ من أمتك

إلا صليت عليه عشراً ، ولا يسلّم عليك أحد من أمتك إلاّ سلّمت عليه عشراً ، فقال ﷺ : بلى » أي : رضيت .

فالصلاة والسلام عليه ﷺ ذلك مقابل بعشر من الله تعالى .

وإن صلاة الله تعالى على عبده شأنها كبير ، وخيرها كثير ، كما بيّن الله تعالى ذلك لعباده المؤمنين الصادقين فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً . هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾ .

فصلاة الله على عباده تخرجهم من الظلمات إلى النور ، وليس المراد بالظلمات ظلمات الكفر ؛ لأنهم مؤمنون ، ولا ظلمات الليل وضوء النهار لأنهم لا محالة هم بالليل مظلمون وفي النهار مبصرون : قال تعالى : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ﴾ ، وقال في النهار : ﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ الآية .

ولكن المراد بالظلمات التي يخرجهم منها بصلاته عليهم هي : ظلمات القلوب بالذنوب ، وظلمات الشدائد والكروب ، وظلمات العقول بسبب الشكوك والشبهات ، والوساوس الشيطانية ، وظلمات الصدور بالضيق والغم ــ فبصلاته عليهم يخرجهم سبحانه من تلك الظلمات إلى نور الطاعات والعبادات ، وأنواع التجليات .

وإذا انجلت ظلمات النفس ، وتجلّت أنوار القدس ، حصل القرب ودخل في حضرة الأنس والحبّ كما في الحديث : « وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبَّه » .

كما أن الصلاة عليه ﷺ ترفع العبد درجات ، وتحط السيئات : روى

النسائي وأحمد وغيرهما عن أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه قال : أصبح رسول الله ﷺ طيِّب النفس يُرى في وجهه — الشريف — البِشْر . فقالوا : يا رسول الله أصبحتَ اليومَ طيبَ النفس يُرى في وجهك البِشر ؟

فقال ﷺ : « أَجَلْ — أتاني آتٍ من ربي عزَّ وجلَّ فقال لي : مَنْ صلّى عليكَ من أمتك صلاةً كتب الله بها عشر حسنات ، ومحا عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات ، وردَّ عليه مثلها » .

فكلما أكثر المصلي من الصلاة عليه ﷺ ارتفعت درجاته ، ومَنْ ارتقى في رفعة الدرجات لا بدَّ أن يصل إلى أرفع المقامات ، وهو مقام القرب الخاص فافهم .

وهكذا سيدنا محمد ﷺ يصلي على مَنْ يُصلّي عليه :

روى الطبراني عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من صلَّى عليَّ بلغتني صلاته ، وصليت عليه ، وكُتب له سوى ذلك عشر حسنات » .

فهو ﷺ يصلي على مَنْ يصلي عليه ويقول : اللّهم صَلِّ على فلان — ويذكره باسمه ؛ وما أفضل صلاته وما أشرفها !!

نعم إن فيها سكينةً للقلوب ، ومغفرةً للذنوب ، وزكاةً وطهارةً للنفس ، وبذلك يرتقي العبد إلى مقام القرب .

قال الله تعالى : ﴿ وصَلِّ عليهم إن صلاتك سَكَنٌ لهم ﴾ .

والسكن هو السكينة التي يسكن لها القلب ، وتطمئن لها النفس وتنعم ، ويزيد بها الإيمان ، ويحصل بها القربان ، قال تعالى : ﴿ هو الذي

أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ .

ولذلك كان أصحاب النبي ﷺ يحرصون كل الحرص على أن يُصَلِّي على أحدهم ويسألونه ذلك صلى الله عليه وآله وسلم .

روى ابن أبي شيبة عن جابر رضي الله عنه قال : أتانا رسول الله ﷺ فقالت له امرأتي : يا رسول الله صَلِّ عليَّ وعلى زوجي فقال : « صلَّى الله عليكِ وعلى زوجك » .

وفي الصحيحين وغيرهما عن ابن أبي أوفى قال : كان رسول الله ﷺ إذا أُتي بصدقة ـــ أي : ليعطيها للفقراء والمساكين ـــ قال ﷺ ـــ داعياً للذي أتى بالصدقة ـــ : « اللهم صَلِّ على آل فُلان » .

فأتاه أبي بصدقة فقال : « اللهم صَلِّ على آل ابن أبي أوفى » .

أي : اللهم صلِّ على ابن أبي أوفى وآله ـــ أهله وذريته وذويه ـــ فكان يصلي على دافع الصدقة وعلى آله .

وهذه قاعدة في لغة العرب إذا قيل آل فلان يريدون فلاناً وآله ، فهو داخل أولاً لا محالة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إلا آل لوط نجيناهم بسحر ﴾ والمراد : نجينا لوطاً وآله ، وليس المراد أن الله تعالى نجى آل لوط و لم ينج لوطاً الذي هو سبب لنجاة آله .

ومن ذلك ما جاء في بعض روايات البخاري في صيغة الصلاة الإبراهيمية : « كما صليت على آل إبراهيم » الحديث ـــ أي : كما صليت على إبراهيم وآله كما جاء في رواية أخرى .

ملائكة الله تعالى تصلي على مَنْ يصلي على سيدنا محمد ﷺ :

عن عامر بن ربيعة رضي الله عنه عن أبيه رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يخطب ويقول : « مَنْ صلَّى عليَّ صلاة لم تزل الملائكة تُصلي عليه ما صلَّى عليَّ فليقلَّ عبد من ذلك أو ليكثر »[1].

وروى الطبراني عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أكثروا الصلاة عليَّ يوم الجمعة فإنه أتاني جبريل آنفاً عن ربه عزَّ وجلَّ فقال : ما على الأرض من مسلم يصلي عليك مرة واحدة إلا صليت أنا وملائكتي عليه عشراً » .

أولى الناس به ﷺ وبشفاعته وقربه أكثرهم عليه صلاة :

روى الترمذي وابن حبان في (صحيحيهما) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة » .

صلّى الله عليه وسلم كما هو أهله وعلينا أجمعين .

مَنْ أكثر الصلاة على النبي ﷺ كُفِيَ همَّ الدنيا والآخرة ونال خير الدنيا والآخرة :

عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه أنه قال : قلت يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي — أي : فكم أجعل من دعائي صلاة عليك ؟ قال : « ماشئتَ » قلت : الربعَ ؟

قال ﷺ : « ما شئت وإن زدت فهو خير لك » .

---

(١) رواه أحمد وابن أبي شيبة وابن ماجه .

قلت : النصف ؟ قال : « ما شئت وإن زدت فهو خير لك » .

قلت : الثلثين ؟ قال : « ما شئت وإن زدت فهو خير لك » .

قال أبي بن كعب : أجعل لك صلاتي كلها ؟ قال : « إذاً تكفى همّك ويغفر ذنبك »(١).

وفي رواية لأحمد : قال ﷺ : « إذاً يكفيك الله تبارك وتعالى ما أهمَّك من دنياك وآخرتك » .

فكم وكم من أولياء لله تعالى نالوا مقام الولاية بكثرة الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـــ اللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين .

فيا أخي المؤمن ويا أختي المؤمنة : أوصي نفسي وأوصيكم بكثرة الصلاة على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـــ ما استطعتم من الإكثار ، فإنها سبب عظيم في جلاء الهموم والأكدار ، وفي كثرة الرزق المدرار ، ونيل رحمة الله تعالى العزيز الغفار ، وسبب في النجاة من النار ، وسبب عظيم في سعادة هذه الدار وتلك الدار ، وفي نيل عقبى الدار ، ورضا الله تعالى العزيز الغفار ، ورضا حبيبه الأكرم السيد المختار سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ما تعاقب الليل والنهار ، وعدد قطر الأمطار ، وورق الأشجار ، وعدد الأحجار والتراب والغبار ، وعلينا معهم أجمعين .

---

(١) رواه أحمد والترمذي وصححه .

من النوافل القولية الإكثار من ذكر الله تعالى

ومن النوافل القولية التي يتقرب بها العبد إلى الله تعالى حتى يلتحق بالمقربين : الإكثار من ذكر الله تعالى بتهليل ، أو تسبيح ، أو تحميد ، أو تكبير ، أو استغفار ، أو تمجيد ، أو ثناء على الله تعالى ، أو دعاء ، أو حوقلة ، أو حسبلة ، أو غير ذلك من الأسماء الإلٓهية ، والصفات الربانية .

وقد ذكرت وجوهاً متعددة من فضائل الإكثار من ذكر الله تعالى في كتابي (صعود الأقوال)، كما بينت كثيراً من صيغ الأذكار الواردة وفضائلها أيضاً فارجع إليها .

ولكن أذكر هنا ما لكثرة الذكر من قوة التأثير في القرب والارتقاء في مقام الحب ، وأفضليتها عند الله تعالى ، ورفعة درجاتها ، وإلحاقها بالسابقين بالخيرات .

روى ابن أبي الدنيا والطبراني عن مالك بن يخامر أنّ معاذ بن جبل رضي الله عنه قال لهم : إن آخر كلام فارقت عليه رسول الله ﷺ — يعني : حين ودعه رسول الله ﷺ وقد بعثه إلى اليمن ، ومعاذ راكب على الناقة ، ورسول الله ﷺ يمشي إلى جانب الناقة ، وهو يوصي معاذاً بوصايا جامعة — أن قلت : يا رسول الله : أي الأعمال أحبّ إلى الله تعالى ؟

قال : « أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله » .

ورواه البزار وابن حبان في (صحيحه) بلفظ : قال يا رسول الله : أخبرني بأفضل الأعمال وأقربها إلى الله تعالى ؟

قال : « أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله تعالى » .

وروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل أيُّ العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة ؟

فقال : « الذاكرون الله كثيراً » الحديث .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة فمرَّ على جبل يقال له جُمدان ، فقال ﷺ : « سيروا هذا جُمدان سبق المفرِّدون » .

قالوا : وما المفرِّدون يا رسول الله ؟

قال : « الذاكرون الله كثيراً » رواه مسلم .

ورواه الترمذي بلفظ : قالوا يا رسول الله : وما المفرِّدون ؟

قال : « المستَهترون بذكر الله تعالى ــ أي : المداومون على ذكر الله تعالى المولعون به ــ يضع الذكر عنهم أثقالهم ، فيأتون يوم القيامة خِفافاً ».ــ أي : لا أوزار تحمل عليهم .

وتكلمت على شرح هذا الحديث في كتاب (الصعود) فارجع إليه .

فالإكثار من ذكر الله تعالى فيه الحب والقرب والسابقية ــ اللهم اجعلنا من الذاكرين كثيراً .

والأحاديث الواردة في فضل الإكثار من ذكر الله تعالى هي كثيرة وشهيرة ، وفي ذلك دلالة على أن كثرة الكم هي محبوبة إلى الله تعالى ، وهي من مقاصد الشريعة ، وإن قوة الكيف لا تغني عن كثرة الكم .

والمعنى أن قوة توجه القلب وحضوره في ذكر الله تعالى قليلاً — لا يقوم ذلك ولا يعادل ذكر الله تعالى كثيراً ، إذ لو كان ذلك مغنياً عن الكثرة لما قال الله تعالى : ﴿ والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ﴾، ولما قال تعالى : ﴿ اذكروا الله ذكراً كثيراً ﴾ ، فلما أمر الله تعالى بكثرة ذكره دلَّ على أن القليل منه لا يقوم مقام الكثير ؛ ولو مع الحضور ، فإن المقصود من الكثرة هو الكثرة فافهم .

ولذلك ترى أن الأحاديث النبوية جاءت تبين أعداداً معينة محدودة في كثير من صيغ الذكر والتسبيح والتحميد والتكبير ، والاستغفار ، فإن العدد له اعتبار في الشرع ، وله شأنه الكبير ، بحيث إذا نقص لم يتم المراد ، ولم يحصل المطلوب .

ومن ثم نرى أن التسبيح جاء بعد الصلوات المفروضة ثلاثاً وثلاثين ، والتحميد كذلك ، والتكبير كذلك .

وفي رواية : أربعاً وثلاثين ، فلم يحدد بثلاثة بل بثلاثة وثلاثين .

وجاء عنه ﷺ : « أنه كان يستغفر الله تعالى كل يوم مائة مرة » .

وجاء عنه ﷺ أنه من قال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيي ويميت ، بيده الخير ، وهو على كل شيءٍ قدير مائة مرة ـ دبر صلاة الغداة كان يومئذٍ من أفضل أهل الأرض عملاً ، إلا من قال مثل ما قال ، أو زاد على ما قال » .

وجاء عنه ﷺ أنه قال : « مَنْ صلّى عليَّ كل يوم مائة مرة قضى الله له مائة حاجة ، وكتب له براءة من النفاق ، وبراءة من النار » .

والأحاديث في ذلك كثيرة ، ولذلك أجمع أهل الطرق كلهم على هذا الورد كل يوم : استغفار مائة مرة ، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له ــ إلى تمامها ــ مائة مرة ، والصلاة على النبي ﷺ مائة مرة ؛ ولك أن تزيد ما شئت .

كما روي عنه ﷺ أنه قال : « مَنْ صلَّى عليَّ في يوم ألف مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة » .

وقال ابن عمر : كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة يقول : « ربِّ اغفر لي ، وتب عليَّ ، إنك أنت التواب الرحيم » .

ومن ذلك كله تعلم : أن الأعداد التي جاء بيانها وتحديدها في الأحاديث النبوية لها اعتبار في شريعة الله تعالى ، وفي الأجر والثواب عند الله تعالى ، وأن جميع المقادير الشرعية والأعداد والكميات والتحديدات التي جاءت في الشريعة ــ هي من أحكام الشريعة ، ولها حكمها وأسرارها وأجورها ، وأنوارها ، وليست هي من باب العبث ، ولا من باب الصدف ، وإنما هي أحكام قائمة على حِكم ، وشريعة قيمة صادرة عن العليم الحكيم .

فالصلوات المفروضة خمسة وكل واحدة منها لها كمية عددية ؛ ففرض صلاة الصبح ركعتان ، والظهر أربع ، والعصر أربع ، والمغرب ثلاثة ، والعشاء أربع ــ وكل ذلك له حكم وأسرار .

والصيام شهر في السنة ، والزكاة ربع العشر ، وهكذا أمور الشريعة فيها المقادير والتوقيت والتعداد بالأعداد المعيَّنة .

وروى الإمام أحمد عن النبي ﷺ أنه قال : « مَنْ قرأ : ﴿ قل هو

والأحاديث في ذلك كثيرة ، ولذلك أجمع أهل الطرق كلهم على هذا الورد كل يوم : استغفار مائة مرة ، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له ــ إلى تمامها ــ مائة مرة ، والصلاة على النبي ﷺ مائـة مـرة ؛ ولك أن تزيد ما شئت .

كما روي عنه ﷺ أنه قال : « مَنْ صلَّى عليَّ في يوم ألف مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة » .

وقال ابن عمر : كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة يقول : « ربِّ اغفر لي ، وتب عليَّ ، إنك أنت التواب الرحيم » .

ومن ذلك كله تعلم : أن الأعـداد التـي جـاء بيـانها وتحديدهـا في الأحاديث النبوية لها اعتبار في شريعة الله تعالى ، وفي الأجر والثواب عند الله تعالى ، وأن جميع المقادير الشرعية والأعداد والكميات والتحديدات التي جـاءت في الشريعة ــ هـي مـن أحكـام الشريعـة ، ولها حكمهـا وأسرارها وأجورها ، وأنوارها ، وليست هي من باب العبث ، ولا من باب الصدف ، وإنما هي أحكام قائمة على حِكم ، وشريعة قيمة صادرة عن العليم الحكيم .

فالصلوات المفروضة خمسة وكل واحدة منها لها كمية عددية ؛ ففرض صلاة الصبح ركعتان ، والظهر أربع ، والعصر أربع ، والمغرب ثلاثة ، والعشاء أربع ــ وكل ذلك له حكم وأسرار .

والصيام شهر في السنة ، والزكاة ربع العشر ، وهكذا أمور الشريعة فيها المقادير والتوقيت والتعداد بالأعداد المعيَّنة .

وروى الإمام أحمد عن النبي ﷺ أنه قال : « مَنْ قرأ : ﴿ قل هو

الله أحد ﴾ حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصراً في الجنة » .

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إذاً نستكثر يا رسول الله .

فقال ﷺ : « الله أكثر وأطيب » .

فمن قرأ سورة الإخلاص عشر مرات بنى الله له قصراً في الجنة ، ومَنْ قرأ سورة الإخلاص عشر مرات مع قوة حضور القلب أو ملاحظة المعاني ضوعف له الأجر والثواب فيكون قصره أجمل وأكمل وأحسن .

وروى أبو داود وابن خزيمة أن النبي ﷺ قال : « من قام – أي قرأ في قيام الليل – بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين » أي : كتب ممن له قنطار من الأجر .

وروى الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ عشر آيات في ليلة لم يكتب من الغافلين ، ومن قرأ مائة آية كتب له قنوت ليلة ، ومن قرأ مائتي آية كتب من القانتين ، ومن قرأ أربعمائة آية كتب من العابدين ، ومن قرأ خمسمائة آية كتب من الحافظين ، ومن قرأ ستمائة كتب من الخاشعين ، ومن قرأ ثمانمائة آية كتب من المخبتين ، ومن قرأ ألف آية أصبح له قنطار ، والقنطار : ألف ومائتا أوقية ، والأوقية خير مما بين السماء والأرض – أو قال : خير مما طلعتْ عليه الشمس – ومن قرأ ألفي آية كان من الموجبين »[1].

فانظر يا أخي في أسرار الأعداد ، وما رتب الله تعالى عليها من المراتب والمقامات ، والثواب والأجور .

---

(١) قال الحافظ المنذري : الموجب هو الذي أتى بفعل يوجب له الجنة . اهـ .

فما ورد في الشريعة من أعداد مطلوبة ، أو كثرة محبوبة ينبغي التمسك بها حتماً ، ولذلك كان سادة القوم العارفين ، ومشايخ الطرق نفعنا الله تعالى بهم أجمعين يطالبون المنتسب إلى الطريق بالإكثار من ذكر الله تعالى ، وقد يلزمونه بأعداد كثيرة ، فإن للكثرة تأثيراً .

والمقصود هو الإكثار من ذكر الله تعالى ـ اللهم اجعلنا ممن قلت فيهم : ﴿ والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعدّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ برحمتك يا أرحم الراحمين .

وقد ذكرتُ بعض فضائل ذكر الله تعالى في كتابي (صعود الأقوال)، وفي كتاب (الدعاء) فارجع إليهما ينفعك الله تعالى بهما .

التقرب إلى الله تعالى بنوافل الصدقات المالية وغيرها

قال تعالى : ﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ .

وهذه جملة من صفات أهل قرب النوافل ، قد ذكرها الله تعالى لنا ، وختم ذكرهم بأنه سبحانه ﴿ يحب المحسنين ﴾ لأنهم محسنون العبادة لله تعالى ، ومحسنون المعاملة مع عباد الله تعالى .

وقد بيَّن النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه ، ودلَّه على أبواب الخير التي يُدخل فيها في مقام قرب النوافل فقال له : « ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جُنَّة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار » الحديث ، فباب الصدقات باب قرب ، يدخل منه المتقرب في حظيرة القدس الرباني .

وروى الطبراني بإسناد حسن عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « صنائع المعروف تقي مصارع السوء ، وصدقة السر تطفىء غضب الربِّ ، وصلة الرحم تزيد في العمر » .

وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله يوم القيامة ، قال ﷺ : « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » الحديث متفق عليه .

وروى مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال : إن أناساً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : يا رسول الله ذهب أهل الدثور — أي : الأموال — بالأجور ، يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم .

فقال ﷺ : « أَوَليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟! إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بمعروف صدقة ، ونهي عن منكر صدقة ، وفي بضع أحدكم صدقة » .

قالوا : يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟

قال : « أرأيتم لو وضعها في الحرام أكان عليه وزر ، فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر » .

وفي رواية الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا النبي ﷺ فقالوا : ذهب أهل الدثور — أي : الأموال — بالدرجات العلى — أي : وهي مقامات المقربين — والنعيم المقيم .

فقال ﷺ : « وما ذاك » ؟

قالوا : يصلون كما نصلي ... الحديث .

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الرجل الذي آتاه الله علماً بدينه ، ومالاً فيه سعة فاتقى فيه ربه ، ووصل رحمه ، وأدى حقه الواجب المتعلق بعين المال وهو الزكاة ، وأدى حقه الواجب بسبب عارض من : إغاثة ملهوف ، وإشباع جائع ، وكسوة عريان ، وإنقاذ مبتلى إلى غير ذلك جاء في الحديث أن هذا الرجل هو في أعلى المنازل يوم القيامة ــ أي : مع المقربين .

روى الترمذي وغيره عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث أقسم عليهن ، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه :

ما نقص مال من صدقة .

ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله بها عزاً .

ولا فتح عبد باب مسألة ــ أي : شحادة ــ إلا فتح الله عليه باب فقر » .

وزاد في رواية : « وما تواضع عبد لله إلا رفعه الله » .

قال ﷺ : « وأحدثكم حديثاً فاحفظوه :

إنما الدنيا لأربعة نفر :

عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي في ماله ربه ، ويصل به رحمه ، ويعلم أن لله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل .

وعبد رزقه الله علماً و لم يرزقه مالاً ــ أي : مالاً واسعاً ــ فهو صادق النية ، يقول : لو أن لي مالاً لعملت عمل فلان ــ أي : عامل الخير والبر ــ فهو بنيته وأجرهما سواء .

وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً فهو يخبط في ماله بغير علم : لا يتقي فيه ربه ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم أن لله فيه حقاً — فهذا بأخبث المنازل .

وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان — أي : المسرف على نفسه بالمعاصي — فهو بنيته ووزرهما سواء » .

ومن هنا تعلم فضل فاعل الخيرات والمبرات ، والمتطوع بماله فيما يرضي الله تعالى وأنه في أعلى المنازل .

وتعلم عقاب المهلك ماله فيما لا يرضي الله تعالى وأنه بأخبث المنازل .

وتعلم أن نية الخير كفاعله ، ونية الشر كفاعله — ونسأل الله العافية .

وقد بين النبي ﷺ أن الخلق كلهم عيال الله تعالى ، وأن أحبهم إليه تعالى هو أنفعهم لعياله :

روى البزار عن أنس ، والطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله » .

وروى الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « أحبّ الناس إلى الله تعالى أنفعهم ، وأحب الأعمال إلى الله عزَّ وجلَّ سرور تدخله على مسلم ، أو تكشف عنه كربة ، أو تقضي عنه ديناً ، أو تطرد عنه جوعاً .

ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إليّ من أن أعتكف في هذا المسجد شهراً .

ومن كف غضبه ستر الله عورته ، ومن كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه – ملأ الله قلبه رضاً يوم القيامة ، ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجة حتى يثبتها له أثبت الله تعالى قدميه يوم القيامة يوم تذل الأقدام .

وإن سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل » .

فإسداء الخير ، والسعي في مصالح العباد ، وفي قضاء حاجاتهم ، ورفع مهماتهم ، وتفريج كرباتهم ذلك من أعظم القربات إلى الله تعالى .

وإن أعظم خير وأكبر نفع توصله إلى العباد هو أن تنفعهم في دينهم ، وتعلّمهم شريعة الله تعالى وكتابه ، وسنة نبيه ﷺ ، وتثبت لهم إيمانهم ، وتمكن لهم عقيدتهم ، فتدفع عنهم الشبهات ، وترد عنهم الضلالات ، وتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكرات – ذلك أعظم القربات إلى رب الأرض والسماوات .

التقرب إلى الله تعالى بتعلم العلم النافع وتعليمه

إن المتعلم والعالم بدين الله تعالى ، المتمسك بشريعة الله تعالى ، الذي نفعه الله تعالى ونفع العباد بعلمه ، فعلمهم ما ينفعهم في عقيدتهم وتثبيتها ، وفي شريعتهم والعمل بها ؛ في تحسين أخلاقهم وسيرتهم ومعاملاتهم ، وبث فيهم علم الخشية من الله تعالى ، والحب لله وفي الله تعالى ، وورث العلم كابراً عن كابر ، وورّثه من بعده ، وبقي أثره في الخير – إن هذا العالم يفوق في الفضل والرتبة عند الله تعالى جميع المتطوعين بأنواع العبادات ،

والمكثرين من نوافل الصلوات والصدقات ونحو ذلك .

وذلك أمر لا يختلف فيه اثنان فإنه ثابت بالكتاب والسنة قال تعالى : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ .

وروى الطبراني والبزار بإسناد حسن عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « فضل العلم أحب إليّ من فضل العبادة ، وخير دينكم الورع » .

فالعلماء يرفع الله تعالى درجاتهم مع المؤمنين رفعاً عاماً ، ويرفع لهم درجاتٍ على المؤمنين – غير أولي العلم – رفعاً خاصاً ، فهم أعلى منزلةً من المؤمنين سواهم .

ويكفي في شرف العلماء وفضلهم أن الله تعالى يباهي بشهادتهم ، وقد قرن شهادتهم بشهادة الملائكة ، قال تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ .

ويكفي العلماء شرفاً وفضلاً على غيرهم أن الله تعالى جعلهم حفظة لكتابه وسنة نبيه ﷺ ، وجعلهم أعمدة لدينه ، وسنداً لشريعته في الدنيا ، وجعلهم حجة على العباد يوم القيامة ، باعتبار أنهم الورثة ، الذين ورثوا العلم عن رسول الله ﷺ ، وبلغوه للناس ، فلا يبقى عذر لجاهل في دين الله تعالى وفي قطره عالم بدين الله تعالى .

فإذا كان يوم القيامة واحتج بعض الجهلة بأنهم لم يعلموا أمور دينهم ، وأحكام شريعتهم ، جاءهم الجواب بأنه كان في عصركم علماء ، ورثوا علمهم عن العلماء قبلهم وهكذا إلى رسول الله ﷺ ، ولكنكم عملتم بأهوائكم وتركتم الأخذ عنهم – فالحجة قائمة عليكم .

وقد بين النبي ﷺ رفعة مستوى العلماء على غيرهم من العِبَاد والعُبّاد فقال :
« فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم » .

فهل بعد هذا البيان المحمدي من شك في فضل العلماء العاملين على غيرهم .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : ذُكِرَ لرسول الله ﷺ رجلان : أحدهما عابد والآخر عالم .

فقال عليه أفضل الصلاة والسلام : « فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم » .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله وملائكته ، وأهل السماوات والأرض ، حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على مُعلِّم الناس الخير » .

قال المنذري : رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

ورواه البزار من حديث عائشة مختصراً وقال فيه : « معلم الخير يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر » .

والعلماء هم ورثة الأنبياء صلوات الله تعالى على نبينا وعليهم وسلامه :

فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له مَنْ في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ،

إن الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورَّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظٍ وافر » رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في (صحيحه) وغيرهم .

فسيدنا محمد رسول الله ﷺ الناطق عن الله تعالى بَيَّن مراتب العلماء وفضلهم على غيرهم من العابدين .

والمراد بالعلماء الوارد ذكرهم في الكتاب والسنة ـ هم العلماء بدين الله تعالى وشريعته وراثة عن النبي ﷺ ، فهم علماء الكتاب والسنة والحلال والحرام **بدليل** أن الله تعالى قرن ذكرهم مع الملائكة ، فهم طيبون أطهار ، أتقياء أنقياء ، فقال : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط ﴾ الآية،و**بدليل** أن الله تعالى رفع درجاتهم على سائر المؤمنين فقال : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ .

وقد ذكر النبي ﷺ لعلماء هذه الأمة خصائص ومناقب وفضائل ليست لغيرهم :

روى الطبراني عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يبعث الله العباد يوم القيامة ، ثم يميِّز العلماء ، فيقول تعالى لهم : يا معشر العلماء إني لم أضع علمي فيكم لأعذبكم اذهبوا فقد غفرت لكم » رواه الطبراني في (الكبير) من طريقين ورواته ثقات .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يجاء بالعالم والعابد ـ يوم القيامة ـ فيقال للعابد : ادخل الجنة ، ويقال للعالم : قف حتى تشفع للناس » رواه الأصبهاني وغيره .

وعن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يبعث العالم والعابد ، فيقال للعابد : ادخل الجنة ، ويقال للعالم : اثبت حتى تشفع للناس بما أحسنت إليهم » .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أبا ذر لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله تعالى خير لك من أن تصلي مائة ركعة ، ولأن تغدو فتعلّم باباً من العلم عمل به أو لم يعمل به خير لك من أن تصلي ألف ركعة » رواه ابن ماجه بإسناد حسن كما في (الترغيب) .

وهناك أحاديث ثابتة كثيرة في فضل العلم والعلماء تحتاج إلى رسالة خاصة إن شاء الله تعالى .

والعلماء هم دعاة الهدي المحمدي الذي به حياة العالم :

جاء في (الصحيحين) وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً ، قال ﷺ فذلك مثل مَنْ فَقُه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً و لم يقبل هُدَى الله الذي أرسلت به » ﷺ .

فالعلم الذي جاء به ﷺ والهدي المحمدي هو غيث القلوب والأرواح والأشباح كما أن المطر غيث الأرض .

والناس في استعدادهم وتقبلهم لهذا الغيث المحمدي النازل عليه من عند الله تعالى ... الناس في ذلك على أصناف :

فمنهم أهل الحفظ والفهم والمعرفة وهم الذين حفظوه وعقلوه وفهموا معانيه واستنبطوا وجوه الأحكام منه ، وعرفوا أسراراً من الحكم والفوائد التي جاء بها الوحي المحمدي ﷺ — فهؤلاء بمنزلة الأرض التي قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، والخير الوفير فانتفعوا بعلمهم ونفعوا به عباد الله تعالى .

ومنهم أهل الحفظ الذين رزقوا حفظه ونقله وضبطه ، ولم يرزقوا تفقهاً في معانيه ، ولا استنباطاً لأحكامه ، ولا استخراجاً لحكمه ، ونقلوا ذلك لغيرهم ، وبلغوه كما تلقوه ، فرب مبلّغ أوعى من سامع ، وأفقه لمعانيه — فهؤلاء بمنزلة الأرض التي أخذت حظها من الماء حسب قابليتها ، وأمسكت البقية فانتفع الناس بما أمسكت ، فشربوا وسقوا زرعهم .

فهذان الصنفان هم السعداء — ولكن الصنف الأول هم أسعد وأرشد .

وهناك صنف من الناس لا نصيب لهم : لا حفظاً ، ولا فهماً ، ولا معرفة ، ولا رواية ، ولا دراية — بل أعرضوا عن ذلك كله ، وغرتهم الحياة الدنيا ، وفرحوا بها ، فهم بمنزلة الأرض التي هي قيعان : لا تنبت كلأً ، ولا تؤتي أكلها ، يمر عليها الماء ولم ينلها منه شيء ، كالمسيل من الصخر — فهؤلاء الأشقياء المحرومون من الغيث المحمدي صلى الله عليه وآله وسلم .

اللهم أسعدنا برسول الله ﷺ وبما جاء به يا أرحم الراحمين ـــ اللهم آمين .

وفي هذا الحديث تنبيه للعقلاء إلى أن العباد محتاجون إلى الغيث المحمدي أشد من حاجتهم إلى غيث السماء بالمطر الذي هو سبب في طعامهم وشرابهم .

قال الإمام أحمد رضي الله عنه : (الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب ، لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين ، وأما العلم فيحتاج إليه بعدد الأنفاس) . اهـ.

نعم لأن جميع ما يصدر عن الإنسان من أقوال وأفعال وأحوال وتحركات وسكنات ، وما يرد عليه من ظنون وتعقلات ، وما يعتريه من انفعالات نفسية ، وما يعقد عليه قلبه من همم ونيات وعزائم ــ جميع ذلك يجب أن يوضع في ميزان الشرع المحمدي ﷺ ، فما أقرَّه الشرع المحمدي فهو خير ، وما لم يقرِّه فهو شر ، ولا يعرف ذلك إلا بالعلم .

وقد قال الإمام مالك رضي الله عنه : (بلغني أن العلماء يسألون يوم القيامة عن تبليغهم العلم كما تسأل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام) .

وقال سفيان الثوري رحمه الله تعالى : (لا أعلم علماً أفضل من علم الحديث لمن أراد به وجه الله تعالى ، لأن الناس يحتاجون إليه في طعامهم وشرابهم فهو أفضل من التطوع بالصلاة والصيام لأنه فرض كفائي) . اهـ.

والعلماء العاملون هم عدول الأمة في كل عصر ، وبهم يحفظ الله تعالى الدين :

عن أسامة بن زيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم

أنه قال : « يحمل هذا العلمَ مِن كل خَلَفٍ عدولُه ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين »[1].

فالعلماء الصالحون هم حُرَّاس لدين الله تعالى ، وحفَّاظ له ، ولذا كان العالِم أشد على الشيطان من ألف عابد كما روى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « فقيه واحد أشدُّ على الشيطان من ألف عابد » .

الخروج في طلب العلم هو خروج في سبيل الله تعالى :

روى الترمذي وغيره عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع » .

وفي رواية البزار : « إذا جاء الموت لطالب العلم وهو على هذه الحالة مات وهو شهيد » .

وإنما جعل طلب العلم خروجاً في سبيل الله لأن به قوام الدين ، كما أن قوام الدين بالجهاد ، فإن الجهاد أنواع : جهاد النفس الأمارة بالقلب

---

(١) قال العلامة القسطلاني رحمه الله تعالى : هذا الحديث رواه من الصحابة سيدنا علي ، وابن عمر ، وابن عَمرو ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وجابر بن سمرة ، ومعاذ ، وأبو هريره رضي الله عنهم ، وأورده عن عديّ من طرق كثيرة كلها ضعيفة كما صرح به الدار قطني وأبو نعيم وابن عبد البر لكن يمكن أن يتقوّى بتعدد طرقه ويكون حسناً كما جزم به ابن كيكلدي العلائي . اهـ .
قال عبد الله : والقاعدة التي عليها جمهور المحدثين : أن الضعيف إذا تعدَّدت طرقه يرتقي إلى درجة الحسن .
قال العلامة الأبياري رحمه الله تعالى : ولذا استدل به ابن عبد البر وابن المَوّاق من المتأخرين على أن كل طالب علم معروف العناية فهو عدل ، محمول في أمره أبداً على العدالة حتى يتبين جرحه . اهـ .

الإيماني ، وجهاد بالسيف والسنان ، وجهاد بالقرآن النازل بالحجة والبرهان وهذا أفضل الكل قال تعالى : ﴿ فلا تطع الكافرين وجاهدهم به ﴾ أي : بالقرآن وحججه ﴿ جهاداً كبيراً ﴾ .

وقد أوصى رسول الله ﷺ بطلبة العلم كثيراً :

روى الترمذي عن أبي هارون قال : كنا نأتي أبا سعيد فيقول : مرحباً بوصية رسول الله ﷺ ، ويقول : إن النبي ﷺ قال : « إن الناس لكم تَبعٌ ، وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين ـ أي : يتفهَّمون أمور دينهم ـ فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً » .

وفي رواية عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : « يأتيكم رجال من قبل المشرق يتعلَّمون ، فإذا جاؤوكم فاستوصوا بهم خيراً » فكان أبو سعيد الخدري رضي الله عنه إذا رآنا قال : مرحباً بوصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وعن صفوان بن عسَّال المراديّ رضي الله عنه قال : أتيْت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو في المسجد متكِّىء على بُرد ـ أي : كساء ـ له أحمر فقلت له : يا رسول الله إني جئت أطلب العلم .

فقال : « مرحباً بطالب العلم ، إن طالب العلم تحفُّه الملائكة بأجنحتها ، ثم يركب بعضهم بعضاً حتى يبلغوا السماء الدنيا مِنْ محبتهم لما يطلب »[1].

---

(١) قال المنذري : رواه أحمد والطبراني بإسناد جيد واللفظ له وابن حبان والحاكم .

ثواب العلم النافع يجري على صاحبه إلى يوم القيامة :

روى مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

العالم والمتعلم شريكان في الخير :

روى ابن ماجه عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « عليكم بهذا العلم قبل أن يُقبض » وقبضه أن يرفع – وجمع بين إصبعيه : الوسطى والتي تلي الإبهام – ثم قال : « العالم والمتعلم شريكان في الخير ، ولا خير في سائر الناس » .

ورواه الدارمي بلفظ : قال رسول الله ﷺ : « خذوا العلم قبل أن يذهب » .

قالوا : وكيف يذهب العلم يا نبي الله وفينا كتاب الله ؟!

فغضب رسول الله ﷺ ثم قال : « ثكلتكم أمهاتكم أوَ لم تكن التوراة والإنجيل في بني إسرائيل فلم يغنيا عنهم شيئاً ، إن ذهاب العلم أن يذهب حملته ، إن ذهاب العلم أن يذهب حملته » .

وروى الدارمي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : (أُغد عالماً ، أو متعلماً ، أو مستمعاً ، ولا تكن الرابع فتهلك) .

والعلم النافع هو ما يحمل صاحبه على الخشية من الله تعالى ، والصدق مع الله ، والإخلاص لله تعالى :

روى الدارمي بإسناده عن مكحول عن النبي ﷺ أنه قال : « فضل

العالم على العابد كفضلي على أدناكم ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾، إن الله وملائكته ، وأهل سماواته وأرضه والنون في البحر يصلون على الذين يعلمون الناس الخير » .

والعلم النافع هو ما يحمل صاحبه على التواضع ، والبعد عن الصفات الذميمة ، كالحقد ، والحسد ، والكبر :

روى الدارمي بسنده إلى ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : (لا يكون الرجل عالماً حتى لا يحسد مَنْ فوقه ، ولا يحقر مَنْ دونه ، ولا يَبْتَغي بعلمه ثمناً) .

وروى ابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من طلب العلم ليباهي به العلماء ، ويماري به السفهاء ، أو ليصرف وجوه الناس إليه فهو في النار » ، ورواه الترمذي وغيره .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ تعلَّم صرف الكلام – أي : التصنع فيه والزيادة فوق الحاجة – ليسبي – أي : يستميل به – قلوب الرجال ، أو الناس ، لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً » – أي : لا فرضاً ولا نفلاً – رواه أبو داود كما في (ترهيب) المنذري .

وفي حديث طويل رواه مسلم وغيره ومنه : « ورجل تعلم العلم وعلَّمه ، وقرأ القرآن فأتي به – أي : للحساب – فعرَّفه الله تعالى نعمه فعرفها .

قال : فما عملت فيها ؟

قال : تعلمتُ العلم وعلَّمتُه وقرأتُ فيك القرآن .

قال الله تعالى : كذبت ، ولكنك تعلَّمت ليقال عالِم ، وقرأت القرآن ليقال قارىء – فقد قيل ، ثم أمِر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار » .

اللهم إنا نسألك علماً نافعاً ، ونعوذ بك من علم لا ينفع .

فضل من تعلَّم العلم لله تعالى ، ولينفع به عباد الله تعالى :

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « مَنْ غدا يريد العلم يتعلَّمه لله تعالى ، فتح الله له باباً إلى الجنة ، وفرشت له الملائكة أكتافها ، وصلت عليه ملائكة السماوات ، وحيتان البحر ، وللعالِم فضل على العابد كالقمر ليلة البدر على أصغر كوكب في السماء .

والعلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً ، ولكنهم ورَّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظه ، وموت العالم مصيبة لا تجبر ، وثلمة لا تُسدُّ ، وهو نجم طمس ، وموت قبيلة أيسر من موت عالِم »[1].

وجوب احترام العلماء وتوقيرهم :

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ليس من أمتي منْ لم يُجِلَّ كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ،

---

(١) رواه البيهقي وهذا لفظه ، ورواه أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، وابن حبان في (صحيحه) باللفظ المتقدم أول البحث .

ويعرف لعالِمنا حقَّه »[1].

فللعالِم حق الأدب معه والاحترام ، والتوقير والإكرام ، وقد برىء رسول الله ﷺ من الذي لا يؤدي العالم حقَّه ، كما برىء من الذي لا يُجِلّ ولا يوقر الكبير ، والذي لا يرحم الصغير .

فإجلال الكبير حق سِنِّه لكونه تقلب في العبودية لله تعالى أمداً طويلاً .

ورحمة الصغير حق تابع لحداثة سنه فهو موضع الشفقة والرحمة .

أما حق العالم فهو تابع لحق العلم الذي رفعه الله تعالى به درجات على غيره ، قال الله تعالى : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم ﴾ أي : رفعاً عاماً لكل مؤمن على حَسب إيمانه ، ثم قال : ﴿ والذين أوتوا العلم درجات ﴾ أي : يرفعهم درجات على غيرهم بسبب ما آتاهم من العلم .

وقد أمر صلى الله عليه وآله وسلم بالتواضع لمعلم العلم والأدب معه :

روى الطبراني في (الأوسط)، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « تعلَّموا العِلم ، وتعلموا للعلم السكينة والوقار ، وتواضعوا لمن تعلّمون منه » .

التحذير من الاستخفاف بالعلماء العاملين وعدم المبالاة بهم :

روى الطبراني في (الكبير) عن أبي أمامة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ثلاث لا يستخفُّ بهم إلا منافق : ذو الشيبة في الإسلام ، وذو العلم ، وإمام مقسِط »[2].

---

(١) رواه الإمام أحمد والطبراني والحاكم بلفظ « ليس منا ». وقد نص المنذري والهيثمي على حسن سنده .
(٢) انظر (ترهيب) المنذري و (مجمع الزوائد) .

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « لا أخاف على أمتي إلا ثلاث خلال : أن يكثر لهم من الدنيا فيتحاسدوا عليها ، وأن يفتح لهم الكتاب يأخذه المؤمن يبتغي تأويله ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ وأن يروا ذا عِلم فيضيِّعوه ولا يبالوا عليه » . رواه الطبراني في (الكبير) .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من علَّم عبداً آيةً من كتاب الله فهو مولاه لا ينبغي أن يخذله ، ولا يستأثر عليه » رواه الطبراني .

فضل مجالس العلم والتحذير من الإعراض عنها :

روى الطبراني في (الكبير) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » .

قالوا : يا رسول الله وما رياض الجنة ؟

قال : « مجالس العلم » .

فمجالس العلم هي من رياض الجنة ، تستنير فيها القلوب ، وتنشرح فيها الصدور ، وتقوي الإيمان وتحيي قلب الإنسان .

كما رُوي عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « إن لقمان قال لابنه يا بنيَّ عليك بمجالسة العلماء ، واسمع كلام الحكماء ، فإن الله تعالى ليحيي القلب الميِّت بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر »[1].

---

(١) رواه الطبراني في (الكبير) من طريق حسنها الترمذي بغير هذا المتن كما في (ترغيب) المنذري قال : ولعله موقوف والله أعلم . اهـ .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قيل يا رسول الله أيُّ جلساتنا خير ؟

قال : « من ذكّركم الله رؤيته ، وزاد في علمكم منطقه ، وذكركم الآخرة عملُه » رواه أبو يعلى .

مجالس العلم هي من رياض الجنة :

من أوى إليها آواه الله تعالى ، ومن أعرض عنها أعرض الله عنه .

روى البخاري وغيره عن أبي وافد الليثي أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر : فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد .

قال فوقفا على رسول الله ﷺ .

فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها .

وأما الآخر فجلس خلفهم .

وأما الثالث فأدبر ذاهباً .

فلما فرغ رسول الله ﷺ قال : « ألا أخبركم عن الثلاثة ؟

أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله .

وأما الآخر فاستحيا ، فاستحيا الله منه .

وأما الآخر فأعرض ، فأعرض الله عنه » .

كما أن مجالس الذكر من رياض الجنة :

فعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » .

قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : « حِلَق الذكر »[1].

وحلق الذكر تشمل حلقة الجالسين لتلاوة كتاب الله تعالى ، والجالسين لدراسة معاني كتاب الله تعالى ، والجالسين لتلاوة حديث رسول الله ﷺ ودراسة معانيها ، قال تعالى : ﴿ واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ أي : الحديث النبوي الشريف ، والجالسين للصلاة على النبي ﷺ ، والجالسين لذكر الله تعالى بتسبيح أو تحميد أو تهليل أو تكبير ، والجالسين لذكر الله تعالى باسم من أسمائه أو صفة من صفاته ، والجالسين لذكر الله تعالى بالدعاء والتوجه إلى الله تعالى :

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » .

قالوا وما رياض الجنة ؟

قال : « المساجد » .

قيل : وما الرتع ؟

قال : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر »[2].

---

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي وغيرهما .

(٢) رواه الترمذي .

ومما يقرب إلى الله تعالى العمل بالتجارة بصدق وأمانة لنفع عباد الله تعالى :

قال تعالى : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

إعلم يا أخي رعاك الله تعالى أن السعي في طريق كسب المال الحلال تعففاً عن الحاجة لما في أيدي الناس ، وأن لا يكون كَلّاً عليهم ، وقياماً بما فيه كفاية عياله ، ومن تجب نفقته عليه ــ ذلك أمر واجب شرعاً قال تعالى : ﴿ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ .

وقد أثنى الله تعالى على الذين يسعون في طلب الرزق الحلال فقال :

﴿ علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله ﴾ الآية .

وأن الله تعالى يكتب له الأجر والثواب :

روى ابن ماجه عن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما كسب الرجل كسباً أطيب من عمل يده ، وما أنفق الرجل على نفسه وأهله وولده وخادمه فهو صدقة » ــ أي : له أجر الصدقة المقبولة وينال محبة الله له .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله يحب المؤمن المحترف »(١).

(١) رواه الطبراني والبيهقي .

ويعتبر ذلك كله سعياً في سبيل الله تعالى :

عن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال : مرَّ على النبي ﷺ رجل فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جَلَده ـ أي : قوته ونشاطه ـ فقالوا : يا رسول الله ، لو كان هذا في سبيل الله ـ أي : ليته صرف ذلك في الجهاد في سبيل الله .

فقال ﷺ : « إن كان الرجل خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله ، وإن كان يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على نفسه تعففاً ـ أي : عما في أيدي الناس ـ فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرة ـ أي : مكاثرة بالمال ـ فهو في سبيل الشيطان »[1].

فالأعمال عند الله تعالى معتبرة بنياتها كما قال ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » فكل امرىءٍ له من عمله ما نواه في عمله .

فعليك بإصلاح النية وصدق العزيمة .

والتجارة والتوسع فيها إن كان المقصود من ذلك نفع البلاد والعباد وجلب ما ينفعهم والتوسع عليهم فذلك عمل مبرور يقرب التاجر إلى الله تعالى ولكن بشروط :

الأول : أن يكون سعيه في طلب المال الحلال :

---

(١) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح .

عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « طلب الحلال واجب على كل مسلم »[1].

وأما المال الحرام فيجب رده على أهله .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إذا أديت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك ، ومن جمع مالاً حراماً ثم تصدق به لم يكن له فيه أجر ، وكان إصره عليه » ـ أي : كان إثمه عليه .

الثاني : يجب على التاجر الصدق والأمانة :

روى الترمذي وحسنه عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء » .

والمعنى أن الله تعالى يحشره معهم في الآخرة .

وعن إسماعيل بن عُبيد بن رفاعة عن أبيه عن جده رضي الله عنهم أنه خرج مع رسول الله ﷺ فرأى الناس يتبايعون فقال : « يا معشر التُّجَّار ».

فاستجابوا لرسول الله ﷺ ورفعوا أعناقهم وأبصارهم .

فقال ﷺ : « إن التجار يبعثون يوم القيامة فجاراً إلا من اتقى الله تعالى وبرَّ وصدق »[2].

وعن عبد الرحمن بن شبل رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن التجار هم الفجار » .

---

(١) رواه الطبراني وإسناده حسن .

(٢) قال الترمذي : حسن صحيح .

قالوا : يا رسول الله ، أليس قد أحل الله البيع ؟

قال :« بلى — ولكنهم يحلفون فيأثمون ، ويحدثون فيكذبون »[1].

الثالث : يجب على التاجر أن ينصح ولا يغش :

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : مرَّ رسول الله ﷺ بطعام وقد حسنه صاحبه — أي : بائعه — فأدخل رسول الله ﷺ يده فيه فإذا هو طعام رديء .

فقال : « بع هذا — الجيد — على حده ، وهذا — الرديء — على حده ، فمن غشنا فليس منا »[2].

وعن أبي مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ غشنا فليس منا ، والمكر والخداع في النار »[3].

وروى البيهقي والحاكم بإسناد صحيح عن أبي سباع رضي الله عنه قال : اشتريت ناقة من دار واثلة بن الأسقع رضي الله عنه ، فلما خرجت بها أدركني يجُرُّ إزاره ، فقال : اشتريت ؟ قلت:نعم .

فقال واثلة : أبيّن لك ما فيها ؟

قلت : وما فيها ؟

فقال واثلة : إنها لسَمينة ظاهرة الصحة ، هل أردتَ بها سفراً أو أردت بها لحماً ؟ — أي : هل اشتريتها لتركبها في السفر أم لأجل ذبحها والانتفاع بلحمها ؟

---

(١) رواه أحمد بإسناد جيد والحاكم وصححه .

(٢) رواه الإمام أحمد والبزار والطبراني وأصله في (صحيح) مسلم .

(٣) رواه الطبراني بإسناد جيد ، وابن حبان في (صحيحه) .

قلت : أردت بها الحج ــ أي : السفر عليها للحج .

فقال واثلة : فارتجعها ــ أي : ردها على بائعها .

فقال صاحبها الذي باعها : ما أردت يا واثلة إلى هذا ؟ أصلحك الله تفسد عليَّ ؟!!.

فقال واثلة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يحل لأحد يبيع شيئاً إلا بيّن ما فيه ، ولا يحل لمن علم ذلك إلا بيَّنه » .

ورواه ابن ماجه مختصراً بلفظ قال واثلة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ باع عيباً لم يبينه لم يزل في مقت الله ولم تزل الملائكة تلعنه » .

وروى ابن حبان في كتاب (التوبيخ) عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « المؤمنون بعضهم لبعض نَصَحة وادُّون وإن بعدت منازلهم وأبدانهم ، والفَجَرة بعضهم لبعض غششة متخاونون وإن اقتربت منازلهم وأبدانهم » .

فالنصيحة والبعد عن الغش هو مقتضى الإيمان وصفة المؤمنين ، وكما أن الغش هو معصية وذنب كبير وأمره يوم القيامة خطير ، فإن النصيحة هي عبادة تقرب العبد إلى الله تعالى زلفى وينال بها درجة المحبة .

روى الإمام أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « قال الله عزَّ وجلَّ : أحب ما تعبد لي به عبدي النصح لي » .

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : (بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم) متفق عليه .

ورواه أبو داود والنسائي بلفظ : (بايعت رسول الله ﷺ على السمع والطاعة ، وأن أنصح لكل مسلم) .

فكان جرير إذا باع الشيء أو اشترى قال للذي باعه أو اشترى منه : — أما إنَّ ما أخذنا منك أحبُّ إلينا مما أعطيناك فاختَرْ . اهـ .

الرابع : يجب على التاجر — أي : البائع والمشتري — أن يكون سمحاً حسن التقاضي والقضاء .

لقد بشَّر النبي ﷺ البائع والمشتري إذا تعاملا بالسماح وبحسن القضاء — أي : أداء الحق الذي عليه — وبحسن التقاضي — أي : طلب الحق الذي له على غيره — وأنصف كلٌّ منهما باللين والتسهيل دون تشدّد ولا إغلاظ —بشر النبي ﷺ أولئك برحمة الله تعالى وبمغفرة الله تعالى لهم وبدخول الجنة ، وبتحريم الله تعالى إياهم على النار ، وبالسماح والصفح عنهم من الله تعالى :

روى الترمذي عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « غفر الله لرجل كان قبلكم : كان سهلاً إذا باع ، سهلاً إذا اشترى ، سهلاً إذا اقتضى » .

وروى النسائي عن عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أدخل الله عزَّ وجلَّ رجلاً — كان سهلاً مشترياً ، وبائعاً ، وقاضياً ، ومقتضياً ، الجنة » .

وروى البخاري وابن ماجه واللفظ له عن جابر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « رحم الله عبداً سمحاً إذا باع ، سمحاً إذا اشترى ، سمحاً إذا اقتضى » .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بمن يحرم على النار ، وتحرم النار عليه ؟ على قريب هيّنٍ سَهْلٍ »[1].

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إسمح يُسمح لك » .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أفضل المؤمنين رجل سمح البيع ، سمح الشراء ، سمح القضاء ، سمح الاقتضاء »[2] أي : سمح الطلب لحقه .

الخامس : أن يتَّجر بما يعود بالخير على العباد والبلاد ، فيتجر به لا بما يضرهم ، وأن لا يحتكر ما فيه نفع العباد :

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من احتكر طعاماً أربعين ليلة فقد برىء من الله تعالى ؛ وبرىء الله تعالى منه ، وأيما أهل عَرَصَةٍ – أي : أرض واسعة – أصبح فيهم امرؤ جائع – أي : وهم يعلمون ذلك – فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى »[3].

وروى ابن ماجه والحاكم عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « الجالب مرزوق ، والمحتكر ملعون » .

فجالب الخير للبلاد والعباد من طعام أو كساء أو نحو ذلك فإن الله تعالى سوف يرزقه لا محالة ، ويبارك له في تجارته .

والمحتكر لما فيه منافع البلاد والعباد يلعنه الله وملائكته .

---

(١) رواه الترمذي وقال : حسن غريب ، والطبراني بإسناد جيد ، وابن حبان في (صحيحه) .

(٢) رواه الطبراني في (الأوسط) ورواته ثقات .

(٣) قال الحافظ المنذري : رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والحاكم . اهـ .

وروى الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من احتكر حكرة يريد أن يغالي بها على المسلمين فهو خاطىء ، وقد برئت منه ذمة الله تعالى » ـ أي : لكونه نقض ميثاق الله تعالى وعهده .

قال العلامة المناوي : وهذا تشديد عظيم في الاحتكار ، وأخذ بظاهره الإمام مالك فحرم احتكار الطعام وغيره .

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من دخل في شيء من أسعار المسلمين ليُغليه عليهم كان حقاً على الله تبارك وتعالى أن يُقعده بعُظم من النار يوم القيامة » .

قال المنذري : رواه أحمد والطبراني في (الكبير والأوسط) إلا أنه قال : « كان حقاً على الله تبارك وتعالى أن يقذفه في معظم النار » .

فإياك يا أخي أن تحتكر ما فيه منافع البلاد والعباد ، أو تغليه عليهم ، فإن الله تعالى ربُّ العباد سوف يسألك عن موقفك مع عباده ، فإن العباد عباد الله تعالى ، والبلاد بلاد الله تعالى .

وعن معمر بن أبي معمر ، وقيل : ابن عبد الله بن نضلة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ احتكر طعاماً فهو خاطىء »[1] ـ أي خاطىء خطأً كبيراً ومرتكب إثماً عظيماً .

وعن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله تعالى بالجذام والإفلاس »[2].

---

(١) قال المنذري : رواه مسلم وأبو داود ، والترمذي وصححه وابن حبان ولفظهما : « لا يحتكر إلا خاطىء » .

(٢) رواه أحمد وابن ماجه ، ورجال ابن ماجه ثقات كما في (الجامع الصغير) وشرحه .

قال المناوي رحمه الله تعالى : وإنما خصهما ـ أي : الجذام والإفلاس ـ لأن المحتكر أراد إصلاح بدنه وكثرة ماله ـ أي : بالاحتكار ـ فأفسد الله تعالى بدنه بالجذام وماله بالإفلاس ، ومن أراد نفع العباد جعل الله تعالى في نفسه وماله خيراً وبركة . اهـ.

السادس : من شروط التوسُّع في التجارة والتكسب :

أن لا يكون ذلك عن باعث حبِّ المال أو المكاثرة والمفاخرة به ، فإن حبَّ المال لذاته والمكاثرة به والحرص عليه والاهتمام كل الاهتمام به ـ ذلك من أعظم مهدِّمات الإيمان في القلب ، ومن أعظم المبعدات عن الله تعالى ، ومن أعظم مفسدات الدين ـ قال الله تعالى في ذم الهائمين في محبة المال : ﴿ وتأكلون التراث أكلاً لَمّاً . وتحبون المال حباً جمّاً . كلَّا إذا دكَّتْ الأرض دكاً دكاً . وجاء ربك والملك صفاً صفاً . وجيء يومئذٍ بجهنم يومئذٍ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى يقول : يا ليتني قدَّمتُ لحياتي ﴾.

فيتمنى أن لو كان قدَّم أعمالاً صالحة وأفعالاً خيِّرة لحياة الآخرة الأبدية ، بدلاً عما قدَّمه وسعى إليه كل السعي ، واهتم به كل الاهتمام مِن جمع المال لحياة الدنيا الفانية .

ولذلك قال تعالى في توبيخ المحبين للمال الشاغلين حياتهم كلها في كثرة المال : ﴿ ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر . كلا سوف تعلمون ثم كلاَّ سوف تعلمون ﴾ .

وعن عبد الله بن الشخِّير رضي الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ .

فقال ﷺ : « يقول ابن آدم مالي مالي — أي يفخر ويكاثر بماله — وهل لك يا ابن آدم من مالك إلّا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليتَ ، أو تصدقتَ فأمضيتَ »[1] — فليس لك من مالك إلّا ما أكلت ، أو لبست ، أو تصدَّقتَ ، ثم تترك الباقي وتذهب إلى القبر وحدك .

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول العبد مالي مالي وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فاقتنى — وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس » .

فلا ينبغي للعاقل أن يحب ويحرص على مالٍ سوف يتركه ويصير إلى غيره وقد أتعب حياته في جمعه .

وروى الشيخان عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يتبع الميت ثلاث : أهله وماله وعمله ، فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يرجع أهله وماله ويبقى عمله » .

فاحرص أيُّها العاقل على صاحبٍ صديقٍ صادق يبقى معك أبداً وهو عملك الصالح ، ولا تحرص كل الحرص على المال ، فإن الحرص على المال يُفسد عليك دينك ، ويُضعف إيمانك ، وربَّما قضى على إيمانك ، وانتبهْ إلى الحديث الآتي وخذ حذرك وحاسب نفسك :

روى الترمذي وابن حبان وغيرهما عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسدَ لها

(١) قال المنذري : رواه مسلم والترمذي والنسائي .

من حرص المرء على المال والشرف لدينه » .

ولو كان هناك مَثل أبلغ من هذا المثل لأتى به النبي ﷺ .

فمهما أفسد الذئبان الجائعان في الغنم فإن حُبَّ المال والفخر الدنيوي أعظم إفساداً وأشَدُّ فتكاً وتحطيماً لدين المسلم .

ورواه البزار بإسناد حسن عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « ما ذئبان ضاريان في حظيرة ــ أي : حظيرة غنم ــ يأكلان ويفسدان بأضرَّ فيها من حب الشرف ــ أي : الفخر بالدنيا ــ وحب المال في دين المرء المسلم » .

كما أنه لا يجوز للمسلم أن يكون أكبر همه الدنيا والمال :

فعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أصبح وهَمُّه ــ أي : أعظم همه الدنيا ــ فليس من الله في شيء ، ومَنْ لم يهتمَّ بالمسلمين فليس منهم »(١).

وروى الطبراني بإسناد حسن عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أُشرِبَ ــ أي : في قلبه ــ حبّ الدنيا التاط ــ أي : التصق ــ منها بثلاث : شقاء ــ أي : تعب ــ لا ينفد عناه ، وحرص لا يبلغ غِناه ، وأمل لا يبلغ مُنتهاه ، فالدنيا طالبة ومطلوبة فمن طلب الدنيا طلبته الآخرة حتى يدركه الموت فيأخذه ، ومن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفي منها رزقه » .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أيها الناس اتقوا الله وأجملوا في الطلب فإن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها ــ

---

(١) رواه الطبراني .

وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ــ أي : في طلب الرزق ــ خذوا ما حلَّ ، ودَعُوا ــ أي : اتركوا ــ ما حرم »[1].

وروى الحاكم وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ليس من عمل يقرّب من الجنة إلا قد أمرتكم به ، ولا عمل يقرب من النار إلا وقد نهيتكم عنه ، فلا يستبطئن أحد منكم رزقه ، فإن جبريل عليه السلام ألقى في رُوعي ــ أي : في قلبي ــ أن أحداً منكم لن يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه ، فاتقوا الله أيها الناس وأجملوا في الطلب ــ أي : طلب الرزق ــ فإن استبطأ أحد منكم رزقه فلا يطلبه بمعصية الله ، فإن الله لا ينالُ فضله بمعصيته » .

وفي رواية لغير الحاكم : « فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته » .

أي : لا ينال ما عنده من الرزق النافع في الدنيا والآخرة إلا بطاعته ، وأما ما جاء عن طريق المعصية والحرام فهو وبال عليه في الدنيا والآخرة .

ولا ينبغي للعاقل أن يكون عبداً ذليلاً للدرهم والدينار ، يُذِلُّ نفسه ليعزَّ درهمه حِرصاً وحباً فيه ، فلقد تعس عبد الدرهم وعبد الدينار وعبد الخميصة ــ أي : عبد الثياب الفاخرة بحيث يكون أعظم رغبته وهمته التظاهر بالملابس الجميلة ، والأزياء الحسنة ، كالطاووس في نظر الناس ، ولكن القلب خراب ، وإنما هو عبد الثياب ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله تعالى لا ينظر إلى صُورِكم وأجسادكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » رواه الشيخان .

وروى البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ

(١) رواه ابن ماجه وغيره .

قال : « تَعِسَ عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطي رضي وإن لم يُعط سخط ، تعس وانتكس وإذا شِيكَ فلا انتقش ، طوبى لعبدٍ آخذ بعنان فرسه في سبيل الله تعالى أشعث رأسه مغبَّرة قدماه ، إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة كان في الساقة ، وإن استأذن لم يؤذن له ، وإن شفع لم يشفَّع » .

وهذا العبد المؤمن المخلص لله تعالى الذي يبتغي وجه الله تعالى لا يبالي بالدنيا ، ولا يطمح إلى مراتبها وجاهها وزخارفها وزينتها ، وإنما يبتغي القرب من الله تعالى والمنزلة العالية عند الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلوّاً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ .

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « كم من أشعث أغبرذي طِمرين لا يُؤبه له لو أقسم على الله لأبرَّه ومنهم البراء بن مالك »[1].

فلا ينبغي للمسلم أن يكون أكبر همّه ، ومبلغ علمه الدنيا وما لها ، فإن ذلك شقاء في الدنيا والآخرة ، ولا ينبغي أن يكون أكبر همّه المظاهر والمفاخِر الشكلية .

روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من كانت الآخرة همَّه جعل الله غناه في قلبه وجمع عليه شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة .

ومن كانت الدنيا همّه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرّق عليه شمله ،

(١) رواه الترمذي وغيره .

ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له » .

وقد جاء في الحديث الوارد في دعاء المجلس كما رواه الترمذي وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : « قلَّما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الكلمات لأصحابه :

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلِّغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهوِّن به علينا مصائب الدنيا ، ومتِّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلِّط علينا من لا يرحمنا » آمين .

ولْيعلم العاقل أن الدنيا والآخرة ضرتان ، فحبُّ إحداهما يضر بالأخرى :

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من أحب دنياه أضرَّ بآخرته ، ومن أحبَّ آخرته أضرَّ بدنياه ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى »[1] .

فالدنيا فانية ، والآخرة باقية ، قال تعالى : ﴿ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾ .

وقد ضرب رسول الله ﷺ مثلاً لهذه القِلَّة فقال : « ماالدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليمِّ — أي : البحر — فلينظر بمَ يرجع » رواه مسلم .

(١) قال المنذري : رواه أحمد ورواته ثقات ، والبزار وابن حبان في (صحيحه) ، والحاكم والبيهقي . اهـ .

ولا تعارض بين هذه الأحاديث وبين قوله تعالى : ﴿ ومنهم من يقول : ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب ﴾ .

فإن الآية الكريمة جاءت ترشد العقلاء إلى أن يسألوا الله تعالى حسنة الدنيا لا أن يسألوه الدنيا .

والمعنى : ربنا آتنا في الدنيا حسنة ـ أي : ما يحسن به حالنا ويصلح به بالنا من التوفيق لمحابِّك والأعمال الصالحة والأقوال الطيبة ، والزوجة الصالحة والدار الواسعة ، والأولاد البررة ، والجيرة الخيِّرة ، وسعة المال لإنفاقه في صلة الرحم وأعمال البرِّ ، وفعل الخير ، ومعاونة المحتاجين ، والفقراء والمساكين ، وبناء المساجد والمستشفيات ، وما يعود بالنفع والخير على العباد والبلاد .

فهذا كله داخل في دائرة قوله تعالى : ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة ﴾ فإن الدنيا لها وجهان : وجه سيِّئ مسيء ، ووجه حسن محسن ، ووجه فلاح وخير ، ووجه شقاء وشرّ ـ فالمطلوب في الآية الكريمة هو حسنها وخيرها كما جاء عنه صلى الله عليه وآله وسلم في دعاء الصباح والمساء قوله ﷺ : « أسألكَ اللهمَّ خير الدنيا والآخرة » .

فلم يقل : أسألك الدنيا ، بل قال : « أسألك خير الدنيا » فافهم كلام إمام الحكماء ، وسيد الأنبياء ، جزاه الله تعالى عنا خير الجزاء وصلى الله عليه وسلم في كل لحة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم .

وليعلم المسلم أن الطمع والجشع في المال إذا استحكم بصاحبه فإنه يموت ولا يشبعه شيء .

روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى لهما ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » .

فيجب على المسلم أن يتوب من جشعه وحرصه على المال ، قبل أن يملأ جوفه التراب .

وكيف يسوغ للمسلم العاقل أن يتهافت على الدنيا ، ويمتلأ قلبه من محبتها وقد قال ﷺ : « حبُّ الدنيا رأس كل خطيئة ، وحبك الشيء يُعمي ويُصمُّ »؟!!

فمن أحب الدنيا حُبّاً جماً فقد ارتكب رأس كل خطيئة ، وأعمتْه وأصمته عن كل ما ينفعه في الأولى والآخرة .

وكيف يسوغ للمسلم العاقل أن يملأ قلبه من محبة الدنيا الفانية الحقيرة المهينة عند الله تعالى ؟!!

ففي الحديث عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مرَّ بالسوق والناس عن كَنَفَتيْه — أي : عن جانبيه — فمرَّ بجدْيٍ أسكَّ ميت .

فقال ﷺ : « أيكم يحب هذا بدرهم ؟».

فقالوا : ما نحب أنه لنا بشيء — أي : ما نشتريه بأقل شيء — وما نصنع به ؟— أي : لأنه ميت —.

فقال ﷺ : « أتحبون أنه لكم ؟» .

قالوا : والله لو كان حيّاً لكان عيباً فيه لأنه أسكّ ، فكيف وهو ميت ؟

فقال : « والله للدنيا أهون على الله عز وجلَّ من هذا عليكم » رواه

مسلم .

قال في النهاية : جَدْي أسكّ : مصطلم الأذنين مقطوعهما . اهـ.

وروى الترمذي عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لو كانت الدنيا تعدل عند الله تعالى جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » .

فالدنيا وما فيها من معادن وذهب وفضة وزخارف إذ شغلَتْ صاحبها عن الآخرة وعن دين الله تعالى ، وغرَّته واطمأنَّ بها فهي الدنيا الدنية الحقيرة ، بذلها الله تعالى للكفار لأنها غاية مطلوبهم ومنتهى محبوبهم ومرغوبهم ، قال تعالى : ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورَضُوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ .

وأمَّا إذا رزق الله تعالى عبداً مالاً حلالاً ، وجاهاً صالحاً وعزّاً دينياً ومكَّن الله تعالى له في الأرض ، فاستعمل ذلك فيما ينفع العباد والبلاد ، وفيما يقرّبه إلى الله تعالى ويتخذ ذلك زاداً لآخرته ، فذلك هو التاجر الماهر الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارةً لن تبور . ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ﴾ .

فالله تعالى يغفر لهم تقصيرهم ، ويشكرهم على محاسن أعمالهم ، فيضاعف أجورهم ، وتكون دنياهُم خادمة لدينهم .

وتكون دنياه مشتقة من الدنو وهو القرب فيتقرب بها إلى الله تعالى ، ويكون من الذين مدحهم الله تعالى بقوله : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة

ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ .

فالآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي جاءت في ذمِّ الدنيا هي تعني الدنيا الدنية الشاغلة للإنسان عن دينه وآخرته ، والآخذة بقلبه ، والمسيطرة على لُبِّه ، والشاغلة لأيام عمره ، فهو الإنسان الخاسر ، الذي خسر رأس مال عمره ، فصرفه في الأمور الفانية ، ولم يستعمله في الأمور الباقية ، قال تعالى : ﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴾ .

وهذا الإنسان هو المعني في السورة الكريمة قال تعالى : ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر ﴾ ـــ أي : خاسر عمره المطوي من العصر ، ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ .

فكل إنسان هو في خسر لعمره ، إلا الذين تحققوا بهذه الصفات الأربعة :

١ ـــ الإيمان الصادق .

٢ ـــ والعمل الصالح .

٣ ـــ والتواصي بالحق ويدخل تحته النصيحة لعباد الله تعالى ، وحب الخير لهم ، وحسن المعاملة معهم ، وصدق التعامل في البيع والشراء ، والمشاركة ، والمؤاجرة ، والمجاورة ، ووفاء العهود ، والعقود وغير ذلك .

٤ ـــ والتواصي بالصبر : أي :

آ : إمساك النفس على فعل المأمورات الشرعية فيما بينه وبين الله تعالى ،

وفيما بينه وبين العباد .

ب : وإمساك النفس عن المنهيات الشرعية لأنها ضرر على فاعلها وعلى العباد والبلاد .

فمن جمع ذلك فهو الرابح لعمره . اللهم اجعلنا منهم — آمين .

والآن نعود إن شاء الله تعالى إلى تمام شرح حديث الأولياء فنقول :

رابعاً — إن حديث الأولياء الذي نحن فيه وهو الحديث القدسي المروي عن الله تبارك وتعالى ، يبيّن لنا فضل مقام قرب النوافل ، وما يعطي الله تعالى صاحب هذا المقام إذا تحقق فيه من الخصوصيات والمكرمات والكرامات الإلٓهية ، فإن للمقامات أحكاماً ، وللأحوال آثاراً ، وللبوارق واللوامع أنواراً ، والكلام على هذه الأمور الثلاثة يأتي إن شاء الله تعالى في موضعه .

فقد جاء في الحديث القدسي ما يبين فضل مقام قرب النوافل فقال : « وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ... » .

فهذا أول منقبة ومكرمة ، وهي أنه سبحانه يرفعه إلى مقام المحبوبية من لدنه ، فيحبه الله تعالى .

ومن كمل له مقام المحبة من الله تعالى حبَّب الله تعالى فيه عباده ، وأعلن محبته له في الملأ الأعلى ، حتى يصل ذلك إلى الملأ الأدنى فيحبه أهل الملأ الأدنى .

روى الشيخان والإمام أحمد واللفظ له : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى إذا أحبَّ عبداً دعا جبريل فقال : يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبَّه، قال: فيحبه جبريل .

قال ﷺ : ثم ينادي — جبريل — في أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبُّوه ، قال : فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض ».

وفي رواية للترمذي وغيره : « ثم ينزل له المحبة في أهل الأرض » .

« وإذا أبغض الله تعالى عبداً دعا جبريل فقال : يا جبريل إني أبغض فلاناً فأبغضه ، قال : فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه ، قال : فيبغضه أهل السماء ثم يوضع له البغضاء في الأرض » .

كما أن من ارتقى إلى مقام المحبوبية فإن الله تعالى يتولى حمايته من الدنيا وغرورها وفتنتها وزخارفها :

روى الترمذي عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أحبَّ الله عبداً حماه من الدنيا كما يحمي أحدكم سقيمه الماء » .

وذلك لأن حبَّ الدنيا رأس كل خطيئة ، وحبّك الشيء يعميك ويصمُّك عن غيره ، كما جاء عنه ﷺ أنه قال : « حبُّ الدنيا رأس كل خطيئة ، وحبُّك الشيء يُعمي ويُصمّ » الحديث تقدم .

وروى الطبراني عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « من أصبح وهمُّه — أي : أكبر همه — الدنيا فليس من الله في شيء » .

كما أن من انتهى إلى رتبة المحبوبية ، المترتبة على مقام قرب النوافل فإنه ينال ويظفر بالمكرمات الواردة في الحديث القدسي الذي نحن فيه حيث يقول سبحانه : « فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي

يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها » كما هو رواية البخاري .

وعند غيره : « وكنت فؤاده الذي يعقل به ، ولسانه الذي ينطق به وكنت له يداً ومؤيداً » الحديث كما تقدم .

وهذه الكلمات القدسية والمكرمات الإلٓهية لأولياء الله تعالى لها معنيان لا يتنافيان ، بل هما متلازمان :

المعنى الأول ــ كنتُ متولّي سمعه وبصره إلى تمام الحديث .

المعنى الثاني ــ كنتُ قوة سمعه وبصره إلى تمام الحديث .

إذ لا بدَّ من تقدير المقتضى المحذوف حتى يتَّضح المعنى ، وهذا أمر معلوم عند علماء الأصول ، وهو وارد في كثير من الأحاديث ، ومن ذلك حديث « إنما الأعمال بالنيّات » فإن المعنى الظاهر لهذه الجملة : إنما وجود الأعمال بالنيات وهذا المعنى غير وارد قطعاً ، فإن الأعمال قد توجد بلا نية ، وإن سيدنا محمداً ﷺ لا يتكلم إلا بالحكمة ليس في كلامه عبث أو خلل أو مناقضة للواقع ، ولذلك قال العلماء في تقدير ما هو المقتضى : إنما صحة الأعمال شرعاً بالنيات ، أو إنما ثواب الأعمال بالنيات .

فالحديث القدسي الذي نحن فيه : « فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به » إلى تمام الحديث لا بدَّ من تقدير ما يتضح به الكلام .

فالمعنى الأول : كنتُ متولِّي سمعه وبصره وجوارحه ــ والمعنى : أن من تقرَّب إلى الله تعالى بالنوافل فوق الفرائض حتى تحقق بمقام قرب النوافل ، فإن الله يحبّه حُبّاً خاصاً ، فإذا أحبَّه سبحانه تولّى سمعه

فلا يُسمعه إلا ما يحبّه ويرضاه سبحانه ، ويحميه عن غير ذلك ، ولا يبصره إلا فيما فيه رضاه سبحانه ، ولا يطلق جوارحه من يدٍ ورجلٍ إلا إلى ما شرعه الله تعالى وارتضاه ، ويحميه ويحجبه عن ما سوى ذلك ، ولا ينطق لسانه إلا بما يرتضيه سبحانه ، ولا يوجِّه قلبه وعقله إلا فيما يرتضيه سبحانه :

قال تعالى : ﴿ إنَّ وَلِيِّي الله الذي نزَّل الكتاب وهو يتولَّى الصالحين ﴾ .

فالتولية للصالح تكون على نسبة صلاحه .

ولما كان سيدنا محمد ﷺ هو في أعلى ذروة الصلاح التي لا رتبة فوقها ، كان له تولية خاصة به من الله تعالى لا يشاركه فيها غيره ، ولذلك أمره سبحانه أن يُعْلن ذلك فيقول : ﴿ إنَّ وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾ .

وكما نزَّل الكتاب عليه خاصة ، فإنه تولاه تولية خاصة ﷺ أبداً أبداً وعلينا معهم أجمعين .

وبتلك التولية للمحبين المحبوبين المقربين قرب النوافل ـــ تكون حركاتهم وأفعالهم وأقوالهم وسكناتهم ويقظتهم ومنامهم كلها لله تعالى ، ومن الله ، وفيما يحبه الله تعالى ويرضاه .

كما ورد عن الإمام الجنيد رضي الله عنه لما سئل عن المقربين المحبين أهل الكمال :

قال الإمام أبو بكر الكتاني رضي الله عنه : جرتْ مسألة المحبة بمكة

أعزَّها الله تعالى أيام الموسم ـــ موسم الحج ـــ فتذاكروا في المحبة فتكلّم كلٌّ من الشيوخ وكان الإمام الجنيد أصغرهم سناً ، فلما انتهى الدور إليه قالوا له : هات ما عندك يا عراقي .

فأطرق الجنيد رأسه ودمعت عيناه ثم قال : المحب هو عبد ذاهب عن نفسه ، متصلٌ بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرق قلبَه أنوارُ هيبته ، وانكشف له الجبار من أستار غيبه ، وصفا شربه من كأس وده ، فإن تكلم فبالله ، وإن نطق فعن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو لله وبالله ومع الله .

فقالوا له : ما على هذا مزيد جزاكَ الله خيراً يا تاج العارفين . اهـ.

فهذا هو المحب الكامل المحبة ، لقد فني في محبوبه كما فنيتْ باء الحب الأولى في الثانية ، فدخلت وأدغمت فيها ، فلم يبـق لها أثر ولا مظهر ، وإنما الأثر والمظهر ، والنطق والكتابة للباء الثانية المدغمة فيها .

وهكذا المحب فنيت أفعاله وأعماله وأقواله في الله تعالى ، كل ذلك بالله ، ولله ، ماله غرض سواه ، وفنيت صفاته السمعية ، والبصريـة ، والعقلية ، والعلمية ، وحواسه ، ومداركه في الله تعالى ، فكل ما يرد على سمعه أو بصره أو عقله أو قلبه مما لا يرتضيـه الله تعـالى ولا يحبـه فإنـه لا يسمعه ولا يحبه ولا يرضاه ، فإن حبك الشيء يعميك ويصمك عن غيره .

كما قال عبد الله بن ثُوَب للأسود المتنبيء : أنا لا أسمع قولك ـــ حين قال له : أتشهد أني رسول الله ـــ كما في القصة الثابتة :

وقد أوردها الإمام النووي رحمه الله تعالى بإسناد الإمام أحمد في كتاب

(الزهد)عن شرحبيل بن مسلم : أن الأسود بن قيس العنسي الكذاب لما ادعى النبوة باليمن بعث إلى أبي مسلم الخولاني ، فلما جاءه قال : أتشهد أني رسول الله ؟

قال : ما أسمع .

قال : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟

فقال : نعم .

فردَّد ذلك عليه ـ فأمر بنار عظيمة فأججت فألقى فيها أبا مسلم فلم تضرَّه .

فقيل للأسود انفِه ـ أي : أخرجه من أرضك ـ وإلا أفسد عليك من تبعك ، فأمره بالرحيل عن اليمن .

فأتى أبو مسلم المدينة وقد توفي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر رضي الله عنه ، فأناخ أبو مسلم راحلته بباب المسجد فقام يصلي إلى سارية ـ عمود من أعمدة المسجد - فبصر به عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقام إليه فقال له : من الرجل ؟ .

فقال : من أهل اليمن .

قال عمر : فلعلك الذي أحرقه الكذاب بالنار ؟

قال : ذلك عبد الله بن ثوب .

فقال عمر : نشدتك الله أنت هو ؟

قال : اللهم نعم .

فاعتنقه ثم بكى ثم ذهب به حتى أجلسه فيما بينه وبين أبي بكر فقال : الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني من أمة محمد ﷺ مَنْ فُعل به كما فعل

بإبراهيم عليه الصلاة والسلام خليل الرحمن . اهـ.

وقد روى هذه القصة الإمام أحمد رضي الله عنه بإسناده المتصل عن الثقات ، كما ذكرها غيره من المحدثين .

وأما المعنى الثاني لحديث : « كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به » الحديث فتقديره : كنت قوة سمعه ، وقوة بصره ، وقوة يده ، وهكذا قوة لسانه ، وقوة قلبه .

والمراد بذلك : أن الله تعالى يعطيه قوة في سمعه وبصره بحيث يسمع ما لا يسمعه غيره ، ويبصر ما لا يبصره غيره ، ويعقل ما لا يعقله غيره ، ويتكلم بما لا يستطيعه غيره .

ومن هذا القرب يفتح الله تعالى لأوليائه باب الكرامات التي هي خوارق للعادات ، وهي داخلة في ظل المعجزات التي أعطاها الله تعالى لرسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم .

وإنما نال الأولياء من الكرامات ما نالوه بسبب اتباعهم لرسول الله ﷺ ، فأعطوا ذلك تكريماً لهم ، وتأييداً ، فكل كرامة لولي هي معجزة لنبيه ، وقد نالها الولي بسبب اتباعه الكامل لنبيه ﷺ ، أجراها الله تعالى على يد الولي المتبع تكريماً له ، فهي كرامة من الله تعالى .

والكرامات أنواع : سمعية ، أو بصرية ، أو عملية ، أو قولية ، أو علمية ، أو خبرية .

فهو سبحانه يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ويؤيد هذا المعنى الثاني للحديث القدسي الذي نحن فيه رواية :

« كنت له يداً ومؤيداً » .

ورواية : « فبي يسمع وبي يبصر » — أي : فتكون قوى سمعه وبصره ويده ولسانه ومداركه بالله تعالى على وجه خاص .

ولا شك في كرامات أولياء الله تعالى لأنها ثابتة بالكتاب والسنة وواردة عن الصحابة فمن بعدهم إلى يوم الدين .

أما ثبوتها في كتاب الله تعالى فقد قال تعالى في وزير نبي الله تعالى سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام والمعروف باسم :— آصف بن برخيا — لما طلب سليمان إحضار عرش بلقيس من اليمن إلى بيت المقدس : ﴿ وقال الذي عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتدَّ إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال : هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴾ .

فانظر يا أخي رعاك الله تعالى لقد أحضر هذا الوليُّ عرش بلقيس من اليمن إلى الشام قبل أن يرتد طرف سليمان إليه فما أسرع ذلك ! وأي قدرة تستطيع ذلك ؟ نعم إن ذلك كله بقدرة من الله تعالى ، أكرم بها ولي الله تعالى وزير سليمان آصف بن برجيا .

وقد يقال : ولِمَ طلب سليمان من وزرائه من يحضر له العرش مع أنه نبي الله تعالى وله معجزاته ؟

فالجواب : إن سليمان نبي مَلِك ، ومن شأن المِلك أن يراعي مرتبة الملك فلا يباشر بعض الأمور بنفسه بل يأمر غيره .

على أن في أمره لأحد وزرائه أو جنوده بالإتيان بعرش بلقيس — إن

في ذلك إعلاماً للملكة بلقيس ووزرائها وجنودها بأن عرشها الذي هو مستقر ملكها ، المحاط بالجنود والحرس الشداد ــ هذا العرش يحضره إلى الشام أحد وزراء الملك نبي الله سليمان وأحد جنوده ، ولا يحتاج الأمر إلى كلفة ولا مشقة ، ولا إلى حشد قوات ، وتجهيز جحافل من الجيوش ، بل الأمر أيسر من ذلك .

ومن أدلة إثبات الكرامات الواردة في القرآن الكريم قصة أصحاب الكهف :

قال تعالى : ﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ، إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشداً . فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً ﴾ .

ثم قال سبحانه : ﴿ ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ﴾ .

فألقي عليهم النوم طيلة هذه المدة .

قال تعالى : ﴿ وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ﴾ الآية .

فحفظ الله أجسادهم من عفونات الأرض وغيرها ، وأمدهم بقوى من عنده ، ولا شك أن هذا أمر خارق للعادة المعروفة المألوفة بين عامة البشر ، ولكن لله تعالى عادات خاصة مع خاصة البشر .

ومن أدلة القرآن الكريم على إثبات الكرامات قصة السيدة مريم عليها السلام :

قال الله تعالى : ﴿ وَكَفَّلَها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال : يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

فكان زكريا عليه السلام كفيلاً على مريم وضعها في غرفة في المسجد مرتفعة المحراب لا يرقى إليها إلا بالسلم ، ولا يدخل عليها غيره ، وكان زكريا عليه السلام يأتيها بالطعام والشراب ، فيجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء ﴿ قال : يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله ﴾ الآية .

ومن الأحاديث النبوية الدالة على إثبات الكرامات قصة أصحاب الصخرة :

روى الشيخان وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

« بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطر فأووا إلى غار فانطبق عليهم — وفي رواية فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم — فقال بعضهم لبعض : يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه ».

وفي رواية : « انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله » .

وفي رواية : « إنه لا ينجيكم إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم » .

وفي رواية : « فقال بعضهم لبعض : عفا الأثر ووقع الحجر ولا يعلم بمكانكم إلا الله ، ادعوا الله بأوثق أعمالكم » .

« فقال واحد منهم : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أجير عمل لي على فرق من أرزّ ـ على مكيال يسع ثلاثة آصع ـ فذهب ـ الأجير ـ وتركه عندي ـ أي : وترك أجرته عندي ـ وإني عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته ، فصار من أمره أني اشتريت منه ـ أي : من ناتج زرعه ـ بقراً ، وأنه أتاني ـ أي : بعد حين ـ يطلب أجرته ، فقلت له : اعمد إلى تلك البقر ـ الكثيرة ـ فسقها ـ أي : فهي أجرتك نميتها لك .

فقال لي : إنما لي عندك فرق من أرز .

فقلت له : اعمد إلى تلك البقر فإنها من ذلك الفَرَق .

فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرِّج عنا .

وفي رواية : « فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرّج عنا » .

فانساحت عنهم .

وفي رواية : « فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج » .

وفي رواية : « فزال ثلث الحجر » .

فقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران فكنت ـ وفي رواية : « أبوان ضعيفان فقيران ليس لهما خادم ولا راع ولا ولي غيري » ـ فكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم وفي رواية : « فكنت أرعى لهما في النهار ، وآوي إليهما بالليل » ـ فأبطأت عنهما ليلة ـ أي : بسبب بُعد المرعى ـ فجئت وقد رقدا وأهلي وعيالي يتضاغون من الجوع ، وكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواي ، فكرهت أن أوقظهما ،

وكرهت أن أدعهما نائمين فيستكنّا لشربهما ـ أي : فيقعدان ضعيفين مسكينين لعدم شربهما ـ فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر .

فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرِّج عنا .

فانساحت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء ـ أي : ولكن لا يستطيعون الخروج .

فقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحبِّ الناس إليَّ ، وإني راودتها عن نفسها فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار ـ أي : ولم يكن ذلك عندي ـ فطلبتها حتى قدرت فأتيتها بها ـ أي : بمائة دينار ـ فدفعتها إليها فأمكنتني من نفسها ، فلما قعدت بين رجليها قالت لي : اتق الله ولا تفضَّ الخاتم إلا بحقه ـ فقمت وتركت المائة دينار .

وفي رواية : « فراودتها عن نفسها فامتنعت حتى ألمّت بها سنة ـ أي : أصابها قحط شديد ـ فجاءتني فأعطيتها ، فلما كشفتها وجلست منها مجلس الرجل من المرأة ، قالت لي : إنه لا يحل لك أن تفضَّ خاتمي إلا بحقه »ـ أي : لا أحل لك أن تقربني إلا بتزويج صحيح .

وفي رواية كما في الطبراني وغيره فقالت : « أذكِّركَ الله أن تركب مني ما حرَّم الله عليك » .

قال فقلت : أنا أحقُّ أن أخاف ربي .

فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرّج عنا ـ ففرج الله تعالى عنهم فخرجوا » .

قال الحافظ في (الفتح) حول قول كل واحد منهم : « اللهم إن كنت

تعلم » : فيه إشكال لأن المؤمن يعلم قطعاً أن الله تعالى يعلم .

وأجيب بأنه تردّد في عمله ذلك هل له اعتبار عند الله تعالى أم لا ، وكأنه قال : إن كان عملي ذلك مقبولاً فأجب دعائي .

وبهذا التقرير يظهر أن قوله « اللهم » على بابها في النداء .

وقد ترد بمعنى تحقق الجواب كمن يسأل آخر عن شيء كأن يقول : رأيتَ زيداً ؟ فيقول : اللهم نعم .

وقد ترد اللهم لندرة المستثنى كمن يقول شيئاً ثم يستثني منه فيقول : اللهم إلا إن كان كذا . اهـ.

وأما الكرامات الواردة عن الصحابة والتابعين وتابعيهم فهي كثيرة شهيرة أذكر جملةً منها تثبيتاً لقلوب الضعفاء ، وتطميناً لقلوب الأقوياء .

فمن ذلك سماع وإسماع أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه حين نادى يوماً أهل القبور :

روى البيهقي بسنده عن سعيد بن المسيب قال : دخلنا مقابر المدينة يوماً مع علي رضي الله عنه فنادى : يا أهل القبور : السلام عليكم ورحمة الله تخبروننا بأخباركم أم نخبركم ؟

قال سعيد فسمعنا صوتاً : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا أمير المؤمنين أخبرنا عمّا كان بعدنا ؟

فقال علي رضي الله عنه : أما أزواجكم فقد تزوجن ، وأما أموالكم فقد اقتسمت ، وأما الأولاد ـ أي : الصغار ـ فقد حشروا في زمرة اليتامى ـ فهذه أخباركم عندنا ، فما أخبار ما عندكم ؟

فأجابه ميت من الأموات : قد تخرقت الأكفان ، وانتثرت الشعور ، وتقطعت الجلود ، وسالت الأحداق على الخدود ، وما قدمناه وجدناه وما خلَّفناه خسرناه ، ونحن مرتهنون بما عملنا . اهـ.

« وكنت سمعه الذي يسمع به »

ومن ذلك سماع سلمان وأبي الدرداء تسبيح القصعة بين أيديهما :

روى البيهقي وأبو نعيم عن قيس قال : بينما أبو الدرداء وسلمان رضي الله عنهما يأكلان من صحفة إذ سبحت الصحفة وما فيها من الطعام .

ويروى أن سلمان قال لأبي الدرداء : انظر يا أبا الدرداء — أي : إلى هذا الأمر العجيب — فقال أبو الدرداء : لو سكتَّ لرأيتَ من آيات الله الكبرى عجباً .

ومن ذلك سماع يَعلى بن مرة الصحابي رضي الله عنه عذاب المقبور :

روى البيهقي عن يعلى بن مرة رضي الله عنه قال : مررنا مع رسول الله ﷺ على مقابر فسمعت ضغطة في قبر ، فقلت يا رسول الله : سمعت ضغطة في قبر .

فقال ﷺ : « وسمعتَ يا يعلى »؟— أي : كما سمعت —.

قلت : نعم يا رسول الله .

قال ﷺ : « فإنه يعذب في يسير من الأمر »— أي : في نظر كثير من الناس أمر صغير .

قلت : وما هو ؟ قال : « في النميمة والبول » .

أي : كان يمشي بين الناس بالنميمة ، ولا يستنزه من بوله — كما جاء

في غير هذا الحديث .

ومن ذلك سماع سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى الأذان من جانب القبر النبوي الشريف عند دخول وقت كل صلاة :

روى الدارمي بسنده أن الأذان والإقامة تُركا أيام الحرة وأن سعيد بن المسيب لم يبرح مقيماً في المسجد النبوي ، فكان لا يعرف وقت الصلاة إلا بهمهمة ـ أي : صوت الأذان ـ يسمعها من قبره الشريف ﷺ[1].

ومن كرامات البصر ـ رؤية ابن عباس جبريل عليه السلام بدون أن يتمثل بصورة :

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت مع أبي عند رسول الله ﷺ وعنده رجل يناجيه ، فكان صلى الله عليه وسلم كالمعرض عن أبي ـ أي : لانشغاله مع الرجل ـ قال ابن عباس : فخرجنا من عنده ﷺ .

فقال أبي : أي بني ألم تر إلى ابن عمك كالمعرض عني ؟.

فقلت يا أبت : إنه كان عنده رجل يناجيه .

قال ابن عباس : فرجعنا إلى النبي ﷺ فقال أبي : يا رسول الله قلت لعبد الله كذا وكذا ، فأخبرني أنه كان عندك رجل يناجيك فهل كان عندك أحد ؟ أي : فإني لم أر أحداً .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « وهل رأيته يا عبد الله ؟».

قلت : نعم .

---

(١) وروى ذلك أيضاً أبو نعيم في (الدلائل)، وابن سعد في (الطبقات) والزبير بن بكار في (أخبار المدينة) .

قال : « فإن ذلك جبريل عليه السلام هو الذي شغلني عنك »(١).

ومن ذلك أيضاً رؤية عمران بن حصين رضي الله عنهما الملائكة وتسليمهم عليه :

روى مسلم وغيره عن مطرف بن عبد الله بن الشخير قال : قال لي عمران بن حصين : (ألا أحدثك حديثاً لعل الله تعالى ينفعك به — إن رسول الله ﷺ جمع بين حج وعمرة ثم لم ينه عنه ، و لم ينزل قرآنا يحرمه ، وإنه قد كان يسلم عليّ — يعني : الملائكة — فلما اكتويت انقطع السلام فلما تركت عاد إليَّ — يعني : تسليم الملائكة عليهم السلام) .

ومن ذلك رؤية ابن حضير الملائكة تنزل بالسكينة لقراءة القرآن الكريم :

عن أسيد بن حضير رضي الله عنه أنه قال : (بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده ، إذ جالت الفرس — أي : فزعت واضطربت — فسكت — أي : عن القراءة — فسكنت ، فقرأ فجالت ، فسكت فسكنت الفرس ، ثم قرأ فجالت ، وكان ابنه يحيى قريباً من الفرس ، فانصرف فأخّره ثم رفع أسيد رأسه إلى السماء فإذا مثل الظلة — أي : السحابة — فيها أمثال المصابيح .

فلما أصبح حدّث النبي ﷺ .

فقال له ﷺ : « وتدري ماذاك »؟

قال : لا .

(١) قال في (مجمع الزوائد) : رواه أحمد والطبراني بأسانيد ورجالها رجال الصحيح . اهـ .

فقال ﷺ : « تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو قرأت ــ أي : بقيت تقرأ ــ لأصبحت يراها الناس لا تتوارى عنهم »[1]) .

ومن ذلك رؤية عمر رضي الله عنه ــ وهو على منبر المدينة المنورة ــ جيش المسلمين بنهاوند .

وقد ذكر القصة التاج السبكي وغيره من العلماء .

وذلك أن عمر رضي الله عنه قد أمَّر سارية على جيش المسلمين ، وجهزه إلى نهاوند ، فاشتد الحال على عسكر المسلمين عند باب نهاوند وهم يحاصرونها ، وكاد المسلمون ينهزمون ، فبينما عمر رضي الله عنه على المنبر في المدينة يخطب إذ نادى بأعلى صوته : (يا سارية الجبلَ الجبلَ) .

فأسمع الله عز وجل سارية وجيوش المسلمين صوت عمر .

فلجأوا إلى الجبل ، وحموا ظهرهم من أعدائهم ، وكان عاقبة ذلك النصر[2] .

وهكذا تأتي الكرامات من الله تعالى لأوليائه حسب المناسبات ، ومقتضيات الحالات : فمن ذلك إضاءة العصا لكل من عباد بن بشر وأسيد بن حُضير رضي الله عنهما :

عن أنس رضي الله عنه قال : (كان عباد بن بشر وأسيد بن حُضير عند رسول الله ﷺ في حاجة حتى ذهب من الليل ساعة ، وهي ليلة شاتية شديدة الظلمة ، ثم خرجا من عند رسول الله ﷺ وبيد كل واحد منهما عصا ، فأضاءت لهما عصا أحدهما ، فمشيا في ضوئها حتى إذا افترقت

---

(١) رواه البخاري وغيره .

(٢) وقد أورد القصة ابن سعد في : (طبقاته).

بهما الطريق ، أضاءت للآخر عصاه فمشى كل واحد في ضوء عصاه حتى بلغ أهله)[1].

ومن ذلك قصة السيدة أم أيمن رضي الله عنها لما اشتد عليها العطش تدلى لها دلو ماء من السماء :

عن عثمان بن القاسم قال : هاجرت أم أيمن من مكة إلى المدينة وهي ماشية ليس معها زاد .

قالت : (فلما غابت الشمس إذا أنا بحقيق تحت رأسي فشربت حتى رويت) رواه ابن السكن .

وروى ابن سعد عن عثمان بن القاسم قال : (لما هاجرت أم أيمن أمست بالمنصرف دون الروحاء ، فعطشت وليس معها ماء — وهي صائمة ، فأجهدها العطش ، فدلى عليها من السماء دلو من ماء بِرِشاء — أي : حبل — أبيض ، فأخذت الدلو فشربته حتى رويت).

فكانت تقول : (ما أصابني بعد ذلك عطش ، ولقد تعرضت للصوم في الهواجر — أيام الحر — فما عطشتُ) .

ومن ذلك قصة أم شريك الدوسية رضي الله عنها :

روى ابن سعد بسنده عن يحيى بن سعيد قال : هاجرت أم شريك الدوسية فصحبت يهودياً في الطريق ومعه زوجته ، فأمست أم شريك صائمة .

فقال اليهودي لامرأته : إن سقيتها لأفعلن بك كذا — يعني : أنه نهاها عن سقياها ، وأوعدها وهدَّدها —.

---

(١) رواه الحاكم وصححه ، والبيهقي وأبو نعيم وابن سعد . وأصله في (صحيح البخاري) .

فباتت أم شريك كذلك ـ أي : وهي عطشى من الصوم لم تجد ماءً ـ حتى إذا كان آخر الليل إذا على صدرها دلو ماء موضوع ، فشربت أم شريك ثم أيقظتهم للدلجة ـ أي : للسير آخر الليل ـ.

فقال اليهودي : إني لأسمع صوت امرأة قد شربتْ ـ أي : كان صوتها أول الليل ضعيفاً من العطش ، والآن صوتها قوي لشبعها ـ فهل أنت سقيتها ؟

فقالت امرأته : لا والله ما سقيتها ـ أي : ولكن الله تعالى سقاها ـ.

ومن ذلك شرب خالد بن الوليد رضي الله عنه سمَّ ساعة لما تحدّاه العدو فلم يضرَّه :

عن أبي السفر قال : نزل خالد بن الوليد الحيرة فقالوا له : احذر السمَّ لا تسقيكه الأعداء .

فقال : ائتوني به فأخذه بيده ثم التهمه ـ ابتلعه ـ وقال : (بسم الله) فلم يضره شيئاً .

وفي رواية : لما أقبل خالد بن الوليد في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه يريد الحيرة ـ أي : الكوفة وما حولها ـ بعثوا إليه عبد المسيح ومعه سم ساعة ليشربه خالد إن كان دينه حقاً لا يضره .

فقال له خالد : هاته ، فأخذه في راحته ثم قال : (بسم الله ، وبالله رب الأرض والسماء ، بسم الله الذي لا يضر مع اسمه داء) .

ثم أكل خالد منها فلم يضره .

فانصرف عبد المسيح إلى قومه فقال : يا قوم أكل خالد سمَّ ساعة فلم يضره ، يا قوم صالحوهم فهذا أمر معهود فيهم .

ومن ذلك قصة سفينة رضي الله عنه الذي ضلّ عن الطريق فدلّه الأسد على الطريق :

روى البزار عن سفينة رضي الله عنه قال : (كنت في البحر فانكسرت سفينتنا فأتينا الشاطىء فلم نعرف الطريق فإذا نحن بالأسد قد عرض لنا ، فتأخر أصحابي ، فدنوت منه فقلت له : أنا سفينة صاحب رسول الله ﷺ وقد أضللنا الطريق .

قال : فمشى الأسد بين يديَّ حتى وقفنا ، ثم تنحى ودفعني كأنه يورّيني الطريق فظننتُ أنه يودعنا) .

وروى الطبراني نحوه بلفظ : قال سفينة : (انكسرت سفينتي التي كنت فيها فركبت لوحاً من ألواحها ، فطرحني اللوح إلى شاطىء فيه أجمة فيها أسد ، فأقبل الأسد يريدني فقلت له : يا أبا الحارث أنا سفينة مولى رسول الله ﷺ – أي : عتيقه – قال : فطأطأ الأسد رأسه وأقبل يدفعني بمنكبه نحو الطريق).

وسفينة رضي الله عنه كان قد أعتقه رسول الله ﷺ ، وقيل : أعتقته أم سلمة رضي الله عنها واشترطت عليه أن يخدم النبي ﷺ ، فيقال له : مولى رسول الله ﷺ ومولى أم سلمة .

واختلف في اسمه فقيل : طهمان ، وقيل : كيسان ، وقيل : مهران ، وقيل : غير ذلك .

ولكن سمّاه رسول الله ﷺ : سفينة وقد سُئل عن ذلك فقال : (كنا في سفر مع النبي ﷺ وكان كلما أعيى ـ أي : تعب ـ رجل ألقى عليَّ ثيابه أو ترساً أو سيفاً أو متاعاً حتى حملت من ذلك شيئاً كثيراً ، فقال لي ﷺ : « احمل فإنما أنت سفينة ») .

وفي رواية : خرج رسول الله ﷺ ومعه أصحابه فثقل عليهم متاعهم .

فقال لي ﷺ : « ابسط كساءك » .

فبسطته ، فجعلوا فيه أمتعتهم ، ثم حملوه عليَّ .

فقال لي رسول الله ﷺ : « احمل فإنما أنت سفينة ».

قال : (فلو حملت يومئذٍ وقر بعير ـ أي : حِمل جمل ـ أو بعيرين ، أو ثلاثة ، أو أربعة ، أو خمسة ، أو ستة ، أو سبعة ، ما ثقل عليَّ).

نعم لأن رسول الله ﷺ قال له : « إنما أنت سفينة » فهو يحمل ما تحمله سبعة من الإبل ولا يثقل عليه .

ومن ذلك قصة العلاء بن الحضرمي ومشيه بجيوش المسلمين على وجه الماء :

روى البيهقي عن أنس رضي الله عنه قال : جهز عمر بن الخطاب رضي الله عنه جيشاً واستعمل عليهم العلاء بن الحضرمي .

قال أنس : وكنت في غزاته فأتينا مغازينا فوجدنا القوم قد نذروا بنا فعفوا آثار الماء ـ أي : عطّلوا منابع الماء ودمّروها ـ .

قال أنس : وكان الحر شديداً فجهدنا العطش ـ أي : اشتدَّ علينا ـ

وذلك يوم الجمعة ، فلما مالت الشمس لغروبها صلّى بنا ركعتين ، ثم مد يده إلى السماء وما نرى في السماء شيئاً ، قال أنس : فوالله ما حطَّ العلاء يده حتى بعث الله ريحاً وأنشأ سحاباً ، وأفرغت حتى ملأت الغُدر والشعاب ، فشربنا وسقينا ركابنا وملأنا أوعيتنا ، ثم أتينا عدونا ، وقد جاوزوا خليجاً في البحر إلى جزيرة ، فوقف العلاء على الخليج ودعا فقال : (يا علي يا عظيم ، يا حليم يا كريم).

ثم قال : (اجيزوا — أي سيروا — بسم الله).

قال أنس : فسرنا على وجه الماء وما يبلُّ الماء حوافر إبلنا ، وأصبنا العدو ، فقتلنا وأسرنا وسبينا — ثم أتينا الخليج .

فقال العلاء : ودعا بمثل مقالته الأولى ، فأجزنا وما يبلُّ الماء حوافر دوابنا .

فلم نلبث إلا يسيراً حتى رمي في جنازته — أي : توفي — .

قال أنس : فحفرنا له وغسلناه ودفنّاه .

فأتى رجل بعدما دفناه فقال : إن هذه الأرض تلفظ الموتى فلو نقلتموه إلى ميل أو ميلين إلى أرض تقبل الموتى .

فقلنا : ما جزاء صاحبنا أن نعرضه للسباع تأكله ، فاتفقنا على نقله ، فحفرنا قبره فلما وصلنا إلى اللحد إذا صاحبنا العلاء ليس في القبر ، وإذا اللحد مدّ البصر يتلألأ نوراً .

قال أنس : فأعدنا التراب إلى اللحد ثم ارتحلنا .

نعم لقد نقلته الملائكة عليهم السلام[1].

وقد أسند ابن أبي الدنيا هذه القصة وقال في دعاء العلاء : (**يا عليم يا حليم ، يا علي يا عظيم ، إنا عبيدك ، وفي سبيلك ، نقاتل عدوّك ، اسقنا غيثاً نشرب منه ، ونتوضأ ، فإذا تركناه فلا تجعل لأحد فيه نصيباً غيرنا**) .

وقال العلاء لما وقف على شاطىء البحر : (**اللهم اجعل لنا سبيلاً إلى عدوك**)!

وقال في الموت : (**اللهم أخف جثتي ولا تطلع على عورتي أحداً**) .

ومن ذلك ما وقع لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في فتح المدائن :

قال الحافظ ابن كثير في (تاريخه): وقد أمر سعد المسلمين عند دخول الماء أن يقولوا : (**نستعين بالله ، ونتوكل عليه ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم**).

ثم اقتحم بفرسه دجلة ، واقتحم الناس ، ولم يتخلف عنه أحد ، فساروا في نهر دجلة كأنما يسيرون على وجه الأرض ، حتى ملأوا ما بين الجانبين ، فلا يرى وجه الماء من الفرسان والرحالة ، وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض ، وذلك لما حصل لهم من الطمأنينة والأمن والوثوق بأمر الله تعالى ، ووعده ونصره وتأييده ، ولأن أميرهم سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وقد توفي رسول الله ﷺ وهو عنه راض .

---

(١) قال البيهقي رحمه الله تعالى : وقد روى عن أبي هريرة أيضاً في قصة العلاء بنحو من هذا . اهـ . وفي تاريخ ابن كثير قال : ذكر البخاري في (التاريخ) لهذه القصة إسناداً آخر . اهـ . قلتُ : وذكر نحو هذه القصة عن العلاء في (مجمع الزوائد) عن الطبراني في الثلاثة ، وذكرها أبو الفرج الأصبهاني وغيرهم .

ودعا له رسول الله ﷺ فقال : « اللهم أجب دعوته وسدِّدْ رميته ».

قال ابن كثير : والمقطوع به أن سعداً دعا لجيشه هذا في هذا اليوم بالسلامة والنصر .

وقد رمى سعد بهم في هذا اليمّ — البحر — فسددهم الله تعالى وسلَّمهم فلم يفقد من المسلمين رجل واحد . اهـ.

ومن ذلك قصة الحسن البصري رضي الله عنه مع الحجاج وكان يرسل إليه الجنود ليقبضوا عليه ويذهبوا به إلى الحجاج ، والحسن البصري في بيته فيدخلون عليه فما يرونه — جرى ذلك مراراً .

ولما بلغ الحسن البصري أن الحجاج قد قتل سعيد بن جبير ، قال الحسن : (**اللهم يا قاصم الجبابرة اقصم الحجاج**).

فما بقي إلا ثلاثة أيام حتى وقع في جوفه الأكلة والدود حتى مات .

وقد روى أبو نعيم في (الحلية) بإسناده عن الحسن البصري رضي الله عنه أنه قال يوماً وهو يعظ الناس : ويحك يا ابن آدم هل لك في محاربة الله تعالى طاقة ؟ إنه من عصى الله فقد حاربه .

ثم قال الحسن البصري : والله لقد أدركت سبعين بدرياً أكثر لباسهم الصوف ، ولو رأيتموهم قلتم مجانين ، ولو رأوا خياركم لقالوا ما لهؤلاء في الآخرة من خلاق — أي : نصيب — يريد بذلك الذين يحبون الظهور والسمعة .

قال : ولو رأوا شراركم لقالوا عنهم : هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب .

قال : ولقد رأيت أقواماً — يعني : بذلك الصحابة رضي الله

عنهم ـ كانت الدنيا أهون على أحدهم من التراب تحت قدمه ، ولقد رأيت أقواماً يمسي أحدهم وما يجد عنده إلا قوتاً فيقول : لا أجعل هذا كله في بطني بل لأجعلن بعضه لله عزَّ وجلَّ فيتصدق ببعضه ـ وإن كان هو أحوج ممن يتصدق عليه . اهـ.

ومن ذلك كرامات أبي مسلم الخولاني واسمه عبد الله بن ثُوَب :

فقد نقل الإمام النووي رحمه الله تعالى بإسناده أن امرأة أبي مسلم الخولاني قالت : يا أبا مسلم ليس لنا دقيق ـ أي : ليس عندنا طحين يخبز لطعام الليلة .

فقال لها : هل عندك شيء ؟ ـ أي : من الدراهم .

فقالت له : عندنا درهم واحد بعنا به غزلاً .

فقال : أبغنيه ـ أعطنيه ـ وهاتي الجراب ـ أي : كيس الدقيق ـ.

ثم ذهب ودخل السوق فوقف على رجل يبيع الطعام ـ أي : الدقيق ـ فوقف عليه سائل وقال : يا أبا مسلم تصدق عليَّ .

فهرب منه أبو مسلم ، وأتى حانوتاً آخر ، فتبعه السائل فقال : تصدق عليّ يا أبا مسلم .

فلما أضجره ـ أي : ألحَّ عليه في السؤال ـ أعطاه الدرهم ، ثم عمد إلى الجراب فملأه من نحاتة النجارين مع التراب ، ثم أقبل إلى باب منزله فنقر الباب وقلبه مرعوب من أهله ، ففتحت امرأته الباب ورمى بالجراب ـ الممتلىء بالنحاتة يوهمها أنه دقيق حنطة ـ وذهب سريعاً .

فلما فتحته إذا هي بدقيق حُوَّارى ـ أي : دقيق خالص الحنطة ـ فعجنت وخبزت .

فلما ذهب من الليل الهَوِيُّ ـ أي : ذهب قسم من الليل ـ جاء أبو مسلم فنقر الباب فلما دخل وضعت امرأته بين يديه خواناً وأرغفة حُوَّارى .

فقال لها أبو مسلم : من أين لكم هذا ؟

فقالت يا أبا مسلم من الدقيق الذي جئت به ورميته وراء الباب ـ فجعل يأكل ويبكي . اهـ.

قال الإمام النووي رضي الله عنه بعد ذكر هذه الحكاية قلت : ما أنفس هذ الحكاية وأكثر فوائدها !

ثم قال : وكان أبو مسلم من كبار التابعين وعبّادهم ، وصالحيهم ، وأهل الكرامات الظاهرات ، والأحوال السنية المتظاهرات ، وكان قد رحل إلى رسول الله ﷺ ليصحبه فتوفي النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو في الطريق ، فجاء ولقي أبا بكر وعمر وغيرهما من الصحابة .

قال الإمام النووي : ومن نفائس كرامات أبي مسلم ما رواه الإمام أحمد في كتاب (الزهد) أن أبا مسلم الخولاني مرَّ بنهر دجلة وهي ترمي الخشب من برها فمشى على الماء ثم التفت إلى أصحابه فقال : هل تفقدون من متاعكم شيئاً فندعوا الله عزَّ وجلَّ ؟

قال : ورواه الإمام أحمد من طريق آخر وفيه : أن أبا مسلم وقف على دجلة ثم حمد الله تعالى وأثنى عليه ثم ذكر آلاءه ونعماءه ، وذكر سير بني

إسرائيل في البحر ثم نهز دابته فانطلقت تخوض في دجلة ، واتبعها الناس حتى قطعها الناس إلى الجانب الآخر .

قال : وبإسناد أحمد أيضاً : أن أبا مسلم كان بأرض الروم فبعث والي المسلمين سرية لمحاربة الروم ووقّت لهم وقتاً فأبطؤوا عن الوقت .

فاهتمَّ أبو مسلم بإبطائهم ، فبينما هو يتوضأ على شط النهر — وهو يحدِّث نفسه بأمرهم إذ وقع غراب على شجرة مقابلة له .

فقال الغراب : يا أبا مسلم اهتممت بأمر السرية ؟

فقال أبو مسلم : أجل — نعم —.

فقال الغراب : لا تهتم فإنهم قد غنموا — أي : قد وصلت السرية وقاتلوا الروم وغنموا — وسيردون عليك يوم كذا في وقت كذا .

فقال له أبو مسلم : من أنت يرحمك الله ؟

فقال له الغراب : أنا مفرِّح قلوب المؤمنين .

فجاء القوم في الوقت الذي ذكره على الوجه الذي ذكره .

قال : وبإسناد الإمام أحمد أن أبا مسلم كان جالساً مع أصحابه في أرض الروم يحدِّثهم .

فقالوا : يا أبا مسلم قد اشتهينا اللحم فلو دعوت الله تعالى فرزقنا .

فقال : اللهم قد سمعت قولهم وأنت على ما سألوا قادر .

فما كان إلا أن سمعوا صياح العسكر فإذا بظبي قد أقبل حتى مرَّ بأصحاب أبي مسلم فوثبوا إليه فأخذوه .

وقد ذكرت لك أيها القارىء الكريم نبذةً يسيرةً من كرامات بعض الصحابة وبعض التابعين ، لأن استقصاء كرامات الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أولياء الله تعالى ولا سيّما ساداتنا الأقطاب الأربعة ، ومن بعدهم من أئمة القوم وجميع أهل الله تعالى – إن استقصاء كراماتهم وحصرها هو أمر لا يمكن ، فإن كرامات الأولياء والصالحين من هذه الأمة لا تنقطع ، ومن أراد التوسع في الإطلاع على كرامات الأولياء فليرجع إلى كتب التواريخ الواسعة ، وكتب التراجم العامَّة ، والخاصة بأهل الله تعالى .

ونسأل الله تعالى أن ينفعنا بجميع أوليائه ، وأن يجمعنا وإياهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، بمرافقة حبيبنا ، ونور أعيننا ، وروح أرواحنا ، إمام الأنبياء والمرسلين ، وأفضل خلق الله أجمعين ، سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبد الآبدين – آمين .

التقرب إلى الله تعالى بالطاعات
ينبغي أن يكون مصحوباً بالرجاء والخوف

إعلم أن الله تعالى قد بيّن لعباده طريق التقرب إليه ، وما يجب أن يكون عليه حال المتقرّب إلى الله سبحانه فقال تعالى :

﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيّهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾.

فقلب التقرب إلى الله تعالى هو الأعمال الصالحة ، والأقوال الطيبة ، مع الصدق والإخلاص فيها لله تعالى .

وجناحاه هو رجاء رحمة الله تعالى ، والخوف من عذابه ، وبـذلك يحصل الفرار إلى الله تعالى .

قـال تعـالى : ﴿ ففـروا إلى الله إنـي لكـم منـه نذيـر مبـين ﴾ أي : بيِّـن الإنذار لكم من عذاب الله وعقابه وحجابه .

ومـن المعلـوم أن الطائـر إنما يفـرُّ مـن المخاوف إلى مأمنه ـ وهـو وكره ـ بجناحيه ، فبجناحي الخوف والرجاء يحصل الفرار إلى العزيز الغفار ، وبه ينجو من النار ، ويحل في مقعد الصدق .

قال تعالى في صفة عباده المقرَّبين السابقين بـالخيرات : ﴿ تتجـافى جنوبهم عن المضاجـع يدعـون ربهم ـ أي : عبـادة وسؤالاً ـ خوفـاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ﴾ الآيات .

وقال تعالى : ﴿ أمْ من هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل : هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ .

فهذا شأن أولي الألباب السابقين .

وقد أمر الله عباده أن يدعوه : عبادةً وسؤالاً ، خوفاً وطمعاً .

قال تعالى : ﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ .

كما أمر الله تعالى عباده أن يكونوا على علم يقين بأن الله تعالى شديد العقاب وأنه غفور رحيم .

قال تعالى : ﴿ اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم ﴾ .

وهذا العلم له أثره في النفوس لا محالة ، وذلك بأن يكونوا على رجاء رحمة الله تعالى ومغفرته ، وعلى خوف من عقابه .

وقال سبحانه : ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم ﴾ .

وقد أمر الله تعالى رسوله الكريم ، ونبيه العظيم ، سيدنا محمداً ﷺ أن ينبىء عباد الله بهذا النبأ العظيم قال تعالى : ﴿ نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ .

ولا بدَّ لهذا النبأ وهو الخبر الهامّ فوق كل هامّ — لا بد له من أثره في السامعين .

وقد ذكر الله تعالى لعباده الجنة ورغَّبهم فيها ، وذكر النار وخوفهم منها ، وقرن بين ذكرهما في كثير من الآيات القرآنية ، وأفرد في بعض الآيات كل واحدة منهما مقابل ما أفرده في موضع آخر ، وذلك ليكون المؤمن راجياً رحمة الله تعالى ، خائفاً من عذابه وعقابه وحجابه .

قال الله تعالى : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم ﴾.

وقال تعالى : ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم . خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من العذاب الحميم ذق إنك أنت العزيز الكريم . إن هذا ما كنتم به تمترون .

إن المتقين في مقام أمين في جنات وعيون يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين كذلك وزوجناهم بحور عين . يدعون فيها بكل فاكهة آمنين لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم فضلاً من

ربك ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

وهكذا قرن سبحانه بين آيات الثواب والعذاب ، وأهل الجنة وأهل النار ، وحال أهل الجنة وحال أهل النار ـ ليكون المؤمن راغباً راهباً .

وقد قال الصدِّيق الأكبر للفاروق الأنور رضي الله عنهما في وصيته له : (ألم تر يا عمر إنما أنزلتْ آية الرجاء مع آية الشدَّة ، وآية الشدَّة مع آية الرجاء ، ليكون المؤمن راغباً راهباً ، لا يرغب رغبةً يتمنَّى على الله تعالى ما ليس له ، ولا يرهب رهبة يلقى فيها بيديه ـ أي : بأن يقنط من رحمة الله تعالى ـ.

ألم تر يا عمر إنما ذكر الله تعالى أهل النار بسوء أعمالهم فإذا ذكرتَها قلتَ : إني لأرجو أن لا أكون منهم .

وإنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لأنه تجاوز عمَّا كان من سيء ، فإذا ذكرتَها قلتَ : أين عملي من أعمالهم ... إلخ).

وقد بين الله تعالى أن الإيمان به سبحانه يوجب على المؤمن أن يخافه سبحانه :

قال تعالى : ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ .
فهم يخافون عذابه ، ويخافون حسابه ، ويخافون مقامه .

قال تعالى : ﴿ والذين هم من عذاب ربهم مشفقون إن عذاب ربهم غير مأمون ﴾.

وقال تعالى : ﴿ والذين يصلون ما أمر الله به أن يُوصل ويخشوْن ربهم ويخافون سوء الحساب ﴾.

وقال سبحانه : ﴿ وأمّا مَنْ خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾.

ووصف الله تعالى السابقين من المقربين بالخوف من مقامه :
قال تعالى : ﴿ ولمنْ خاف مقام ربه جنتان ﴾.
وهؤلاء هم السابقون .

ثم قال تعالى في أصحاب اليمين : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ كما سنوضحه إن شاء الله تعالى .

وقال تعالى : ﴿ مَنْ خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود ﴾ .

فلما خافوه في الدنيا أمَّنهم وسلَّمهم يوم القيامة .

وروى ابن حبان في (صحيحه) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عزَّ وجلَّ أنه قال : « وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أمنين ، إذا خافني في الدنيا أمَّنتُه يوم القيامة ، وإذا أمنني في الدنيا أخفته في الآخرة » .

والخوف من الله تعالى يحمل الإنسان على امتثال أوامره واجتناب ما نهى عنه .

فمن خاف عذاب الله تعالى وغضبه وعقابه ، أسرع إلى ما فيه طاعته سبحانه ومثوبته ورضاه ، وأما دعوى الخوف مع البقاء والإصرار على الذنوب والمعاصي فذلك أمر بعيد .

وإلى ذلك أشار النبي ﷺ ، ونبَّه العقلاء إلى الأخذ بالحذر قبل

الوقوع في الخطر .

روى الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « منْ خاف أدلج ، ومَنْ أدلج بَلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة ».

يعني أن المسافر إذا أمسى وهو في الصحراء ، وخاف البَيَات فإنه يُدلج - أي : يسير ويمشي أول الليل حتى يصل إلى مأمنه - « ومن أدلج بلغ المنزل » وهكذا المسافر إلى الآخرة ، والسائر إلى ربه تعالى .

قال الحافظ المنذري رحمه الله تعالى : أدْلج بسكون الدال : إذا سار في أول الليل .

قال ومعنى الحديث : أنَّ مَنْ خاف الله تعالى ألزمه الخوف السلوك إلى الآخرة ، والمبادرة بالأعمال الصالحة - خوفاً من القواطع والعوائق . اهـ.

وعلى قدر الخوف من الله تعالى يكون المانع عن المعاصي .

روى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشابٌّ نشأ في عبادة الله تعالى ، ورجل قلبه معلَّق بالمساجد ، ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا على ذلك وتفرَّقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شِماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .

الأسباب الموجبة للخوف من الله تعالى

إن الأسباب التي توجب على المؤمن أن يخاف من الله تعالى كثيرة ، أذكر جملة منها تبين للعاقل وجوه مخاوف المؤمن من الله تعالى :

الأول : خوف المؤمن من المعاصي وارتكاب ما نهى الله عنه .

الثاني : خوف المؤمن من الصغائر ومحقرات الأعمال .

الثالث : خوف المؤمن من الرياء في عمله ، أو قاله ، أو حاله .

الرابع : خوف المؤمن من النفاق على نفسه .

الخامس : خوف المؤمن أن يكون مقصراً في عهده مع الله تعالى ، ومع رسوله ﷺ .

السادس : الخوف من العمل وعدم قبوله .

السابع : الخوف من زيغ القلب عن الهدي المستقيم .

الثامن : خوف المؤمن سوء العاقبة ـ ونسأل الله تعالى حسن الخاتمة .

التاسع : خوف المؤمن من مناقشته في الحساب .

العاشر : خوف المؤمن من موقف السؤال .

الحادي عشر : خوف المؤمن من مقام رب العالمين .

ولكل وجه من هذه المخاوف دليل ثابت يوجب على المؤمن أن يخاف من الله تعالى ويخشاه .

أما الأول : وهو الخوف من المعاصي وعواقبها :

فقد خوَّف الله تعالى عباده من العذاب عليها فقال تعالى : ﴿ قل : إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ .

وأخبر سبحانه أنه ليس من شأن المؤمن أن يُصر على المعاصي والمخالفات ، بل يتباعد عنها ، وإذا وقع في شيءٍ منها فإنه يبادر إلى التوبة فيتوب الله تعالى عليه :

قال تعالى : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله و لم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ .

وحذَّر النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الإصرار على الذنوب وخطرها فقال : « ارحموا ترحموا ، واغفروا يغفر لكم ، ويلٌ لأقماع القول ، ويلٌ للمصرِّين ــ الذين يصرّون على ما فعلوا وهم يعلمون » .

وأقماع القول هم الذين يسمعون المواعظ ولا يتعظون ، ويُذكَّرون فلا يتذكرون ــ تهاوناً ، أو تكاسلاً ، أو تكبراً ، أو استهزاءً .

نعوذ بالله من ذلك كله .

جعلنا الله وإياك من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ــ آمين .

وقد أخبر النبي ﷺ عن عذاب المسلمين من أهل المعاصي والمخالفين أوامر الله تعالى الذين أحاطت بهم ذنوبهم ، وتمكنت بهم تمكن الصدأ من الحديد ، و لم تشملهم المغفرة ، فإنهم دخلوا جهنم ثم صاروا فحماً :

فقد روى مسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أما أهل النار الذين هم أهلها — يعني الكفار — فإنهم لا يموتون ولا يحيون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم — يعني : المسلمين العصاة — فأماتتهم إماتة حتى إذا كانوا فحماً أذن في الشفاعة ، فجيء بهم ضبائر ضبائر — أي : جماعات — فبثوا على أنهار الجنة ، ثم قيل : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم من الماء ، فينبتون نبات الحبة في حميل السيل » الحديث .

فهذا يدلك على أن العصاة المسلمين الذين يعذبون بذنوبهم ، فإن النار تحرق لحومهم ويتألمون حتى يصيروا فحماً — فيجب على المؤمن أن يخاف عذاب الله بسبب ذنوبه .

وقد قال ﷺ في المرابين ، وآكلي المال الحرام قال : « كل لحم نبت من سُحت — أي : حرام — فالنار أولى به »(١).

وروى الإمام أحمد في حديث المعراج أن النبي ﷺ قال : « فأتيت على قوم بطونهم كالبيوت — أي : كبيرة — فيها الحيَّات ترى من خارج بطونهم .

قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هؤلاء أكلة الربا » .

وقال ﷺ في الغاصبين : « من غصب رجلاً أرضاً ظلماً لقي الله وهو عليه غضبان »(٢).

---

(١) رواه الطبراني ، وروى الترمذي عن كعب بن عجرة نحوه .

(٢) رواه الطبراني وغيره .

وقال ﷺ في الزناة : « إن الزناة تشتعل وجوههم ناراً »[1].

وقال ﷺ : « إن الإيمان سربال يسربله الله من يشاء ، فإذا زنى العبد نزع الله منه سربال الإيمان ، فإن تاب ردَّ عليه »[2].

وقال ﷺ : « لما عرج بي مررت برجال تقرض جلودهم بمقاريض من نار .

فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هؤلاء الذين يتزينون للزنية .

قال : ثم مررت بجُبٍّ منتن الريح فسمعت فيه أصواتاً شديدة .

فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟

قال : نساء كن يتزينَّ للزنية ، ويفعلن ما لا يحل لهنَّ »[3].

وقال ﷺ : « اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة : اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدُّوا إذا ائتمنتم ، واحفظوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم ـ أي : عن الحرام ـ »[4].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم في شارب الخمر وغيره : « أربع حق على الله أن لا يدخلهم الجنة ولا يذيقهم نعيمها : مدمن الخمر ، وآكل الربا ، وآكل مال اليتيم بغير حق ، والعاق لوالديه »[5].

---

(١) رواه الطبراني .

(٢) رواه البيهقي بهذا اللفظ وله شواهد متعددة في كتب السنن .

(٣) رواه البيهقي وغيره .

(٤) رواه أحمد وابن حبان في (صحيحه) والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

(٥) رواه الحاكم وغيره .

وقال ﷺ : « مدمن الخمر إن مات ـ أي : ولم يتب ـ لقي الله كعابد وثن »[1]

وقال ﷺ : « يراح ـ أي : يشمُّ ـ ريح الجنة من مسيرة خمسمائة عام ، ولا يجد ريحها منَّان بعمله ، ولا عاقٌّ لوالديه ، ولا مدمن خمر »[2]

فعلى المؤمن أن يخاف من عذاب المعاصي ، ويبادر إلى التوبة ، فإذا لم يفعل يكون قد ظلم نفسه .

قال تعالى : ﴿ ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾.

لأنهم فوّتوا على أنفسهم خيراً كثيراً بسبب المعاصي ، وعرضوا أنفسهم للعذاب الأليم .

فعلى المسلم أن يتوقى الذنوب فإنها مهالك .

والمؤمن يخاف وعيد الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ فذكِّر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾.

وفي الحديث : « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » رواه الترمذي .

وروى الطبراني عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : لما فرغ رسول الله ﷺ من حنين نزلنا قفراً من الأرض ليس فيها شيء فقال النبي ﷺ : « اجمعوا ، من وجد شيئاً فليأت به ، ومن وجد عظماً أو سناً فليأت به » .

---

(١) رواه أحمد برجال الصحيح وابن حبان في (صحيحه) وله شواهد متعددة .

(٢) رواه الطبراني وله شواهد عند أحمد وغيره .

قال سهـل : فمـا كان إلا ساعـة حتـى جعلناه ـ أي : المكان ـ ركاماً ـ أي : كومة كبيرة مجتمعة ـ.

فقال النبي ﷺ : « أترون هذا ؟ فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكـم ، كما جمعتم هـذا ، فليتـق الله تعـالى رجـل ، فلا يـذنب صغيرة ولا كبيرة فإنها محصاة عليه » .

وقال الله تعالى : ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون : يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر ـ أي : لا يترك ـ صغيرة ولا كـبيرة إلا أحصاهـا ووجـدوا ما عملـوا حـاضراً ولا يظلـم ربك أحداً ﴾ .

وأما الثاني : وهو الخوف من الإصرار على الصغائر والمحقرات من الذنوب :

فإن الإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة ، وتفتك بصاحبها وتعمل به ما تعمله الكبيرة .

روى الإمام أحمد والطبراني وغيرهما واللفظ لأحمد عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إيَّاكم ومحقَّرات الذنوب فإنما مثل محقَّرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد ، فجاء ذا بعود ـ أي : بعود من الحطب ليوقدوا ناراً ـ حتى حملوا ما أنضجوا به خبزهم ـ وإن محقرات الذنوب متى يأخذ بها صاحبها تهلكه » .

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب ، فإن لها من الله طالباً » رواه النسائي واللفظ له ، وابن ماجه بلفظ : « إياك ومحقرات الأعمال » .

ويرحم الله القائل :

خلِّ الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى
ولا تحقرنَّ صغيرةً إن الجبال من الحصى

فواحدة الحصى لا تشكل تلاً ، ولا جبلاً ، ولكن إذا كثرت صارت تلاً ، وإذا تراكمت شكَّلت جبلاً ، وواحدة من عيدان الحطب لا يخبز خبزاً ، ولا ينضج طبخاً ، ولكن إذا اجتمعت العيدان إلى بعضها وأوقدت : أشعلت ناراً عظيمة – كما بيَّن ذلك ﷺ ، وجزاه الله تعالى عنا ما هو أهله .

الثالث : خوف المؤمن من الرياء والسمعة في قوله أو عمله أو حاله :

لقد كان السلف الصالح رضي الله عنهم يخافون على أنفسهم **الرياء والسمعة** في أعمالهم وأقوالهم وأحوالهم ، وسبب هذا الخوف هو الوعيد الشديد الذي جاء في المرائين والمسمِّعين .

أما الرياء : فهو أن يعمل العمل الحسن ، ويُري الناس أنه عمله يريد به وجه الله تعالى والدار الآخرة ، ولكنه في قرارة نفسه ونية قلبه يبتغي عرض الدنيا ، وأن يراه الناس ، فهو في الحقيقة يعمل لأجل الناس ولا يعمل لله تعالى .

وأما السمعة : فهو أن يعمل العمل لأجل أن يسمع من الناس ثناءً عليه ، ومدحاً له ، ولولا ذلك ما عمل الحسن ، فهو لا يريد به التقرب إلى الله تعالى ، ولا رضى الله تعالى .

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ﴾ الآية .

فالمتصدق إذا منَّ على الذي تصدق عليه أو آذاه بالكلام كقوله : لولا أني أعطيتك لهلكت ، وأنا الذي أعطيتك وتفضلت عليك إلخ ، فهذا يبطل ثوابه ، كالرياء فإنه يبطل ثواب العمل الصالح .

روى الإمام أحمد وغيره عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بشِّر هذه الأمة بالسناء والرفعة ، والدين ، والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا ـ أي : لأجل أن ينال عرض الدنيا ـ لم يكن له في الآخرة من نصيب » .

وروى الشيخان عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « مَنْ سمَّع سمَّع الله به ، ومن راء يراء الله به » .

قال المنذري رحمه الله تعالى : سمّع بتشديد الميم ومعناه : مَنْ أظهر عمله للناس رياءً ، أظهر الله نيته الفاسدة في عمله يوم القيامة ، وفضحه على رؤوس الأشهاد . اهـ.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « ما من عبد يقوم في الدنيا مقام سمعة ورياء إلا سمع الله به على رؤوس الخلائق يوم القيامة » . رواه الطبراني بإسناد حسن .

وروى الطبراني في (الأوسط) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ تَزيَّن بعمل الآخرة وهو لا يريدها ولا يطلبها لُعِنَ في السماوات والأرض » .

وروى الطبراني في (الكبير) عن أبيّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « مَنْ طلب الدنيا بعمل الآخرة طمس وجهه ، ومحق ذكره ، وأثبت اسمه في النار » .

والمراؤون بأعمالهم يكذبهم الله تعالى يوم القيامة وتكذبهم الملائكة عليهم السلام ، ويفتضحون يوم القيامة :

روى مسلم والنسائي والترمذي وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ أول من يقضى عليه يوم القيامة — أي : يحاسب فيقضى ويحكم عليه —

رجل استشهد فأتي به فعرَّفه — أي : عرفه الله تعالى — نعمته فعرفها .

قال : فما عملت فيها ؟

قال : قاتلت فيك حتى استشهدت .

قال الله تعالى له : كذبت ؛ ولكنك قاتلت لأن يقال هو جريء فقد قيل — ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار .

ورجل تعلم العلم وعلَّمه ، وقرأ القرآن ، فأتي به فعرَّفه الله تعالى نعمه فعرفها .

قال : فما عملت فيها ؟

قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن .

قال :كذبت ؛ ولكنك تعلمت ليقال عالِم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارىء وقد قيل — ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار .

ورجل وسع الله تعالى عليه وأعطاه من أصناف المال ، فأتي به للحساب ، فعرَّفه الله تعالى نعمه فعرفها .

قال : فما عملت فيها ؟

قال : ما تركت من سبيل تُحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك .

قال الله تعالى له : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل – ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار » .

الرابع : خوف المؤمن على نفسه من النفاق :

ذكر الإمام البخاري جملة من مخاوف المؤمن في كتاب الإيمان في (صحيحه) فقال : باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر قال : وقال إبراهيم التيميُّ : ما عرضتُ قولي على عملي إلَّا خشيت أن أكون مكذّباً .

وإبراهيم التيميّ هو من فقهاء التابعين وعُبَّادهم .

قال الحافظ ابن حجر : يُروى مكذَّباً بفتح الذال ، يعني إبراهيم بذلك : خشيت أن يكذبني من رأى عملي مخالفاً لقولي فيقول : لو كنت صادقاً فعلتَ خلاف ما تقول ، وإنما قال ذلك لأنه كان يعظ الناس – أي : فكان يخاف أن يكون واعظاً وليس متعظاً بما يقول .

قال ابن حجر رحمه الله تعالى : ويُروى بكسر الذال وهي رواية الأكثر – مكذِّباً – قال : ومعناه : أنه مع وعظه الناس لم يبلغ غاية العمل ، وقد ذمَّ الله تعالى مَنْ أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وقصَّر في العمل ، فقال سبحانه : ﴿ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾.

قال : فخشي أن يكون مكذِّباً أي : مشابهاً للمكذبين . اهـ.

ثم قال الإمام البخاري : وقال ابن أبي مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه ، ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل .

قال الحافظ ابن حجر : والصحابة الذين أدركهم ابن أبي مليكة من أجلِّهم عائشة رضي الله عنها ، وأختها أسماء ، وأم سلمة رضي الله عنهما ، والعبادلة الأربعة ، وأبو هريرة ، وعقبة بن الحارث ، والمسور بن مخرمة .

ثم قال : وقد جزم بأنهم كانوا يخافون النفاق في الأعمال و لم ينقل عن غيرهم – أي : عن غير المذكورين من الصحابة الذين أدركهم – لم ينقل عنهم خلاف ذلك فكأنه إجماع – يعني : أن جميع الصحابة رضي الله عنهم كانوا كذلك .

قال : وذلك لأن المؤمن قد يعرض عليه في عمله ما يشوبه مما يخالف الإخلاص ، ولا يلزم من خوفهم من ذلك وقوعه – أي : النفاق – منهم بل على سبيل المبالغة منهم – أي : الشدة والقوة في الورع والتقوى رضي الله عنهم . اهـ.

ثم قال البخاري : ويذكر عن الحسن البصري : (ما خافه إلا مؤمن ، ولا أمنه إلا منافق) اهـ.

وأشار بذلك إلى ما رواه الإمام أحمد في كتاب (الإيمان) بسنده عن الحسن البصري أنه قال : (والله ما مضى مؤمن ولا بقى إلّا وهو يخاف النفاق على نفسه ، وما أمنه – أي : النفاق – إلّا منافق). اهـ.

وقد بلغ تورع الصحابة رضي الله عنهم عن النفاق وخوفهم منه ــ أنهم إذا تغيَّر الحال بأحدهم حين يكونون عند رسول الله ﷺ وإذا كانوا في بيوتهم مع أهليهم وأولادهم ، أو ما بينهم في الخلوة ؛ فكانوا يرون أن ذلك من النفاق ، حتى سألوا النبي ﷺ عن ذلك فبيَّن لهم أن ذلك ليس من النفاق .

روى مسلم والترمذي عن حنظلة بن الربيع كاتب رسول الله ﷺ ورضي الله عنه :

قال : لقيني أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال : كيف أنت يا حنظلة ؟

فقلت : نافَق حنظلة .

فقال : سبحان الله ما تقول !؟

فقال حنظلة : نكون عند النبي ﷺ يذكِّرنا بالنار والجنة كأنا رأي عين ، فإذا خرجنا من عنده ﷺ عافسنا ــ أي : خالطنا ــ الأزواج والأولاد والضَّيْعات ونسينا كثيراً .

فقال أبو بكر رضي الله عنه : والله إني لأجد مثل هذا .

فانطلقا إلى رسول الله ﷺ وذكروا له ذلك .

فقال ﷺ : « والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي ، وفي الذكر ، لصافحتكم الملائكة على فرشكم ، وفي طرقكم ، ولكن يا حنظلة : ساعة وساعة ــ ثلاث مرات ».

وهكذا كما روى البزار في (مسنده) عن أنس رضي الله عنه قال :

قالوا ـ أي : الصحابة ـ يا رسول الله إنا نكون عندك على حال فإذا فارقناك كنا على غيره ؟

فقال ﷺ : « كيف أنتم وربكم ؟»

قالوا : الله ربنا في السرِّ والعلانية .

قال : « ليس ذلكم النفاق » .

والمعنى والله تعالى أعلم : أن المنافق هو الذي يذكر الله تعالى أمام الناس في الملأ ، ومجلس الوعظ والتذكير ، ولكن إذا خلا نسي الله تعالى ولم يراقبه ، ولم يذكره ، فشأن المؤمن أن يراقب الله تعالى في جلواته وخلواته ، ومع الناس ، ومع أهله وأولاده ، وفي بيته ، ولا ينسى الله تعالى في جميع الشؤونات ، وسائر الأوقات .

قال الله تعالى : ﴿ وما تكون في شأنٍ وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ .

الخامس : خوف المؤمن أن يكون مقصراً في وفاء العهد مع الله تعالى ومع رسوله ﷺ :

قال الله تعالى : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ﴾ الآية .

وأثنى سبحانه على الموفين بعهودهم ، قال تعالى : ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾ .

وجاء في الصحيحين وغيرهما أن أبا بردة بن أبي موسى الأشعري وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما التقيا فقال عبد الله بن عمر : (يا أبا بردة هل تدري ما قال أبي ــ عمر ــ لأبيك ــ أي : أبي موسى ــ ؟ فقال : لا .

فقال ابن عمر : قال أبي لأبيك : يا أبا موسى أيَسُرُّكَ أن إسلامنا مع رسول الله ﷺ وجهادنا معه برد لنا ــ أي : يثبت أجره لنا ــ وأن كل عمل عملناه ــ أي : من أعمال الخير ــ بعد رسول الله ﷺ ننجو فيه كفافاً لا لنا ولا علينا .

فقال أبوك ــ أبو موسى ــ لا والله يا أمير المؤمنين لقد جاهدنا بعد رسول الله ﷺ ، وصلينا وتصدقنا وعملنا خيراً كثيراً ــ وإنا لنرجوا أجر ذلك .

فقال أبي ــ عمر رضي الله عنه ــ أمَّا أنا يا أبا موسى فأرجو كل عمل عملته مع رسول الله ﷺ برد لي ــ أي : ثبت أجره لي ــ، وكل عمل عملته بعد رسول الله ﷺ أخرج منه كفافاً لا لي ولا عليَّ .

فقال ابن أبي بردة : والله يا ابن عمر إن أباك خير من أبي). رضي الله عنهما ورضي عنا بهما .

فانظر يا أخي هذا عمر الفاروق ، الذي فَرَق الله تعالى به بين الحق

والباطل ، ومواقفه وأعماله الخيرة ، وعدله في إمارته ، وجهاده ، وزهده ، وورعه ، وما هنالك ــ إنه ليرجو قبول أعماله مع سيدنا رسول الله ﷺ لمكانة رسول الله ﷺ عند الله ، ووجاهته ، وفضله ، وكرامته ﷺ على الله تعالى .

ولما حضرته الوفاة قال لابنه عبد الله : (يا بني ضع رأسي على الأرض ويح عمر إن لم يغفر الله له). اهـ.

وعن أنس رضي الله عنه قال : اشتكى سلمان رضي الله عنه فعاده سعد فرآه يبكي .

فقال له سعد : ما يبكيك يا أخي سلمان ؟ أليس قد صحبت رسول الله ﷺ أليس أليس ؟ وفي رواية : توفي رسول الله ﷺ وهو عنك راض ، وترد عليه الحوض وتلقى أصحابك .

فقال سلمان : ما أبكي واحدة من اثنتين : ما أبكي ضناً على الدنيا ولا كراهية الآخرة ــ أي : حرصاً على الدنيا ولا كراهية الآخرة ــ ولكن رسول الله ﷺ عهد إلينا عهداً ما أراني إلا قد تعدّيتُ .

قال سعد : وما عهد إليك ؟

قال : عهد إلينا أنه يكفي أحدكم مثل زاد الراكب ، ولا أراني إلا قد تعديت ــ أي : جمعت من المال وادخرت فوق ما يحتاجه الراكب في سفره .

ثم قال سلمان : أما أنت يا سعد فاتق الله عند حكمك إذا حكمت وعند قسمك إذا قسمت ، وعند همِّك بأمرٍ إذا هممت . رواه ابن ماجه وغيره .

قال الحافظ المنذري : وقد جاء في (صحيح) ابن حبان أن مال سلمان رضي الله عنه الذي تركه جمع فبلغ خمسة عشر درهماً ، وفي الطبراني : أن متاع سلمان بيع فبلغ أربعة عشر درهماً . اهـ .

وروى أبو يعلى والطبراني بسند جيد عن يحيى بن جعدة قال : عاد خبَّاب بن الأرتّ ناسٌ من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : أبشر يا عبد الله ترد على محمد صلى الله عليه وآله وسلم الحوض .

فقال : كيف بهذا ؟ وأشار إلى أعلى البيت وأسفله – أي : إلى الأمتعة عنده – وقد قال رسول الله ﷺ : « إنما يكفي أحدكم كزاد الراكب » .

السادس : خوف المؤمن من ردِّ العمل وعدم قبوله :

قال تعالى : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴾ .

وقد بين النبي ﷺ المراد من الآية كما روى الترمذي عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت : يا رسول الله : ﴿ الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾ هم الذين يزنون ويسرقون ؟

قال : « لا يا ابنة الصديق ولكنهم الذين يُصلّون ويصومون ويتصدقون ويخافون ألّا يتقبل منهم » .

وفي رواية أحمد : قالت : يا رسول الله : ﴿ الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾ هو الذي يسرق ، ويزني ، ويشرب الخمر ، وهو يخاف الله عزَّ وجلَّ ؟

قال : « لا يا بنت الصديق ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق ، وهو يخاف الله عزَّ وجلَّ » .

فهؤلاء هم السابقون بالخيرات المقربون ، يخافون ألا يقبل منهم لإخلال في شروط القبول ، أو عدم كمال الإخلاص المطلوب في العمل ، لأن الناقد بصير وهو العليم الخبير سبحانه وتعالى .

السابع : خوف المؤمن من زيغ القلب :

قال الله تعالى : ﴿ وما يذَّكر إلا أولوا الألباب . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ .

فقد أخبر سبحانه عن أولي الألباب الذين هم كُمَّل عباده المقربين ، وأنهم يدعونه بما لقَّنهم وعلَّمهم بأن يقولوا : ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا ﴾ الآية .

والزيغ هو : الميل ، ومنه يقال : زاغت الشمس عن كَبِدِ السماء أي : مالت ودخل وقت الظهر .

والمعنى : لا تزغ قلوبنا عن سنن الهدي المستقيم الذي هديتنا إليه ، وفطرتنا عليه .

فينبغي للمؤمن أن يكثر من هذا الدعاء فإنه دعاء الأتقياء والأولياء .

روى الإمام مالك في الموطأ عن أبي عبد الله الصنابحي قال : قدمت المدينة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه فصليت وراءه المغرب فقرأ في الركعتين الأولين بأم القرآن وسورة من قصار المفصل ، ثم قام إلى الثالثة

فدنوت منه حتى إن ثيابي لتمسُّ ثيابه فسمعته قرأ بأم القرآن ــ أي : سورة الفاتحة ــ وبهذه الآية : ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ .

وقال نافع : (كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا افتتح المصحف ليقرأ بدأ فقال : (اللهم أنتَ هديتني ولو شئت لم اهتد لا تزغ قلبي بعد إذ هديتني وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) اللهم آمين .

وقد أرشد النبي ﷺ أمته إلى الإكثار من دعاء التثبيت على الدين ، وحفظ القلب من الزيغ ، فكان ﷺ يدعو بذلك جهراً ليسمعه الصحابة ويحفظوه عنه وينقلوه عنه :

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو : « يا مقلب القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك » .

قلت : يا رسول الله ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء ؟

فقال ﷺ : « ليس من قلب إلَّا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمٰن ، إذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه ، أما تسمعين قوله تعالى : ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ » رواه أحمد وابن شيبة وغيرهما .

وجاء نحو هذا عن أم سلمة وأنس وغيرهما .

وكان مالك بن دينار يقوم طول ليله ويقول : (يا رب قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار ففي أي الدارين منزل مالك).

وقال حاتم الأصم رحمه الله تعالى : (مَنْ خلا قلبه مِن ذكر أربعة أخطار فهو مفتر لا يأمن الشقاء :

الأول : خطر يوم الميثاق حين قال الله تعالى : هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار فلا يعلم في أي الفريقين كان .

الثاني : حين خلقه في ظلمات ثلاث وكتب شقياً أو سعيداً فلا يدري أياً كان .

الثالث : ذكر هول المطلع فلا يدري أيبشر برضا الله تعالى أم بسخطه .

الرابع : يوم يصدر الناس أشتاتاً فلا يدري أي الطريقين يسلك به). اهـ.

الثامن : خوف المؤمن من سوء العواقب والخواتيم :

ونسأل الله تعالى حسن العواقب والخواتيم ــ آمين .

روى البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إنما الأعمال بالخواتيم » .

وروى ابن حبان في (صحيحه) عن معاوية قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « إنما الأعمال بخواتيمها ، كالوعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله ، وإذا خبث أعلاه خبث أسفله » .

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إنَّ الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل

النار ، وإنَّ الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة » .

وروى الطبراني عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا تعجبوا بعمل عامل حتى تنظروا بمَ يختم له » .

وروى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا عليكم أن لا تعجبوا بأحدٍ حتى تنظروا بم يختم له ، فإن العامل يعمل زماناً من عمره ، أو برهة من دهره بعمل صالح لو مات عليه دخل الجنة ثم يتحول فيعمل عملاً سيئاً ، وإن العبد ليعمل البرهة من عمره بعمل سيء لو مات عليه دخل النار ثم يتحول فيعمل عملاً صالحاً » .

التاسع : خوف المؤمن من مناقشته في الحساب :

قال الله تعالى : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب . الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ﴾ .

ففي هذه الآيات الكريمة يصف الله تعالى عباده المقربين المشار إليهم بقوله : ﴿ أولوا الألباب ﴾ فإن القرآن يشير إلى المقربين السابقين بصفات متعددة ، فقد يعبر عن المقربين بالسابقين ، أو بالمقربين ، أو بأولي الألباب ، أو بالمحسنين ، أو غير ذلك تُعْرَف بالسياق أو اللحاق .

وجاء في صفات المقربين في هذه الآيات بأنهم يخشون سوء الحساب ،

وهو المناقشة في الحساب ـ فإن « مَنْ نوقش الحساب عذب » كما قال ﷺ .

فقالت السيدة عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله أليس يقول الله تعالى : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً ﴾.

فقال : « إنما ذلك العرض ، وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك » كما في الحديث .

قال الحسن البصري رضي الله عنه : سوء الحساب هو المناقشة فيه ، وهو أن يحاسبوا بذنوبهم كلها صغيرها وكبيرها ولا يغفر منها شيء .

وقال ابن عباس رضي الله عنه : سوء الحساب هو أن يحاسبوا فلا تقبل حسناتهم ، ولا تغفر سيئاتهم . اهـ.

العاشر : خوف المؤمن من موقف السؤال :

قال الله تعالى : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ .

روى الترمذي وصححه عن أبي بردة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه ما عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه » .

وهناك يتمنى المحسن أن يكون قد ازداد من الطاعات والعبادات :

فعن محمد بن أبي عميرة رضي الله عنه وكان من أصحاب النبي ﷺ أحسبه رفعه إلى النبي ﷺ قال : « لو أن رجلاً خرَّ على وجهه من يوم

وُلدَ إلى يوم يموت هرماً في طاعة الله عزَّ وجلَّ لحقره يوم القيامة ، ولوَدَّ أنه رُدَّ إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب »[1].

وقال تعالى : ﴿ ثم لتسألن يومئذٍ عن النعيم ﴾ .

روى البزار عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يُخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين : ديوان فيه العمل الصالح ، وديوان فيه ذنوبه ، وديوان فيه النعم من الله عليه .

فيقول الله عزَّ وجلَّ لأصغر نعمة : خذي ثمنك من عمله الصالح . فتستوعب عمله الصالح ثم تتنحى وتقول : وعزَّتك ما استوفيت ، وتبقى الذنوب والنعم وقد ذهب العمل الصالح .

فإذا أراد الله تعالى أن يرحم عبداً قال : يا عبدي قد ضاعفت لك حسناتك وتجاوزت عن سيئاتك ووهبت لك نعمي »[2].

وقد بيّنتُ في كتاب : (الإيمان بعوالم الآخرة) مواقف السؤال فارجع إليه .

الحادي عشر : خوف المؤمن مقام ربِّه عزَّ وجلَّ :

قال الله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ .

---

(١) رواه أحمد ورواته رواة الصحيح وقد جاء نحوه عن عتبة بن عبد الله مسنداً إلى رسول الله ﷺ كما في الطبراني .

(٢) وروى الطبراني نحوه عن واثلة بن الأسقع كما في (الترغيب) للمنذري .

وقال تعالى : ﴿ ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ .

ومعنى المقام في هذه الآيات الكريمة : يحتمل أموراً وكلها لازمة ومتلازمة :

أولاً : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ .

المقام هنا هو مصدر ميمي بمعنى القيام ـ أي : خاف مقام ربه عليه بعلمه بكسبه من خير أو شر ، وبالإطلاع على سرّه وعلانيته ، ورؤيته له في الخلوة والجلوة ، قال تعالى : ﴿ أفمن هو قائم على كلّ نفس بما كسبت ﴾ الآية .

فالله تعالى وحده القائم على كل نفس منفوسة بالتدبير والحفظ والعلم بجميع أحوالها ، وحركاتها ، وسكناتها ، وتقلباتها ، وهو الرقيب عليها ، والمهيمن عليها ، لا تخفى عليه خافية كما قال تعالى : ﴿ سواء منكم من أسرَّ القول ومن جهر به ومَنْ هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾ .

وكما قال تعالى : ﴿ إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ .

وكما قال سبحانه : ﴿ وما تكون في شأنٍ وما تتلو منه من قرآنٍ ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ .

ومن ثمّ كان من الواجب على المؤمن أن يخاف مقام ربه عليه .

ثانياً : يحتمل أن كلمة مقام أتى بها لتعظيم الله تعالى وإجلاله وعزته وسلطانه وهذا الخوف يحمل صاحبه إلى مقام الخشية من الله تعالى .

ثالثاً : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ أي : خاف العبد قيامه بين يدي رب العزة ، فالمقام اسم المكان ، وأضيف إلى الضمير العائد على الله تعالى ، لأن ذلك القيام يكون بين يديه سبحانه ، وهو موقف تكليم الله تعالى عبده من غير حجاب ولا ترجمان .

وفيه السؤال ، وفيه التلطيف بأقوام ـ جعلنا الله تعالى منهم ، والمؤانسة لهم .

وفيه التعنيف لأقوام آخرين والتوبيخ لهم ـ أعاذنا الله تعالى أن نكون منهم .

وقد بيّن النبي ﷺ المقام فقال : « وليلقينَّ الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه حجاب ولا ترجمان يترجم فليقولنَّ له : ألم أبعث فيك رسولاً فبلَّغك ؟ »ـ أي : فما عملت برسالته ـ كما جاء ذلك في (الصحيحين) .

وروى الترمذي وأصله في (الصحيحين) عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا سيكلّمه الله يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر العبد أيمن منه فلا يرى إلا ما قدَّم ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدَّم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار ».

قال ﷺ : « فاتقوا النار ولو بشقّ تمرة ، فمن لم يستطع فبكلمة طيّبة » .

وقد ذكر الله تعالى من صفات المؤمنين الخاشعين أنهم لا ينسون لقاء الله تعالى بل هو اعتقادهم القلبي ، وحديثهم النفسي ، قال تعالى في شأن

الصلاة : ﴿ وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾ .

فالواجب على المسلم أن يُعدَّ العدة ؛ ويصحح النيات ، ويصلح الأعمال ، ويصدق في الأقوال ، ويحسن الأخلاق ؛ استعداداً ليوم عظيم ، يرجع فيه إلى الله تعالى ، ويلقى فيه ربه ، ويسأله سبحانه عما صدر عنه من أعمال وأقوال وأحوال .

قال تعالى : ﴿ ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ .

وقد أنزل الله تعالى آيةً في القرآن الكريم هي آخر الآيات نزولاً ، ينبِّه الله تعالى فيها عباده لعظمة ذلك اليوم ، ورهبة ذلك الموقف ، وهيبة ذلك المقام ، فقال سبحانه : ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ .



من آيات التخويف

لقد ذكر الله تعالى في القرآن كثيراً من الآيات ، فيها تخويف العباد ، وتذكيرهم ، وترهيبهم ، لأجل أن ينهضوا إلى الجد والعمل ، ولا يخلدوا إلى الخمول والكسل .

وآيات التخويف المقصود منها حصول الخوف في نفس القارىء والسامع ، وليست هي من باب التوهم والتخييل ، ولذلك نبَّه الله تعالى عباده ، إلى أن يخافوا مما خوَّفهم الله تعالى ، آخذين بالجدِّ ، ولا يتخذوا آيات الله تعالى هزواً .

قال تعالى : ﴿ قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون ﴾ .

أي : فامتثلوا أوامر الله تعالى ، واجتنبوا ما نهى ، خوفاً من عذابه وعقابه .

فتخويف الله تعالى عباده يوجب عليهم أن يتقوه ، فإن تقواه ـ أي : امتثال أوامره واجتناب مناهيه ـ في ذلك وقاية لهم من المخاوف ، وأمان لهم من المتالف .

وقد نعى سبحانه على الكفار فقال : ﴿ ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً ﴾ .

فعدم الخوف من تخويف الله تعالى ليس شأن المؤمن .

وقد اختلف العلماء في أشدِّ الآيات تخويفاً والحقُّ أنها كلها أشدُّ :

فقال بعضهم : أشدُّ الآيات تخويفاً قوله تعالى : ﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ﴾ والثقلان تثنية ثَقَل ، والمراد بهما الإنس والجن ، وسمّوا بذلك لأنهما سُكان الأرض ، والقائمون على ظهرها من ذوي العقل ، وقد حمِّلوا التكاليف الشرعية ، بخلاف بقية الحيوانات فليست مكلفة .

والمعنى : سنفرغ لسؤالكم ومحاسبتكم ، وفصل القضاء بينكم ، يا معشر الثقلين ، فخذوا حذركم ، وأعدوا عدتكم لذلك اليوم .

وقال بعضهم : أشد الآيات تخويفاً قوله تعالى : ﴿ ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب مَنْ يعمل سوءاً يجزَ به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ .

الأماني : جمع أمنية على وزن أفعولة ، وهي : الصورة الحاصلة في النفس التي يقدرها المتمني ويتصورها ، من قولهم : منى له الماني أي : قدر له المقدر ، ومنه المنيَّة : فإنها آجال مقدرة .

فقد يتمنى المتمني ماله حقيقة في الخارج ، وقد يطلق التمني على تصوير ما لا حقيقة له ، ومن هنا يعبر عن الكذب أحياناً ومنه قول سيدنا عثمان رضي الله عنه :------- ولا تمنَّيتُ منذ أسلمت .

ومعنى الآية : ليس الإيمان وما وعد الله تعالى به من الثواب والجنة ــ حاصلاً لكم بمجرد أمانيكم أيها المسلمون ، ولا أماني اليهود والنصارى قبلكم ، وإنما يحصل ذلك بالسعي والجد والاجتهاد ، وامتثال أوامر الله تعالى ، واجتناب ما نهى عنه .

أخرج ابن أبي شيبة عن الحسن رضي الله عنه أنه قال :

(ليس الإيمان بالتمني ، ولكن ما وقر في القلب ، وصدقه العمل ، إن قوماً أَلْهتهم أمانيّ المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحسِّن الظن بالله تعالى ـــ وكذبوا ، لو حَسَّنوا الظن بالله تعالى لأحسنوا العمل) .

وروى ابن النجار عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلِّي ـــ أي : بالظاهر ـــ ولكن هو ما وقر في القلب وصدقه العمل » .

﴿ مَنْ يعمل سوءاً يُجْزَ به ﴾ الآية .

روى مسلم وأحمد وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾ شقَّ ذلك على المسلمين ، وبلغت منهم ما شاء الله تعالى ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ .

فقال ﷺ : « سَدِّدوا وقاربوا ، فإن في كل ما أصاب المسلم كفَّارة ، حتى الشوكة يشاكها ، والنكبة ينكبها » .

فبالمصيبة الصغيرة والكبيرة يكفر الله السيئات .

وروى ابن مَرْدُوْيَه وابن جرير وسعيد بن منصور وأبو نعيم عن مسروق قال أبو بكر رضي الله عنه : (يا رسول الله ما أشدَّ هذه الآية : ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾؟) .

فقال رسول الله ﷺ : « المصائب والأمراض والأحزان في الدنيا له ـــ للمسلم ـــ جزاء » .

وروى الترمذي وغيره عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : (كنت عند النبي ﷺ فنزلت هذه الآية : ﴿ من يعمل سوءاً يجزَ به ﴾ الآية .

فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا بكر : ألا أقرئك آية نزلت عليَّ ؟» .
فقلت : بلى يا رسول الله .
فأقرأنيها فلا أعلم إلا أني وجدت انقصاماً في ظهري حتى تمطيت لها .
فقال رسول الله ﷺ : « ما لك يا أبا بكر ؟».

قلت : بأبي وأمي أنت يا رسول الله وأيُّنا لم يعمل سوءاً وإنا لمجزيون بكل سوء عملناه ؟

فقال رسول الله ﷺ : « أما أنت يا أبا بكر وأصحابك المؤمنون فتجزون بذلك في الدنيا ، حتى تلقوا الله وليس عليكم ذنوب .

وأما الآخرون فيجمع لهم ذلك حتى يجزوا به يوم القيامة »).

فالهموم والمصائب والأمراض تكفر السيئات ، وترفع الدرجات ، كما دل على ذلك ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ، ومحيت عنه بها خطيئة » .

اللهم إنا نسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة .

وقال سفيان بن عيينة : أخوف آية : ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيءٍ حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم ﴾ الآية .

وأراد بذلك سفيان رحمه الله تعالى : أن هذه الآية وإن كانت موجهة

الخطاب لأهل الكتاب ، ولكن فيها تسميع لهذه الأمة المحمدية كما قيل : (إياكَ اعني واسمعي يا جارة)، فقد جرت عادة الله تعالى في القرآن أن لا يجابه هذه الأمة المحمدية بتعنيف ، أو توبيخ ، أو ذكر المساوىء ، ولكن يذكر مساوىء من قبلهم ، وتعنيف من قبلهم تسميعاً لهم ، وكأنه سبحانه يحذرهم من تلك المساوىء .

والمعنى : لستم على شيءٍ عند الله تعالى ما لم تعملوا بكتاب الله تعالى ـ أي : القرآن الكريم ـ عملاً حقاً ، متمسكين به ، وعملاً بما أنزل الله تعالى على رسوله سيدنا محمد ﷺ ـ أي : ما لم يعملوا بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ .

اللهم وفقنا للعمل بكتابك وسنة نبيك ﷺ ، واجعلنا على شيءٍ كبير مقبول عندك ـ آمين .

وقال بعضهم : أرجى آية : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ وأخوف آية : ﴿ ومن يعمل مثال ذرة شراً يره ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن ابن سيرين قال : لم يكن عندهم شيء أخوف من هذه الآية : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ .

وقال أبو جحيفة : أخوف آية في القرآن : ﴿ واتقوا النار التي أُعدت للكافرين ﴾ .

قال عبد الله : ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ

شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ .

وأشد آية على الكفار قوله تعالى : ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴾ .

أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وغيرهما عن الحسن رضي الله عنه في هذه الآية أنه قال : (بلغني أنه يحرق أحدهم في اليوم سبعين مرة ، كلما أنضجتهم وأكلت لحومهم قيل لهم : عودوا فعادوا) . اهـ.

وروى مسلم والترمذي وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ضِرسُ الكافر مثل أُحُد ، وغلظ جلده مسيرة ثلاث » أي : ثلاث ليال .

اللهم أنعمت علينا بنعمة الإيمان فأتمها بفضلك علينا ، وعافنا واعف عنا يا أرحم الراحمين .

ومن الآيات الكريمة التي يخوف الله تعالى بها عباده قوله سبحانه : ﴿ وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ قل للذين آمنوا : يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون ﴾ .

ففي الآية الأولى يذكرهم بأيام الله تعالى التي مرت عليهم في الدنيا ، وتمر عليهم ، وهي أيام نعمائه ، وأيام بلائه ، وأيام منحه ، وأيام محنه ، وأيام السراء ، وأيام الضراء ، وأن يقابلوا النعماء والسراء والرخاء

بالشكر ، ويقابلوا البلاء والضراءِ والشدائد بالصبر ـ ليعظم لهم الأجر ، ولذا قال تعالى : ﴿ إن في ذلك لآياتٍ لكل صبار شكور ﴾ .

وَمن لم يقابل النعم الإلّهية والآلاء بالشكر لله تعالى فسوف يلقى الحساب الشديد ، ومن لم يتلق الشدائد بالصبر فسوف يلقى ما هو أشد .

وأما الآية الثانية فقد أمر الله تعالى المؤمنين حين كانوا في مكة المكرمة قبل الهجرة ، وكانوا يلقون من المشركين أذى كثيراً ، وظلماً كبيراً ، فقد أمر الله تعالى المؤمنين أن لا يقابلوهم ، بل أن يعفوا ويصفحوا عنهم ، حتى يأتي الله بأمره ، فلما هاجروا إلى المدينة نزل في السنة الثانية قوله تعالى : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلِموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ .

فقوله تعالى : ﴿ قل للذين آمنوا : يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ﴾ أي : لا يؤمنون بأيام لقاء الله تعالى ، وأيام حسابه وسؤاله ، فهم لا يخافونها ولا يحسبون لها حساباً .

فالمراد بأيام الله تعالى في هذه الآية:يوم لقائه ، ويوم جمعه لهم ، ويوم العرض عليه ، ويوم حسابه ، ويوم سؤاله ، ويوم جزائه ، وأيام وعده ووعيده .

قال الله تعالى : ﴿ ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ﴾ الآية .

وقالَ تعالى : ﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ يومئذٍ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً . ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ يومئذٍ يوفيهم الله دينهم ـــ أي : جزاءهم ـــ الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾ .

رجاء رحمة الله تعالى ومغفرته

فكما أن من واجب الإيمان بالله تعالى الخوف من عذابه وعقابه وحجابه ، كذلك من واجب الإيمان الرجاء العظيم لرحمته ومغفرته .

قال الله تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .

فلقد خاطب المسرفين على أنفسهم ، الغرقى في ذنوبهم ، ونهاهم عن القنوط من رحمته ، لتنهض همتهم إلى طَرْق أبواب مغفرته .

فمن الواجب على المؤمن بمقتضى أنه مؤمن بالله تعالى أن يكون على رجاء رحمة الله تعالى ، وأن يحسن ظنه بالله تعالى ، وذلك بأن ينظر إلى ذنوبه وتقصيره ، فيخاف الله تعالى ، وينظر إلى سعة رحمة الله تعالى ، وسعة مغفرته ؛ فيرجو رحمة الله تعالى وعفوه .

وقد نهى سبحانه عن القنوط واليأس ، قال تعالى : ﴿ لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ .

وقال تعالى إخباراً عن نبي الله تعالى يعقوب : ﴿ ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ .

وقد بين الله تعالى في القرآن الكريم لعباده وجوهاً من رجاء رحمته ، وأبواباً واسعة لمغفرته ، ليدخلوا فيها ، أذكُر جملة موجزة منها إن شاء الله تعالى :

أولاً : إعلانه سبحانه لجميع خلقه أنه استوى على العرش بصفة الرحمانية قال تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وفي هذا بيان أن ربوبيته مصحوبة برحمانيته ، كما قال تعالى : ﴿ إن ربكم الرحمن ﴾ الآية .

فالعرش وما حواه وما أحاط به من العوالم التي لا يعلمها إلا الله تعالى — جميع ذلك محاط ومحفوف بالرحمانية .

وفي (الصحيحين) وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لما خلق الله الخلق — وفي رواية : لما قضى الله الخلق — كتب في كتاب عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي » .

وفي رواية : « إن رحمتي غلبت غضبي » .

وفي رواية : « إن رحمتي تغلب غضبي » .

ثانياً : إعلانه سبحانه لعباده سعة رحمته ، وإعلامهم بسعة مغفرته ، قال تعالى : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ الآية .

وقد توسلتْ بذلك حملة العرش ومن حوله في دعائهم ، قال تعالى : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيءٍ رحمةً وعلماً فاغفر للذين تابوا ﴾ الآية .

فلولا أن في ذلك مطمعاً ورجاءً ما توسلت به ملائكة الله تعالى في دعائهم .

وقال تعالى : ﴿ إن ربك واسع المغفرة ﴾ الآية .

فمهما اتسعت رقعة الذنب فميدان المغفرة أوسع ، ولذلك أرشد النبي ﷺ إلى التوسل إلى الله تعالى بسعة مغفرته :

فقد روى الحاكم عن جابر رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : واذنوباه — قال هذا القول مرتين أو ثلاثاً .

فقال له رسول الله ﷺ : « قل : اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي ، ورحمتك أرجى عندي من عملي » .

فقالها ، ثم قال له ﷺ : « عد » — أي : قلها — فعاد .

ثم قال له : « عد » فقالها ثلاثاً .

فقال له ﷺ : « قم فقد غفر الله لك » .

وروى ابن ماجه بسند جيد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لو أخطأتم حتى تبلغ — أي : خطاياكم — السماء ، ثم

تبتم لتاب الله عليكم » .

فمهما اتسعت رقعة ذنوب العبد فساحة المغفرة أوسع ، ومهما تغلظت نجاسات المعاصي وأدناس الذنوب فبحر الغفران يطهرها دون أن يتغيَّر ولا يتبدل ولا يتعكر .

فعلى المذنبين أن يسارعوا إلى مغفرة الله تعالى بالتوبة والاستغفار قبل أن ينقلوا من هذه الدار إلى دار القرار .

ثالثاً : كثيراً ما يذكر الله تعالى لعباده في كتابه العزيز آيات الرجاء في مناسبات متعددة ليمكن رجاء رحمته ومغفرته في قلوبهم ، ويثبت بذلك إيمانهم ، وليشرح بذلك صدورهم ، وتستبشر بذلك نفوسهم ، وترتاح لذلك أرواحهم ، وليزيد ذلك في نشاطهم للعمل الصالح ، والإقلاع عن المخالفات والسيئات ، وليتحبب إلى عباده ، فيزدادون فيه حباً ، ويتسارعون إليه قرباً .

وقد اختلف العلماء في أشد الآيات وأعظمها رجاءً ؛ وكل ذلك صحيح :

فقال بعضهم : أرجى آية قوله تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .

روى أبو ذر الهروي في (فضائل القرآن) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن أعظم آية في القرآن** ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ .

وأعدل آية : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ﴾ .

وأخوف آية : ﴿ ومن يعمل مثال ذرة شراً يره ﴾ .

وأرجى آية : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ » الآية .

وقال ابن عباس رضي الله عنه : أرجى آية : ﴿ قال : أو لم تؤمن قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ . قال : فرضي منه سبحانه بقوله : بلى . اهـ.

وقال بعضهم : أرجى آية قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ .

وقال بعضهم أرجى آية قوله تعالى : ﴿ ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ .

وقال بعضهم : أرجى آية قوله تعالى : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إنَّ الله غفور رحيم ﴾ .

فإن : ﴿ عسى ﴾ من الله تعالى فيها إطماع ، ووعد ، وفتح باب رجاء للعبد ، والكريم إذا أطمع لم يمنع ، فكيف والله تعالى أكرم وأجلُّ ، فلذلك كانت : عسى ولعل من الله تعالى واجبة التحقق إذا دخلت على فعله سبحانه .

قال تعالى : ﴿ عسى ربكم أن يرحمكم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ .

وقال بعضهم أرجى آية قوله تعالى : ﴿ وإن ربك لذو مغفرةٍ للناس على ظلمهم ﴾ .

وقال **بعضهم** أرجى آية : ﴿ إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذَّب وتولَّى ﴾ .

وقال الشبلي رضي الله عنه : أرجى آية : ﴿ قل للذين كفروا : إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾ لأنه إذا أذن للكافر بدخول الباب إذا أتى بالتوحيد والشهادة – أفتراه يخرج الداخل فيها والمقيم عليها ؟ اهـ.

وقال بعضهم : أرجى آية قوله تعالى : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴾ .

فإنه سبحانه قدم مغفرة الذنب على التوبة منه ، فكأنه يغفر للمذنب قبل أن يتوب ، ثم عقب ذلك بوعيد عظيم لكن ختمه بوعد كريم فقال : ﴿ شديد العقاب ذي الطول ﴾ .

فذكر الوعيد بين وعود كريمة سابقة ولاحقة ، فإن رحمته سبحانه غلبت غضبه ، وسبقت غضبه ، وتغلب غضبه .

وقد ذكر القرطبي والسيوطي رحمهما الله تعالى وغيرهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه افتقد رجلاً من أهل الشام فقيل له : تتابع في هذا الشراب .

فقال عمر رضي الله عنه لكاتبه : اكتب : من عمر إلى فلان ، سلام عليك فأنا أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴾ . وختم الكتاب .

وقال عمر لحامل الكتاب : لا تدفعه إليه حتى تجده صاحياً .

ثم أمر عمر مَنْ عنده بالدعاء لذلك الرجل بالتوبة .

فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول : قد وعدني ربي ، قد وعدني الله أن يغفر لي ، وحذّرني عقابه ، فلم يبرح يردّدها حتى بكى ، ثم نزع عن الشرب ، وحسُنت توبته .

فلما بلغ عمر رضي الله عنه توبته قال : هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاكم قد زلّ زلّةً ، فسدّدوه ، ووقّفوه ، وادعوا الله له أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعواناً للشياطين عليه . اهـ.

أي : بالسب واللعن والشتم ، وتعجيل إقامة الحدّ عليه .

وقد أخذ عمر رضي الله عنه ذلك من إرشادات النبي ﷺ كما روى الإمام أحمد في (مسنده) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : أتي رسول الله ﷺ بسارق وكأنما أسفَ وجه رسول الله ﷺ ــ تغير ــ .

فقالوا : يا رسول الله كأنك كرهتَ قطعه .

قال ﷺ : « وما يمنعني ، لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم ، إنه ينبغي للإمام إذا انتهى إليه حدٌّ أن يقيمه ، إن الله عزّ وجلّ عفوٌّ يحب العفو ﴿ وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ » .

والمعنى : أن أحدكم إذا سرقه سارق فلا يعجل برفع الأمر للإمام وتنفيذ الحد فيه ، بل يعفو ويصفح ، فإن الله تعالى يحب العفو ، وأما إذا ارتفع الأمر للإمام وأثبت ذلك بالشهادة وجب على الإمام أن يقيم الحدَّ لا محالة .

قال الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى : أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب (التوبة) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ثماني آيات في سورة النساء هنَّ خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت :

أولهنَّ : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم ﴾ .

الثانية : ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ﴾ .

الثالثة : ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ .

الرابعة : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾ .

الخامسة : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ .

السادسة : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ .

السابعة : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ .

الثامنة : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله و لم يفرقوا بين أحدٍ منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ .

وجاء في تفسير الآلوسي وغيره أن الخلفاء الأربعة اجتمعوا وتذاكروا أرجى آية .

فقال عمر رضي الله عنه : لم أرَ آية أرجى من قوله تعالى : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ قدم الغفران قبل التوبة .

وقال عثمان رضي الله عنه : لم أرَ آية أرجى من قوله تعالى : ﴿ نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ﴾ .

وقال علي رضي الله عنه وكرّم وجهه : لم أرَ آية أرجى من قوله تعالى : ﴿ قل : يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .

وقال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه : لم أرَ آية أرجى من قوله تعالى : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسّه الشر كان يؤساً قل : كلّ يعمل على شاكلته ﴾ أي : كل أحد يعمل على شاكلته ثم قال : لا يشاكل بالعبد إلا العصيان ، ولا يشاكل بالرب إلا الغفران . اهـ.

وهذا من باب :

إن تغفر اللهم تغفر جمّاً   وأيّ عبدٍ لك لا ألمّا

قال عبد الله : ومن المبشرات للمؤمنين والمرجيات قوله تعالى : ﴿ والذي جاء بالصدق وصدّق به أولئك هم المتقون لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾ .

فالذي كفّر عنهم أسوأ ما عملوا فقد كفّر عنهم ما دونه من كل سيء ، ثم جزاهم أجرهم على نسبة أحسن عمل عملوه ، فرفع عملهم الحسن إلى رتبة الأحسن ، وجزاهم أجرهم على ذلك ، هذا هو الله العظيم ، ذو الفضل العظيم .

نسأل الله تعالى بجاه حبيبه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أن يجعلنا منهم آمين .

ومن **ذلك قوله تعالى** : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياةً طيبة ولنجزيَنّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

وقال تعالى في وصف المسلم وشأن المؤمن : ﴿ حتى إذا بلغ أشُدَّه وبلغ أربعين سنة قال : ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين . أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ﴾ .

فانظر كيف قال تعالى : ﴿ نتقبل عنهم ﴾ ولم يقل : نتقبل منهم ، لأنه ضمن التقبل معنى العفو والصفح .

والمعنى : نعفو ونصفح عنهم ونتقبل منهم ، ولولا صفحه عن تقصيرهم ما قبل منهم سبحانه وتعالى ـ فما أعظم عفوه وما أوسع مغفرته .

جملة من الأحاديث الواردة
في رجاء رحمة الله تعالى ومغفرته

الأحاديث النبوية التي جاءت في رجاء رحمة الله تعالى ومغفرته هي كثيرة وشهيرة وقد جاءت على أنواع متعددة أذكر جملة منها :

النوع الأول : الأحاديث الواردة في بيان وجوب حسن الظن بالله تعالى .

النوع الثاني : الأحاديث الواردة في بيان سَعة رحمة الله تعالى .

النوع الثالث : الأحاديث الواردة في بيان سَعة مغفرة الله تعالى .

النوع الرابع : الأحاديث الواردة في الحث على التوبة والترغيب فيها ، وأن باب التوبة مفتوح لجميع الخلائق .

النوع الخامس : الأحاديث الواردة في بيان سعة الشفاعة المحمدية ﷺ وأنواعها .

النوع السادس : الأحاديث الواردة في ثبوت الشفاعات التي فتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبوابها للشافعين .

النوع السابع : بشائر طيِّبة يفرح بها المؤمنون .

حسن الظن بالله تعالى

يجب على المسلم أن يكون حسن الظن بالله تعالى في أمور دينه وأمور دنياه ، وفي أمور أولاه وأمور أخراه ، ولا يجوز لمسلم أن يسيء الظن بالله تعالى ، فإن ذلك من صفات المنافقين والكافرين ، كما ذكر الله تعالى ذلك عنهم .

قال تعالى : ﴿ ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدَّ لهم جهنم وساءت مصيراً ﴾ .

وقال تعالى مخاطباً للمنافقين : ﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزيّن ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ﴾ أي : هلكى .

فمن صفات المؤمن حسن الظن بالله تعالى :

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله عزَّ وجلَّ : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني » .

وفي رواية : « وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه » الحديث كما تقدم .

وروى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « حسن الظن من حسن العبادة » .

قال المنذري : ورواه الترمذي ولفظه : « إن حسن الظن من حسن العبادة » .

فمن العبادة لله تعالى حسن الظن به جلّ وعلا .

وعن جابر رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ قبل موته ﷺ بثلاثة أيام يقول : « لا يموتنَّ أحدكم إلّا وهو يحسِّن الظن بالله عزَّ وجلّ » رواه مسلم وغيره .

وعن حيَّان أبي النضر قال : خرجت عائداً ليزيد بن الأسود فلقيت واثلة بن الأسقع الصحابي رضي الله عنه وهو يريد عيادته أيضاً ، فدخلنا عليه فلما رأى واثلة بسط يده وجعل يشير إليه ، فأقبل واثلة حتى جلس فأخذ يزيد بكفَّيْ واثلة فجعلهما على وجهه .

فقال له واثلة : كيف ظنك بالله تعالى ؟

فقال : ظنِّي بالله تعالى والله حسن .

قال واثلة : فأبشر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله جلَّ وعلا : أنا عند ظن عبدي بي ، إن ظنَّ خيراً فله ، وإن ظنَّ شراً فله »[1].

وروى البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أمر الله عزَّ وجلَّ بعبد إلى النار .

فلما وقف على شفتيها التفت فقال : أما والله يا ربِّ إن كان — أي : إنه كان في الدنيا — ظني بك لحسن .

فقال الله عزَّ وجلَّ :ردُّوه أنا عند ظن عبدي بي » .

---

(١) رواه الإمام أحمد وابن حبان في (صحيحه) .

اللهم إنا نسألك التوفيق لمحابك وحسن الظن بك ، وصدق التوكل عليك ، بجاه حبيبك الأكرم سيدنا محمد ﷺ — آمين .

سَعة رحمة الله تعالى

قال الله تعالى : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إن ربكم الرحمن ﴾ فجميع المربوبات محاطة برحمانية رب العالمين .

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ، فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة ، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة ، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من جنته ، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار » .

ورواه مسلم بلفظ : « إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجنِّ والإنس ، والبهائم والهوامّ ، فبها يتعاطفون ، وبها يتراحمون ، وبها تعطف الوحش على ولدها ، وأخّر الله تعالى تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة » .

وفي رواية لمسلم : « إن الله تعالى خلق يوم خلق السماوات والأرض مائة رحمة ، كل رحمة طباق — أي : غطاء تغطي — ما بين السماء والأرض ، فجعل منها في الأرض رحمة ، فبها تعطف الوالدة على ولدها ، والوحش والطير بعضها على بعض ، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة » — أي : فيرحم الله تعالى عباده يوم القيامة بمائة رحمة كل

واحدة طباق ما بين السماء والأرض .

فما أحوج الخلائق إلى رحمة الله تعالى يوم القيامة ، لقد وسعهم كلهم جزء واحد في الدنيا ، أما يوم القيامة فيرحمون بمائة جزء .

وفي (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لما قضى الله الخلق » .

وعند مسلم : « لما خلق الله الخلق — كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي تغلب غضبي » .

وعند البخاري : « إن رحمتي غلبت غضبي » .

وفي رواية له : « إن رحمتي سبقت غضبي » .

وفي رواية : « لما خلق الله الخلق كتب في كتاب كتبه على نفسه فهو موضوع عند العرش : إن رحمتي تغلب غضبي » .

وعند الترمذي : قال ﷺ : « إن الله حين خلق الخلق كتب بيده على نفسه : إن رحمتي تغلب غضبي » .

وروى ابن مَرْدُوْيَه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق — أي : يوم القيامة — أخرج كتاباً من تحت العرش : إن رحمتي سبقت غضبي ، وأنا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة أو قبضتين فيخرج من النار خلق كثير لم يعملوا خيراً — مكتوب بين أعينهم عتقاء الله تعالى » .

سعة مغفرة الله تعالى

قال الله تعالى : ﴿ إن ربك واسع المغفرة ﴾ الآية .

روى مسلم وغيره عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يقول الله تعالى : مَنْ تقرَّب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة ، ومن لقيني بقراب الأرض ــ أي : بملء الأرض ــ خطيئة لا يشرك بي شيئاً لقيته بقرابها مغفرة » .

وروى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « والذي نفسي بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله تعالى لغفر لكم » .

فمغفرة الله تعالى واسعة لا تضيق على المذنبين ولو ملأوا ما بين السماء والأرض ذنوباً ، فإن الله تعالى يغفر لهم جميع ذلك إذا استغفروه .

وروى الترمذي وصححه عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« يقول الله تبارك وتعالى :

يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي .

يا ابن آدم : لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي .

يا ابن آدم : إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » .

اللهم اغفر لنا ذنوبنا وحوبنا وخطايانا يا خير الغافرين .

ومن سعة مغفرته سبحانه أنه يغفر لبني آدم خطاياهم المتواصلة في الليل والنهار ، من كبائر أو صغائر ، أو فرطات أو تقصيرات ، إذا هم استغفروه .

جاء في حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عزَّ وجلَّ أنه قال : « يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم » الحديث .

وإن مغفرة الله تعالى لا حظر عليها ولا مشاحَّة ولا ضيق فيها ، فإن الله تعالى يغفر لمن يشاء بأي سبب شاء من أسباب ظاهرة : كالتوبة والاستغفار والدعاء ، والصدقات ، والصلوات ، والأوراد ، ونحو ذلك من شفاعات وغيرها .

ومنها أسباب باطنة خفية هو أعلم بها قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ الآية .

جاء في (الصحيحين) وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بينما رجل بطريقٍ اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج ، فإذا كلب يلهث من العطش ، يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني ، فنزل البئر فملأ خفه ماءً ثم أمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب ـ فشكر الله تعالى له فغفر له » .

قالـوا يـا رسـول الله : إن لنـا في البهائم أجراً ــ أي : إذا رحمناهـا وأحسنا إليها ؟

فقال ﷺ : « في كل كبد رطبة أجر » .

وفي (الصحيحين) وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخَّره ــ أي : أزاله عن الطريق ــ فشكر الله تعالى له فغفر له » .

وفي رواية لأبي داود : « نزع رجل ــ لم يعمل خيراً قط ــ غصن شوك عن الطريق : إما كان في شجرة فقطعه ، وإمَّـا كان موضوعاً ــ أي : على الطريق ــ فأماطه فشكر الله تعالى له فغفر له » .

وإن مغفرة الله تعالى لا تحكُّم للمخلوق فيها :

روى الإمام مسلم عن جندب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قال رجل : والله لا يغفر الله لفلان ، وإن الله تعالى قال : مَنْ الذي يتألّى عليَّ ــ أي : يحلف ــ أن لا أغفر لفلان ؛ فإني قد غفرتُ له وأحبطتُ عملك » .

فمن حلف أن الله تعالى لا يغفر لفلان الذنب واستبعد ذلك عن الله تعالى ، فإن الله تعالى يحبط عمله ، ويغفر لذلك المذنب ، فلا حكم على الله ، وإنما الحكم لله تعالى .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كان في بني إسرائيل رجلان متواخيان : أحدهما مذنب والآخر في العبادة مجتهد .

فكان المجتهد لا يزال يرى الآخر على ذنب فيقول:أقصِرْ .

فوجده يوماً على ذنب فقال له : أقصِرْ .

فقال المذنب : خلِّني وربي ــ أبُعثتَ عليَّ رقيباً ؟

فقال له العابد : والله لا يغفر الله لك ، أو قال لا يدخلك الجنة .

فقبض الله تعالى أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين .

فقال الرب تعالى للمجتهد ــ في العبادة ــ : أكنت على ما في يديَّ قادراً ــ أي : حتى حلفت عليَّ أن لا أغفر له ــ ؟

وقال ــ تعالى ــ للمذنب : اذهب فادخل الجنة برحمتي .

وقال للآخر : اذهبوا به إلى النار » .

قال أبو هريرة : تكلّم ــ العابد ــ والله بكلمة أوبقت دنياه وآخرته ــ أي : أهلكته في الدنيا والآخرة ــ رواه أبو داود والإمام أحمد في (المسند) .

وفي (الصحيحين) والرواية للبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « كان ــ أي : في بني إسرائيل ــ رجل يسرف على نفسه ، فلما حضره الموت قال لبنيه : إذا أنا متُّ فأحرقوني ، ثم اطحنوني ، ثم ذرُّوني في الريح ، فوالله لئن قدَر عليَّ ربي ليعذِّبني عذاباً ما عذَّبه أحداً .

فلما مات فعل به ذلك .

فأمر الله تعالى الأرض فقال : اجمعي ما فيك منه ــ ففعلتْ .

فإذا هو قائم فقال ــ تعالى ــ: ما حملك على ما صنعت ؟

فقال : خشيتك يا رب ــ أو قال مخافتك يا ربّ .

فغفر له بذلك ».

وفي رواية : « فغفر الله عز وجل له » .

قال العلامة الخطابي رحمه الله تعالى : قد يستشكل فيقال : كيف يغفر له ؟ وهو منكر للبعث والقدرة على إحياء الموتى ؟

قال : والجواب أنه لم ينكر البعث ، وإنما جهل ، فظنَّ أنه إذا فُعل ذلك به لا يعاد ، فلا يعذب ، وقد ظهر إيمانه باعترافه بأنه فعل ذلك من خشية الله تعالى . اهـ.

قال عبد الله : وظنه أنه إذا فُعل به ذلك لا يعاد ، هذا الظن أيضاً يمسُّ بالإيمان بأن الله على كل شيء قدير .

ولكن يتمشى ذلك على أن بني إسرائيل خفِّف وتسومح عنهم في باب العقائد ، لقصور أفكارهم ، وضيق قلوبهم وعقولهم ، ولم يخفف عنهم في التكاليف العملية ، فكلفوا بخمسين صلاة كل يوم .

بخلاف هذه الأمة المحمدية لقد خفَّف الله عنهم التكاليف العملية من خمسين إلى خمس صلوات — ولها أجر الخمسين — ولكن شدَّد عليهم في باب العقائد .

وقد يقال في الجواب عن شأن ذاك الرجل : بأنه كان يسرف على نفسه ولكن عنده خوف من الله تعالى ، فلما حضرته الوفاة اشتدَّ عليه الخوف ، وكبر وعظم ، فشدة الخوف أدهشته ، واختل تفكيره ، فأوصى بذلك والله تعالى أعلم .

فالله تعالى يغفر لمن يشاء بأيِّ سبب شاء ، فإنه القدير على كل شيء ، وقد يعذِّب من يشاء بأيّ سبب شاء ظاهر أو خفي ، كبير في نظر الناس أو صغير ، ولكن عنده فهو كبير ، فقد يعذب به مع أن صاحبه له أعمال

صالحة وأقوال طيبة ، ولكن فعل ذنباً هو عند الله كبير ، وإن كان في نظر الناس صغيراً قال تعالى : ﴿ لله ما في السماوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذِّب من يشاء والله على كل شيءٍ قدير ﴾ فافهم .

روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مَرَّ بقبرين فقال : « إنهما ليعذَّبان وما يعذَّبان في كبير ، بلى إنه كبير : أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله » .

وفي رواية : « إنهما ليعذبان ، وما يعذبان في كبير ــ أي : في نظر الناس ــ ثم قال ﷺ : بلى ــ أي : إنه عند الله كبير ــ بل كان أحدهما لا يستتر من بوله ، وكان الآخر يمشي بالنميمة » .

وفي رواية « يمشي بالغيبة » كما هو عند الإمام أحمد وابن ماجه .

وروى البخاري وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « دخلت امرأة النار في هرَّة ربطتها ، فلم تطعمها ، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » .

وفي رواية : « عُذِّبت امرأة في هرَّة سجنتها حتى ماتت » .

وعند الإمام أحمد : « فوجبت لها النار بذلك » .

يعني : أنها كانت مؤدية حقوق العبادات ، وليس لها ارتكاب للمخالفات ، وإنما عذبت بسبب حبسها الهرَّة ، فإذا كانت هذه المرأة عُذِّبت بإيذائها الحيوان وهو الهرّة ، وأنت تعلم أن الإنسان أكرم على الله تعالى من الحيوان ، فإياك أن تؤذي إنساناً ، وإن كنتَ طائعاً عابداً .

وروى أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لو غفر لكم ما تأتون إلى البهائم لغفر لكم كثيراً » .

فالرحمة الرحمة بالإنسان ، والرحمة الرحمة بالحيوان ، فإن ذلك موجب الإيمان ، وليس من باب الامتنان قال صلى الله عليه وآله وسلم : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السماء ، والرحم شجنة من الرحمن ، من وصلها وصله الله تعالى ، ومَنْ قَطعها قطعه الله تعالى » الحديث .

فتح باب التوبة

وقبول التائبين في الليل والنهار

قال الله تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلَهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرَّم الله إلا بالحق ولا يزنون . ومن يفعل ذلك يلْق أثاماً . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلُد فيه مهاناً . إلا مَنْ تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ .

فقد فتح الله تعالى باب التوبة للكافر والمشرك الذي جعل مع الله إلَهاً آخر ، وللعصاة الذين قتلوا النفس بغير الحق ، والزناة ، وهكذا جميع أهل الكبائر والمعاصي ، وبيَّن لهم أنهم إذا تابوا من جرائمهم وذنوبهم ، وعملوا صالحاً فإن الله تعالى يبدِّل سيئاتهم — أي : صفاتهم السيئة في الدنيا — بصفات حسنة ، فيبدل كفرهم إيماناً ، وزناهم إحصاناً ، وخيانتهم وغدرهم نصحاً وأماناً ، كما أنه يبدل سيئاتهم العملية وهي ذنوبهم التي

ارتكبوها يبدِّل ذلك حسنات يوم القيامة ، فيكتب مكان كل سيئة حسنة ، باعتبار أنهم تابوا منها .

والتوبة قلبها هو الندم وهو احتراق وأسف القلب على ما فرّط في جنب الرّب ، فهذا الندم الحقيقي ، والإقلاع عن الذنب والعزم على أن لا يعود ، ذلك حسنة كبرى تحلُّ مكان السيئة التي صدرتْ منه ثم تاب منها .

روى البزار والطبراني بإسناد جيد قوي عن أبي طويل شطب المحدود أنه أتى النبي ﷺ فقال : (أرأيت من عمل الذنوب بكلها ، ولم يترك منها شيئاً ، وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلا أتاها فهل لذلك من توبة ؟

فقال ﷺ : « فهل أسلمتَ؟» .

قال : أما أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

فقال ﷺ : « تفعل الخيرات ، وتترك السيئات ، فيجعلهنَّ الله لك خيرات كلهنَّ » .

فقال الرجل : وغدراتي وفجراتي ؟

فقال ﷺ : « نعم » .

فقال : الله أكبر فما زال يكبر حتى توارى)[1].

وروى مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال : (قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار ، وآخر أهل الجنة دخولاً إلى الجنة .

---

(١) قال الحافظ المنذري : وشطب قد ذكره غير واحد في الصحابة ، إلا أن البغوي ذكر في (معجمه) أن الصواب عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير مرسلاً : أن رجلاً أتى النبي ﷺ طويل شطب . والشطب في اللغة : المحدود . فصحّفه بعض الرواة وظنه اسم لرجل . والله أعلم . اهـ .

يؤتى برجل فيقول — الله تعالى — نحُّوا عنه كبار ذنوبه ، وسلوه عن صغارها .

فيقال له عملتَ يوم كذا كذا وكذا ، وعملتَ يوم كذا كذا وكذا ؟

فيقول : نعم — لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئاً .

فيقال : فإن لك بكلّ سيئةٍ حسنة[1].

فيقول : عملتُ أشياء لا أراها ههنا » .

قال : فضحك رسول الله ﷺ حتى بدتْ نواجذه).

فباب التوبة مفتوح على مصراعيه في الليل والنهار فإن فيه الرحمة .

روى الطبراني ورواته رواة الصحيح — عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قالت قريش للنبي ﷺ : ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً ، فإن أصبح ذهباً اتبعناك .

فدعا ﷺ ربه فأتاه جبريل عليه السلام فقال : « إن ربك يقرئك السلام ويقول لك : إن شئت أجعل لهم الصفا ذهباً فمن كفر منهم عذبته

---

(١) فهذا الرجل لما دخل النار ، وطهر من ذنوبه ، لما كان في العذاب ندم واسف وتاب من ذنوبه — فهو في حكم التائب .

ولا يقال : إذاً مالفرق بين المسيء والمحسن بَعدُ ؟

فالجواب : أن المسيء لما تاب من سيئته أعطي مكانها حسنة واحدة مقابل توبته ، فإنها حسنة ، وأما المحسن فيعطى بالحسنة الواحدة عشر حسنات على أقل المضاعفات ، وقد تضاعف حسنته إلى سبعين ، إلى سبعمائة ، إلى سبعة آلاف ، إلى ألفي ألف حسنة — كما جاء في الحديث الوارد في تفسير قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾.

وانظر تفصيل ذلك في كتابي : (صعود الأقوال) .

عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة » .

فقال ﷺ : « بل باب التوبة والرحمة » .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « للجنة ثمانية أبواب : سبعة مغلقة — أي : يفتحها رسول الله ﷺ يوم القيامة — وباب مفتوح للتوبة حتى تطلع الشمس من نحوه »[1] .

وعن صفوان بن عسال رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن من قبل المغرب لباباً مسيرة عرضه أربعون عاماً ، أو سبعون سنة[2]، فتحه الله عزَّ وجلَّ للتوبة — يوم خلق السماوات والأرض ، فلا يغلقه حتى تطلع الشمس منه » رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول ﷺ : « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » رواه مسلم وغيره .

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه » .

وفي كل لحظة من لحظات عمر الإنسان يقبل الله تعالى توبة عبده ما لم تبلغ الروح حلقومه ، فيغرغر بها ، فهناك لا تقبل ؛ لأنه حينئذٍ يعاين برازخ الآخرة ، فتوبته توبة اضطرار ليس فيها اختيار :

---

(١) قال الحافظ المنذري : رواه أبو يعلى والطبراني بإسناد جيد .

(٢) هذا الشك من الرواي ، والثابت هو سبعون كما دلت على ذلك بقية الأحاديث الواردة في هذا الباب .

فعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغرغر »[1].

وروى الإمام أحمد في (مسنده) عن عبد الرحمن بن السلماني قال : (اجتمع أربعة من أصحاب النبي ﷺ :

فقال أحدهم : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يقبل توبة العبد قبل أن يموت بيوم » .

فقال الآخر : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ فقال : نعم ، قال : وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يقبل توبة العبد قبل أن يموت بنصف يوم » .

فقال الثالث : أنتَ سمعتَ هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، فقال وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يقبل توبة العبد قبل أن يموت بضحوة » .

فقال الرابع : أنتَ سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، فقال : وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر بنفسه ».

واعلم بأن الله تعالى يحب التوابين ، قال سبحانه : ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ .

فالتائب من ذنوبه يحبه الله تعالى ويفرح بتوبته .

روى الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت

---

(١) رواه ابن ماجه والترمذي وقال : حديث حسن .

رسول الله ﷺ يقول : لَلَّهُ أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دويَّة مهلكة ـ أي : فلاة واسعة ـ معه راحلته ، عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام ـ أي : ليستريح من طول السفر ـ فاستيقظ وقد ذهبت راحلته ـ أي : وعليها طعامه وشرابه ـ فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش ، أو ما شاء الله قال : أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت ـ أي : لأنه يئس من الحياة بسبب فقدان الطعام والشراب ـ فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه » .

وفي رواية لمسلم ، فقال الرجل من شدة الفرح : « اللهم أنت عبدي وأنا ربك ـ أخطأ من شدة الفرح » .

قال ﷺ : « فالله أشدُّ فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته » .

وروى ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لله أفرحُ بتوبة عبده من العقيم الوالد ، ومن الضالّ الواجد ، ومن الظمآن الوارد » .

الشفاعة المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم

في المذنبين من أمته

روى الشيخان وغيرهما عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « كلُّ نبيٍّ سأل سؤالاً — أو قال : لكل نبيٍّ دعوة قد دعاها لأمته ، وإني اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمتي » .

وفي رواية : « فهي نائلة إن شاء الله مَنْ مات لا يشرك بالله شيئاً » .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » رواه أبو داود والطبراني والبزار وغيرهم .

وستأتي أحاديث الشفاعة مفصَّلةً فارجع إليها ، وذكرتُ هناك شفاعة العلماء ، والأولياء ، والقراء ، والصلحاء ، مع أدلتها — والحمد لله رب العالمين .

بشائر طيِّبة يفرح بها المؤمنون

أول ما يقول الله تعالى للمؤمنين يوم القيامة تطميناً لهم :

روى الإمام أحمد في (مسنده) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن شئتم أنبأتكم ما أول ما يقول الله عزَّ وجلَّ للمؤمنين يوم القيامة وما أول ما يقولون له ؟» .

قلنا : نعم يا رسول الله ؟

قال : « إن الله عزَّ وجلَّ يقول للمؤمنين يوم القيامة : هل أحببتم لقائي ؟ فيقولون : نعم ، فيقول الله تعالى : لِمَ ؟ فيقولون : رجونا عفوك ومغفرتك ، فيقول : قد وجبت لكم مغفرتي » .

ستر الله تعالى على المؤمن ذنوبه وإدخاله تحت كنفه :

روى البخاري وغيره عن صفوان بن محرز أن رجلاً سأل ابن عمر رضي الله عنهما : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى — أي : مناجاة الله تعالى عبده المؤمن يوم القيامة ؟

فقال : سمعت النبي ﷺ يقول : « يُدنى المؤمن — أي : يقرب المؤمن — من ربه يوم القيامة » .

وفي رواية : « يدنو المؤمن » .

وفي رواية : « يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه — أي : ستره — عليه ، فيقول : عملتَ كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، ويقول : عملتَ كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، فيقرِّره ثم يقول له سبحانه : إني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم » .

وفي رواية : « فيلتفت العبد يمنةً ويسرة فيقول سبحانه : لا بأس عليك إنك في ستري ، لا يطلع على ذنوبك غيري » .

وفي رواية : « حتى إذا قرَّره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال الله تعالى : قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم » .

قال ﷺ : « وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين » .

ورواه الطبراني وأبو الشيخ من وجه آخر عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يأتي الله بالمؤمن يوم القيامة فيقرّبه منه حتى يجعله في حجابه من جميع الخلق ، فيعرفه ذنباً ذنباً ، فيقول تعالى : أتعرف أتعرف ؟

فيقول العبد : نعم نعم – فيلتفت العبد يمنة ويسرة .

فيقول له الربّ تعالى : لا بأس عليك يا عبدي ، أنت كنت في ستري من جميع خلقي ، وليس بيني وبينك اليوم من يطلع على ذنوبك غيري ، اذهب فقد غفرتها لك بحرف واحد من جميع ما أتيتني به .

فيقول : يا رب ما هو ؟

فيقول سبحانه : كنت لا ترجو العفو من أحدٍ غيري فهانت عليَّ ذنوبك » .

واعلم أن من أعظم أسباب ستر الله تعالى على عبده – هو أن يستر العبد على عباد الله تعالى زلاتهم العملية ، وهفواتهم القولية ، وسائر ذنوبهم وعيوبهم :

روى الإمام مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« من فرَّج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرَّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة .

ومن يسَّر على معسر يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة .

ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة .
والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » الحديث .

وعن مكحول أن عقبة بن عامر أتى مسلمة بن مخلد رضي الله عنهما فقال له : (إني لم آتك زائراً ولكن جئتك لحاجة ، أتذكر يوم قال رسول الله ﷺ : « من علم من أخيه سيئةً فسترها ستر الله عليه يوم القيامة؟» .
فقال : نعم ، فقال عقبة : لهذا جئت)[١].

وفي رواية للطبراني في (الأوسط): قال مسلمة بن مخلد : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من ستر على مؤمن عورة فكأنما أحيا موؤدة » .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ ستر عورةً فكأنما استحيا — أي : أحيا — موؤدة في قبرها »[٢].

فمن أراد أن يستر الله تعالى عليه فعليه أن يستر على عباد الله تعالى ، ومن كشف ستر عبد مؤمن كشف الله تعالى عنه الستر عياذاً بالله تعالى .

روى ابن ماجه بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « من ستر عورة أخيه ستر الله تعالى عورته يوم القيامة ، ومن كشف عورة أخيه المسلم كشف الله تعالى عورته حتى يفضحه بها في بيته » .

فإياك أيها المسلم أن تغتاب المسلمين ، وأن تتبع عوراتهم ، وزلّاتهم

---

(١) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح .
(٢) قال المنذري : رواه أبو داود والنسائي وابن حبان في (صحيحه) والحاكم .

لتشيع وتذيع فيها فإن الله تعالى يهتك سترك .

روى أبو داود وغيره عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ — وفي رواية : وهو على المنبر — « يا معشر من آمن بلسانه و لم يدخل الإيمان في قلبه : لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم — أي : زلاتهم وسيئاتهم — فإنه من تتبَّع عوراتهم تتبَّع الله عورته ، ومن تتبَّع الله عورته يفضحه في بيته » .

فالمؤمن الصادق يستر وينصح ، والمنافق الكاذب يُشيع الزلات ، ويفضح .

اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا .

استغفار الأنبياء والملائكة والصالحين للمؤمنين :

الإيمان نعمة من الله تعالى كبرى ، ومنَّة عظمى ، فمن أعطيه — فقد نال الشرف الأكبر ، والخير الأوفر ، قال تعالى : ﴿ ولكن الله حبَّب إليكم الإيمان وزيَّنه في قلوبكم ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ بل اللهُ يمنُّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين ﴾ .

فمن اتصف بالإيمان وتحقق به فتحت له خزائن الرحمات ، وأبواب الخيرات والبركات ، ونال حظه من الدعوات المستجابات .

ومن جملة الدعوات التي تناله دعوات الأنبياء صلوات الله تعالى على نبينا وعليهم أجمعين ، حيث إنهم دعوا الله تعالى بالمغفرة للمؤمنين والمؤمنات .

قال الله تعالى مخبراً عن سيدنا نوح عليه السلام : ﴿ ربّ اغفر لي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تباراً ﴾ .

وقال تعالى مخبراً عن سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام : ﴿ ربنا اغفر لي ولوالديَّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ .

وروى أن إسماعيل عليه السلام لما فدِيَ من الذبح دعا بدعوات فيها :

« اللهم اغفر لكل مَن وحَّدكَ ، ومَنْ أصابته محنة فتذكر محنتي ففرِّج عنه .

وقال : يا ربّ حاجتي إليك أن تغفر لكل مؤمن ومؤمنة بذكرك ، فإني أسألك كما برَّدتَ النار علي خليلك إبراهيم ، وأنجيتني من الذبح ، كذلك خلِّص المؤمنين من النار ».

وقد أمر الله تعالى السيد الأكرم ، والرسول الأعظم ﷺ بذلك فقال له : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ الآية .

ومِنْ ثَمَّ جاء في الحديث الحسن عن ابن مسعود وغيره أن النبي ﷺ قال : « حياتي خير لكم تحدثون ويُحَدث لكم » ـ أي : تحدثون أعمالاً ويحدث لكم أحكامها بإنزال الوحي في بيان حلالها وحرامها .

قال ﷺ : « فإذا متُّ كانت وفاتي خيراً لكم ، تعرض عليَّ أعمالكم فإن رأيت خيراً حمدتُ الله تعالى ، وإن رأيت شراً استغفرت لكم » صلى الله عليه وآله وسلم .

كما أن حملة العرش ومن حوله يستغفرون للذين آمنوا قال تعالى : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبِّحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ الآيات .

كما أن المؤمنين أمروا أن يستغفروا لبعضهم قال تعالى : ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴾ الآية .

إظلال الله تعالى المتحابين في الله تعالى بظله يوم لا ظِلّ إلا ظلُّه

قال الله تعالى : ﴿ الأخلَّاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدوٌّ إلا المتقين ﴾ .

جاء في (الصحيحين) وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظل إلا ظله » الحديث كما تقدم وفيه : « ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه » .

وروى الإمام أحمد بإسناد جيد عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله عزَّ وجلَّ : المتحابُّون بجلالي في ظل عرشي يوم لا ظلَّ إلا ظلِّي » .

وروى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : يأثر عن ربه تبارك وتعالى يقول : حقت محبتي للمتحابين فيَّ ، وحقت محبتي للمتواصلين فيَّ ، وحقت محبتي للمتزاورين فيَّ ، وحقت محبتي للمتباذلين فيَّ » .

وفي رواية عمرو بن عبسة : « قد حقت محبتي للمتصادقين من أجلي » .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إن لله جلساء يوم القيامة عن يمين العرش على منابر من نور ، وجوههم من نور ، ليسوا بأنبياء ولا شهداء ولا صديقين » .

قيل : يا رسول الله : مَنْ هم ؟

قال : « هم المتحابُّون بجلال الله تبارك وتعالى ، المتحابون بجلال الله تبارك وتعالى »[1].

وأشدُّ المتحابين حباً أحبهما إلى الله تعالى :

فعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما تحابَّ رجلان في الله تعالى إلا كان أحبهما إلى الله عز وجل أشدّهما حباً لصاحبه »[2].

وروى الترمذي وحسنه وابن خزيمة وابن حبان في (صحيحهما) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره » .

---

(١) رواه أحمد بإسناد لا بأس به .

(٢) قال المنذري : رواه الطبراني وأبو يعلى ورواته رواة الصحيح إلا مبارك بن فضالة ، ورواه ابن حبان في (صحيحه) والحاكم . اهـ .

محبة المؤمن لكل مؤمن بالله تعالى
دليل ولايته وقربه
وبغضه للمؤمنين دليل نفاقه
وبعده عن الله تعالى

قال الله تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾ .

فقد وصف الله تعالى المؤمنين الكاملين بأن بعضهم أولياء بعض — أي : بينهم ولاء ومحبة ، ومناصحة ومناصرة على الحق ، وبيّن أن هذا الولاء هو مقتضى إيمانهم ، فقضيتهم في ذلك قضية أوجبها الإيمان ، وليست هي من باب الامتنان .

روى الإمام أحمد في (مسنده) عن عمرو بن الجموح رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يبلغ العبد حق صريح الإيمان حتى يحب لله ، ويبغض لله ، فإذا أحب لله وأبغض لله ، فقد استحق الولاء من الله وإن أوليائي من عبادي ، وأحبائي من خلقي ؛ الذين يذكرون بذكري وأذكر بذكرهم » .

فالإيمان الصريح — أي : الكامل الخالص — يوجب على صاحبه أن يحب كل مؤمن لأجل الله تعالى — أي : لأنه مؤمن بالله ومحب لله

تعالى – فإذا أحببته فقد أحببته لأجل الله ، وبذلك تكون صادقاً في دعواك محبة الله تعالى ، وأن تبغض من يبغضه الله تعالى لا بغضاً نفسياً ؛ أو لأجل دنيا ؛ بل لأجل الله تعالى – أي : لأن الله تعالى يبغضه .

روى أبو داود عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أحبَّ لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » .

فلا يكمل الإيمان إلا بذلك .

وإذا أحبَّ المؤمن المؤمنين لأجل الله تعالى أحبَّ لهم من الخير ما يحبه لنفسه :

روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

وزاد النسائي في رواية : « من الخير » .

وروى الإمام أحمد عن معاذ بن أنس رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن أفضل الإيمان .

فقال : « أن تحب لله وتبغض لله ، وتُعمل لسانك في ذكر الله » .

قال : وماذا يا رسول الله ؟

قال : « وأن تحب للناس ما تحب لنفسك ، وتكره لهم ما تكره لنفسك » .

ومن لم يتحقق بمقام الحب لأجل الله تعالى ، والبغض لأجل الله تعالى ، فإنه لا يجد حلاوة الإيمان ولا طعمه .

روى الشيخان وغيرهما عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان :

من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

ومن أحبَّ عبداً لا يحبه إلا لله .

ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار » .

وفي رواية : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان وطعمه :

أن يكون الله ورسوله أحب إليه من سواهما .

وأن يحب في الله ويبغض في الله .

وأن توقد نار عظيمة فيقع فيها أحب إليه من أن يشرك بالله شيئاً » .

وروى الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من الإيمان أن يحب الرجل رجلاً لا يحبه إلا لله من غير مال أعطاه ــ فذلك الإيمان » .

التنزلات الربانية والتجليات الإلٓهية

والاطلاعات الرحمانية والنفحات الإلٓهية

والنظرات الرضوانية لا تنقطع أبداً

إعلم ـ علمنا الله وإياك ما ينفعنا في الدنيا والآخرة ـ أن لله تعالى تنزلات وتجليات ، واطلاعات ونفحات ، ونظرات ، لا تنقطع فاحرص عليها وفز بها فإن لكل واحدة منها آثارها وأسرارها وأنوارها ، في أوقاتها التي ورد بيانها عن النبي ﷺ معلم الخير جزاه الله تعالى عنا كلَّ خير ، ولذلك ينبغي لمن يبتغي القرب أو الأقربية من حضرة الربوبية ، أن يكون حريصاً كل الحرص على الظفر بها ، والفوز بأنوارها وأسرارها ، وفيوضاتها وفتوحاتها ، وخيراتها وبركاتها ، متحيِّناً أوقاتها ، فإن المؤمن الصادق هو ابن وقته ، يعطي كلَّ وقتٍ ما يتطلبه ذلك الوقت شرعاً .

وقد بيَّن لنا ذلك صاحب البيان عن الله تعالى الذي قال الله تعالى له : ﴿ لتبيّن للناس ما نُزِّل إليهم ﴾ وعلّمنا المعلم الأول ﷺ الذي تولى الله تعالى تعليمه حيث قال : ﴿ وعلّمك ما لم تكن تعلم ﴾ فإنه علّمنا ذلك كله حيث قال الله تعالى فيه : ﴿ ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ .

فبيَّن ﷺ آثار التجليات ، والاطلاعات ، والتنزلات ، والنفحات ، والنظرات ، ليتسارع أولوا الألباب إليها ، وليتنافسوا عليها ، فإن الصفيَّ

الصوفيَّ هو ابن وقته ، يعطي كل وقت ما يتطلبه ، فالأوقات تتحكم فيه ، وهو محكوم فيها وليس حاكم عليها .

التنزلات الربانية :

قال الله تعالى : ﴿ الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴾ .

فبيَّن سبحانه مقامات المقربين على طريق الترقي ، وختم ذلك بقوله تعالى : ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ وهم الذين راحوا يسألون الله تعالى المغفرة وقت السحر ، لأن المغفرة هي أهمُّ مطالبهم ، لأنها أحوج ما يكون العبد إليها .

فهم مواظبون على الاستغفار بالأسحار ، ألصقوا بها استغفارهم — ولذا جاء النص بالباء ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ لمواظبتهم ، والتصاق استغفارهم بالأسحار ، اهتماماً بنيل المغفرة — ومن باب أولى يدعون الله تعالى في بقية مهماتهم وحاجاتهم في الدنيا والآخرة .

أي : فهم يدعون الله تعالى بالأسحار ، وأهم دعائهم الاستغفار ، وإنما خَصُّوا الأسحار بذلك لأنها أوقات تنزلات رب العزة ، وفتحه أبواب العطاء والجود ، والغفران والرحمة .

روى الشيخان وغيرهما واللفظ للبخاري : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يتنزَّل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ، يقول : مَنْ يدعوني فأستجيب له ؟ مَنْ يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟» .

وفي رواية لمسلم : « من يقرض غير عديم ولا ظلوم ؟ حتى يطلع الفجر » .

وفي رواية لغيرهما : « هل من تائب فأتوب عليه ، من ذا الذي يسترزقني فأرزقه ، مَنْ ذا الذي يستكشف الضرَّ فأكشف عنه ، ألا سقيم يستشفي فيشفى » .

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع الوضوء ، ولأخّرت العشاء إلى ثلث الليل – أو نصف الليل – فإذا مضى ثلث الليل أو نصف الليل – نزل إلى السماء الدنيا جلَّ وعزَّ فقال : هل من سائل فأعطيه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من داع فأجيبه ؟ حتى يطلع الفجر ».

وروى الإمام أحمد أيضاً عن رفاعة الجهني قال : أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بالكديد – أو قال : بقليد – جعل رجال منا يستأذنون إلى أهليهم فيؤذن لهم .

قال : « فحمد الله وأثنى عليه وقال خيراً ثم قال ﷺ : أشهد عند الله : لا يموت عبدٌ شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صادقاً من قلبه ثم يسدد إلا سُلك في الجنة » .

ثم قال ﷺ : « وعدني ربي عزَّ وجلَّ أن يدخل من أمتي سبعين ألفاً بغير حساب ، وإني لأرجو ألا يدخلوها حتى تبوؤوا أنتم ومن صلح من أزواجكم وذراريكم مساكن في الجنة » .

وقال ﷺ : « إذا مضى نصف الليل أو ثلث الليل ينزل الله عزَّ وجلَّ

إلى السماء الدنيا فيقول : لا أسأل عن عبادي أحداً غيري ــ مَنْ ذا الذي يستغفرني فأغفر له ؟ مَنْ ذا الذي يدعوني فأستجيب له ؟ مَنْ ذا الذي يسألني فأعطيه ؟ حتى ينفجر الصبح » .

وروى الترمذي والنسائي واللفظ له عن عمرو بن عينية السلمي رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله : هل من ساعة أقرب إلى الله عزَّ وجلَّ من أخرى ــ أو هل من ساعة يبتغى ذكرها ؟؟

فقال ﷺ : « نعمْ إن أقرب ما يكون الربُّ من العبد جوف الليل الآخر ــ أي الثلث الأخير ــ فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله عزَّ وجلَّ في تلك الساعة فكن » .

والمعنى : فكن حريصاً كل الحرص وابذل مستطاعك في أن تكون ــ أي : في السحر ــ ممن يذكر الله تعالى : بصلاة ؛ وقرآن ؛ ودعاء ؛ واستغفار ، لأنها ساعة قرب وإجابة ، يطوي فيها العبد مراحل في السير ، وينال فيها مراتب في القرب ، لا يحظى بها غيره .

وذلك لأن الربَّ جلَّ وعلا يتقرب بالقبول والعطاء ، والعبد يتقرب بالأعمال والطاعات ــ فلا بدَّ إذاً من الوصال والنوال .

فإن أقرب ما يكون الربّ من العبد في جوف الليل الآخر ، وإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد كما ورد ذلك عن النبي ﷺ . فافهم والزم .

روى الحافظ أبو نصر المروزي في (قيام الليل) بإسناده عن فضالة ابن عبيد عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إن الله تعالى ينزل في ثلاث ساعات يبقين من الليل .

يفتح الذكر في الساعة الأولى منها ــ وهو الذكر أي : الكتاب الذي كتب فيه كل شيء ــ يرى الذكر الذي لم يره أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء .

ثم ينزل في الساعة الثانية إلى جنة عدن التي لم تَرها عين ، ولم تسمع بها أذن ، ولم تخطر على قلب بشر ثم يقول : طوبى لمن دخلك ــ اللهم اجعلنا منهم برحمتك يا أرحم الراحمين ــ .

ثم ينزل في الساعة الثالثة إلى السماء الدنيا فتتنقض ، فيقول : قومي بعزتي ، ثم يطّلع إلى عباده فيقول : هل من مستغفر أغفر له ؟ وهل من داع أجيبه ؟ حتى تكون صلاة الفجر ــ فلذلك يقول تعالى : ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ .

فيشهده الله وملائكة الليل وملائكة النهار »[1].

ونقل الإمام المروزي عن الجريري رحمه الله تعالى أنه قال : قال داود عليه السلام : « يا جبريل أيّ الليل أفضل ؟

قال : ما أدري غير أن العرش يهتز وقت السحر » أي : لعظمة التجلي يهتز طرباً .

ومن أجل ذلك ندب الله تعالى عباده إلى الاستغفار في الأسحار ، لينالوا مغفرة الغفار ، فإن أحوج ما يكون العبد إليه هو غفران ذنوبه .

اللهم اغفر لنا ذنوبنا ما علمنا منها وما لم نعلم ــ اللهم آمين .

قال تعالى : ﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ وقال تعالى : ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ .

---

(١) انظر مختصر قيام الليل للمقريزي

وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يخرج من ناحية داره مستخفياً وقت السحر ويقول : (اللهم إنك دعوتني فأجبتك ، وأمرتني فأطعتك ، وهذا السحر فاغفر لي) .

فقيل له في ذلك — فقال : (إن يعقوب حين سوّف بنيه — أي : وعدهم بأن يستغفر لهم وقال : ﴿ سوف أستغفر لكم ربي ﴾— أخرهم إلى السحر) .

وقال نافع : كان ابن عمر رضي الله عنهما يحيي الليل صلاة ثم يقول : يا نافع أسحرنا ؟— أي : دخلنا في السحر .

فأقول : لا — فيعاود الصلاة ، فإذا قلت : نعم — قعد يستغفر الله تعالى حتى الفجر .

التجلّيات الإلٓهية :

التجلي هو الظهور ، والتجليات الإلٓهية على أنواع : ذاتية وصفاتية وصُورية ، وتفاصيلها وبيانها يأتي في موضعه إن شاء الله تعالى حين التكلم على عالم الجنة .

والذي أريده الآن بيان نوع من التجلي الصفاتي ، وذلك أن الله تعالى قد يتجلى على عباده بالجلال أو الجمال ، أو صفات الرحمة والبسط والإحسان والرضوان ، والأسرار والأنوار ، وقد يتجلى بصفات القهر أو القبض — وكلها مصحوبة بالهيبة والعظمة والكبرياء والعزة ، ولذلك من شأن التجلي إذا حصل أن يخشع المتجلى عليه ، وتعتريه الخشية والمهابة ، ولو كان التجلي بالجمال فإن لقوة الجمال هيبة تسيطر على المتجلى عليه ، فإن الله تعالى إذا تجلى لشيء خشع له ذلك الشيء .

روى الإمام أحمد في (مسنده) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : انكسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ ، فخرج فكان يصلي ركعتين ويسأل ، ويصلي ركعتين ويسأل – أي : يدعو الله تعالى – حتى انجلت ، فقال : « إن رجالاً يزعمون أن الشمس والقمر إذا انكسف واحد منهما فإنما ينكسف لموت عظيم من العظماء ، وليس كذلك ، ولكنهما خلقان من خلق الله تعالى عزَّ وجلَّ ، فإذا تجلى الله عزَّ وجلَّ لشيءٍ من خلقه خشع له » .

وروى النسائي عن ابن مخارق رضي الله عنه قال : إن الشمس انخسفت فصلَّى النبي ﷺ ركعتين حتى انجلت ثم قال : « إن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد ولكنهما خلقان من خلقه ، وإن الله عزَّ وجلَّ يحدث في خلقه ما شاء ، وإن الله عزَّ وجلَّ إذا تجلى لشيء من خلقه خشع له ، فأيّهما حدث فصلُّوا حتى ينجلي ، أو يحدث الله تعالى أمراً » .

وإن أعظم التجليات هيبة ، وأشد ها تأثيراً على المتجلّى عليه ، هي التجليات الذاتية ، وهي على مراتب ونسب ومقادير حسب المتجلى عليه ، وقد ذكر الله تعالى لنا حال موسى عليه السلام وحال الجبل حين تجلّى سبحانه له ، وكان ذلك بنسبة مقدرة من التجلي – قال تعالى : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربه قال : ربّ أرني أنظر إليك قال : لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكّاً وخرَّ موسى صعقاً . فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ .

فكان تجلّي رب العزة للجبل ليراه موسى الكليم – كان ذلك التجلي على نسبة محدودة مقدرة .

كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وأحمد والبيهقي وغيرهم من طريق أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ : « قرأ هذه الآية : ﴿ فلما تجلى ربه للجبل ...﴾ قال : هكذا وأشار ﷺ بأصبعيه ، ووضع طرف إبهامه على أنملة الخنصر فساخ الجبل » .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : (ما تجلى سبحانه للجبل إلا على قدر الخنصر فجعله تراباً) .

فهذا القدر من التجلي لم يتحمل الجبل بل دكَّ وذهبت جبليته ، وساخ وصار هو والأرض سواءً ، وخرَّ موسى صعقاً ـ أي : مغشياً عليه صاعقاً وصائحاً ومنه الصعقة ـ.

فهي صعقة خشية ، لأنه لم يتحمل ، بدليل ﴿ فلما أفاق قال : سبحانك ﴾ وليست هي صعقة الموت ، ومن هنا تعلم الفرق الكبير بين تجلي رب العزة لرؤية موسى الكليم ، وتجلي رب العزة عند سدرة المنتهى لرؤية سيدنا محمد ﷺ ، فأين التجلي للجبل من التجلي لعالم السدرة المحيطة بالسماوات السبع ؟ قال تعالى : ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ أي : لقد غشيتها أنوار رب العالمين حين تجلى ليراه الحبيب الأكرم ﷺ عندها .

كما تعلم الفرق الكبير بين قوتي الكليم والحبيب ، وتحملهما للرؤية .

فالكليم عليه السلام كما أخبر الله تعالى عنه : ﴿ وخرَّ موسى صعقاً ﴾ .

وأما الحبيب ﷺ فقال الله تعالى فيه : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ .

فرؤية الله عزَّ وجل يقظة بالعيان البصري لم تقع في هذه الدار إلا لسيدنا محمد حبيب الله الأكرم ﷺ ليلة المعراج ، عند سدرة المنتهى ، خصوصية له .

وقد روى مسلم وغيره أن النبي ﷺ قال : « واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه — أي : بعيني بصره في الدنيا — حتى يموت » .

وإنما تشاهده القلوب ، ويُرى بالبصائر القلبية ، لمن كان أهلاً لذلك .

وإن الله تعالى يتجلَّى للمصلين في قبلتهم ، ولذلك أمرهم أن يقابلوا ذلك التجلِّي بالتحلِّي — أي : بالتحلِّي بالصلاة والعبادة لله تعالى ، وأن يتوجهوا إليه سبحانه ولا يلتفتوا :

روى أصحاب السنن وأحمد وغيرهم عن أبي الأحوص رضي الله عنه عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يزال الله مقبلاً على العبد في صلاته ما لم يلتفت ، فإذا حرف وجهه انصرف عنه »[1].

وروى البزار عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إذا قام الرجل في الصلاة أقبل الله عليه بوجهه ، فإذا التفت قال : يا ابن آدم : إلى مَنْ تلتفت ؟ إلى مَنْ هو خير لك مني ، أقبلْ إليَّ ، فإذا التفت الثانية قال مثل ذلك ، فإذا التفت الثالثة صرف الله تبارك وتعالى وجهه عنه » .

وروى أبو داود وغيره عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « إن أحدكم إذا قام يصلي فإن الله تعالى قِبل وجهه ، فلا يبصقنّ قبل وجهه ، ولا عن يمينه ، وليبصق عن يساره تحت رجله اليسرى » الحديث .

---

(١) انظر (ترهيب) المنذري .

وإن الله تعالى يتجلَّى على الحُجاج يوم عرفة فيغفر لهم ، ويباهي بهم الملائكة عليهم السلام ...

فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبيداً من النار من يوم عرفة ، وإنه ليدنو – يتجلى – ثم يباهي بهم الملائكة فيقول : ما أراد هؤلاء ؟ »[1].

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول : « إن الله عزَّ وجلَّ يباهي ملائكته عشية عرفة بأهل عرفة ، فيقول : انظروا إلى عبادي شعثاً غُبْراً » رواه أحمد وغيره .

وزاد البيهقي في رواية له : « فيقول الله تعالى للملائكة : أشهدكم أني قد غفرت لهم .

فتقول الملائكة : إن فيهم فلاناً مرهقاً – أي : كثير المحارم والمفاسد –.

فيقول الله تعالى : قد غفرت لهم » الحديث .

الاطِّلاعات الرحمانية :

إن لله تعالى إطلاعات عامة على جميع خلقه في جميع الأوقات ، ولله تعالى إطلاعات خاصة في أوقات خاصة ، يكرم بها من يشاء من عباده بالغفران والرحمة الخاصة ، والإحسان والإكرام الخاص .

(١) قال المنذري : رواه مسلم والنسائي وابن ماجه وزاد رزين في جامعه : « اشهدوا يا ملائكتي أني قد غفرت لهم » .

فمن ذلك إطلاعه سبحانه ليلة النصف من شعبان :

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « يطَّلع الله عزَّ وجلَّ إلى خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لعباده إلا اثنين : مشاحن وقاتل نفس » .

وعند الطبراني وابن حبان في (صحيحه) عن معاذ رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يطلع الله تعالى إلى جميع خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن » أي : بينه وبين أخيه المسلم شحناء وبغضاء .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (قام رسول الله ﷺ في الليل فصلَّى وأطال السجود حتى ظننت أنه قد قبض ، وسمعته يقول في سجوده :

« أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

فلما رفع رأسه ﷺ من السجود وفرغ من صلاته .

قال يا عائشة – أو قال يا حميراء : « أتدرين أيّ ليلة هذه ؟».

قلت : الله ورسوله أعلم .

قال ﷺ : « هذه ليلة النصف من شعبان ، إن الله عزَّ وجلَّ يطلع على عباده في ليلة النصف من شعبان ؛ فيغفر للمستغفرين ، ويرحم المسترحمين ، ويؤخر أهل الحقد كما هم ») أي : لا يغفر لهم ، رواه البيهقي .

فسخيمة الصدر وهي : الحقد وحمل الغلّ على المؤمنين يحرم صاحبه المغفرة والرّحمة ، ويمنعه عن رتبة الولاية .

وسلامة الصدر وسماحة النفس تفتح أبواب الخير والولاية .

ومن ذلك إطلاعه سبحانه على أهل بدر رضي الله عنهم وبشارتهم بالمغفرة عامة :

روى الإمام أحمد وابن أبي شيبة وأبو داود وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

وفي رواية للطبراني : « اعملوا ما شئتم فإني غافر لكم » أي : ما مضى وما يأتي .

وفي رواية المغازي لابن عائذ : « اعملوا ما شئتم فسأغفر لكم » .

وعند البخاري : « لعلَّ الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » الحديث وفيه قصة .

قال العلامة الزرقاني : وقد قال العلماء : الترجي في كلام الله تعالى وكلام الرسول ﷺ للوقوع . اهـ أي : مُحقق الوقوع .

ومن ذلك اطلاعه سبحانه على الشهداء في البرزخ :

روى مسلم عن مسروق قال : سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية : ﴿ ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ الآيات .

فقال : إنا سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ .

فقال : « أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش ،

تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل ؛ فاطّلع عليهم ربهم اطلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟

فقالوا : أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا — ففعل ذلك بهم ثلاث مرات .

فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أن يسألوا — أي : لا بد من أن يسألوه ويطلبوا منه سبحانه — قالوا : يا ربِّ نريد أن تردَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى .

فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا » .

وفي رواية عبد الرزاق عن أبي عبيدة عن ابن مسعود أنهم قالوا في الثالثة : « تقرىء نبينا السلام وتبلغه أنا قد رضينا ورُضي عنا » .

النظرات الرحمانية :

إن لله تعالى نظرات عامة مستمرة ، وله نظرات خاصة في أوقات خاصة ، فيها الإكرام والرحمة والغفران .

فتلك النظرات الخاصة ينبغي للمسلم أن يتحينها في أوقاتها ، ويحرص عليها ، فإنه من نظر الله تعالى فيها إليه لم يعذبه أبداً .

روى البيهقي وغيره عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« أُعطيت أمتي في شهر رمضان خمساً لم تعطهنَّ أمة مثلهم :

أما واحدة فإنه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان نظر الله عزَّ وجلَّ إليهم ، ومن نظر الله تعالى إليه لم يعذبه أبداً .

أما الثانية : فإن خلوف أفواههم ــ أي : رائحة أفواههم ــ حين يمسون أطيب عند الله من ريح المسك .

وأما الثالثة : فإن الملائكة تستغفر لهم في كل يوم وليلة .

وأما الرابعة : فإن الله عزَّ وجلَّ يأمر جنته فيقول لها : استعدّي وتزيّني لعبادي أوشك أن يستريحوا من تعب الدنيا إلى داري وكرامتي .

وأما الخامسة : فإنه إذا كان آخر ليلة غفر الله لهم جميعاً » .

فقال رجل من القوم : أهي ليلة القدر ؟

فقال ﷺ : « لا ؛ ألم تر إلى العمّال يعملون فإذا فرغوا من أعمالهم وُفّوا أجورهم » .

وروى الأصفهاني عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان أول ليلة من شهر رمضان نظر الله تعالى إلى خلقه ــ أي : المسلمين ــ وإذا نظر الله إلى عبدٍ لم يعذبه أبداً » .

فلله تعالى نظرات رضوانية خاصَّة بعباده المؤمنين ، يخصُّ بها من شاء ليكرمهم بغفرانه ، ويتحفهم بإحسانه ورضوانه ، لأن للنظر أثراً في المنظور إليه ونوراً يفيضه عليه .

روى النسائي عن يعقوب بن عاصم رضي الله عنه عن رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنهما سمعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « ما قال عبدٌ قطٌّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير ــ مخلصاً بها روحه ؛ مصدقاً بها قلبه ؛ ناطقاً بها لسانه ؛ إلّا فتق الله عزَّ وجلَّ له السماء

فتقاً حتى ينظر إلى قائلها من الأرض ، وحقٌّ لعبد نظر الله تعالى إليه أن يعطيه سُؤله » كما في (ترغيب) المنذري .

ومن أوقات النظرات الرحمانية : منتصف النهار حين تزول الشمس عن كبد السماء :

روى البزار عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يستحب أن يصلي بعد نصف النهار – أي : بعد الزوال أول وقت الظهر –.

فقالت عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله : إني أراك تستحب الصلاة في هذه الساعة – أي : تستحب أن تصلي أربعة نافلة ؟.

فقال ﷺ : « تفتح فيها أبواب السماء ، وينظر الله تبارك وتعالى بالرحمة إلى خلقه ، وهي صلاة كان يحافظ عليها آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيس صلوات الله تعالى عليهم » .

وروى الترمذي عن عمر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أربع قبل الظهر وبعد الزوال تحسب بمثلهنَّ في السحر – أي : يعادل ثوابها بالمتهجِّد كما في حديث آخر – وما من شيءٍ إلا وهو يسبِّح الله تعالى في تلك الساعة ثم قرأ : ﴿ يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجّداً لله وهم داخرون ﴾ ».

ولله تعالى نظرات رحمانية رضوانية إحسانية في الليل والنهار ، فَيَمنُّ على عباده المؤمنين بما يشاء ، ويكرم بذلك من يشاء ، ويوم الجمعة فيه زيادة فضل .

روى البيهقي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« لله في كل جمعة ــ أي : في كل يوم جمعة ــ ستمائة ألـف عتيـق مـن النار » .

وفي رواية أبي يعلى عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « إن يوم الجمعة وليلة الجمعة أربعة وعشرون ساعة ، ليس فيها ساعة إلا ولله تعالى فيها ستمائة ألف عتيق من النار »[1].

وروى البيهقي في (الشعب) بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ذاكر الله تعالى في الغافلين كالمقاتل خلف الفارِّين ، وذاكر الله تعالى في الغافلين كـغصن أخضر في شجـر يابس » .

قال البيهقي وفي رواية : « وذاكر الله تعالى في الغافلين ينظر الله تعالى إليه نظرةً لا يعذِّبه بعدها أبداً ، وذاكر الله تعالى في السوق له بكل شعرة نور يوم القيامة »[2].



(١) انظر (ترغيب) المنذري .

(٢) انظر (ترغيب) الحافظ المنذري .

النفحات الربانية والصدقات والمنن الإلٓهية

روى الطبراني وغيره عن محمد بن مسلم رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لربكم في أيام دهركم نفحات ، فتعرضوا لها ، لعله أن يصيبكم نفحة منها فلا تشقون بعدها أبداً » .

والنفحات : جمع : نفحة ، وهي مأخوذة من : نفح الطيب إذا فاح ريحه .

فنفحة الطيب تنعش القلب الجسماني وتنشطه ، وأما نفحة الرب فتحيي القلب الروحاني وتعلو به .

والنفحات الربانية هي من باب خزائن المنن والجود والكرم ، تقطع بمن ظفر بها مسافات شاسعات في أقل من اللحظات ، وقد أمرنا ﷺ أن نتعرض لها ، وذلك بتطهير النفس ، وتوجيه القلب إلى حضرة الرب سبحانه على مدى الأوقات ، لعل نفحة ربانية تصيبنا فنسعد سعادةً لا شقاء بعدها ــ اللهم آمين .

روى البزار وبقي بن مخلد من حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « ما من يوم ولا ليلة ، ولا ساعة ؛ إلَّا لله فيها صدقة ، يمنُّ بها على من يشاء من عباده ، وما منَّ الله تعالى على عبد مثل أن يلهمه ذكره » .

فعلى المسلم العاقل أن يتعرض لنفحات الله تعالى ، وإلى صدقاته سبحانه ومننه .

الشؤونات الإلٓهية

قال الله تعالى : ﴿ يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن ﴾.

روى البيهقي في الشعب والبزار وغيرهما عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ : في قوله تعالى : ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويجيب داعياً ، ويرفع قوماً ويضع آخرين » .

وروى الحافظ عبد الرزاق وابن المنذر والحاكم والبيهقي وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ كل يومٍ هو في شأن ﴾ قال : إن مما خلق الله تعالى لوحاً محفوظاً من درَّةٍ بيضاء ، دفتاه من ياقوتة حمراء ، قلمه نور ، وكتابه نور ، عرضه ما بين السماء والأرض ، ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة ، يخلق في كل نظرة ويرزق ، ويحيي ويميت ، ويعزُّ ويذلُّ ، ويغل ويفك ، ويفعل ما يشاء ـ فذلك قوله تعالى : ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ سبحانه وتعالى .

اللهم إنا نسألك في جملة من يسألك من أهل السماوات والأرض أن تغفر ذنوبنا ، وتفرج كروبنا ، وتنور قلوبنا ، وأن تتولانا بما توليت عبادك الصالحين في قولك : ﴿ وهو يتولى الصالحين ﴾ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً أبداً أبداً أبداً .

وقد حكى العلماء أن العلامة ابن الشجري رحمه الله تعالى كان يوماً يدرِّس ، فوقف عليه رجل وقال له : ما معنى قوله تعالى : ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ فأطرق ابن الشجري و لم يحضره الجواب ، ووعده الجواب في الغد .

ثم ذهب مهتماً فبات تلك الليلة فرأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في النوم ، فقال له ﷺ : « هذا الرجل الذي سألك هو الخضر ، فإذا جاءك الغد فقل : الجواب : هي شؤون يبديها – أي : يظهرها – ولا يبتديها ، يرفع قوماً ويضع آخرين » .

فلما كان الغد ، وجاء الخضر عليه السلام ، فأجابه ابن الشجري عن الآية كما علّمه رسول الله ﷺ في المنام .

فقال له الخضر عليه السلام : صلِّ على مَنْ علَّمك . اهـ.

صلى الله عليه وآله وسلم أبداً أبداً أبداً .

وقد ذكر بعض المحققين من أكابر العارفين رضي الله عنهم ، أن الأيام التي جاء ذكرها في القرآن هي مختلفة المقادير :

فهناك أيام : ذي المعارج قال تعالى : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فاصبر صبراً جميلاً ﴾ .

فيوم من أيام المعارج هو مقداره خمسون ألف سنة مما نعده .

وهناك أيام الربّ : قال تعالى : ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدّون ﴾.

وهناك أيام الدنيا : قال تعالى : « فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ﴾ الآية .

ويوم الدنيا هو ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

وهناك أيام الشؤونات الإلٓهية : قال تعالى : ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ .

واليوم الشأني هو أدق من أن يدخل تحت التقدير ، لأنه أقرب من لمح البصر :

قال تعالى : ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ﴾ أي : بل هو أقرب من لمح البصر ، وهذه الأقربية لا يستطيع المخلوق أن يقف على قدرها وحدِّها — فافهم .

وعد الله تعالى وبشراه للأمة الوارثة المصطفاة

قال الله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها يحلَّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير وقالوا : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذي أحلَّنا دار المقامة من فضله لا يمسُّنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ .

لقد ذكر الله تعالى في تلك الآيات الكريمة فضله على هذه الأمة بالوراثة للكتاب وبالاصطفاء ، ثم ذكر أصنافها الثلاثة ، وبيَّن فضله الكبير عليها ، وذكر بعد ذلك وعده لهذه الأمة المصطفاة وبشراه لها بالجنة فقال : ﴿ جناتُ عدن يدخلونها ﴾ الآيات .

وفي هذا الوعد والبشائر الإلّهية بالجنة ، دليل على أمور ثلاثة ينبغي الانتباه إليها :

الأمر الأول : هو أن الجنة أمرها عظيم ، وشأنها كبير ، ومقامها عند الله تعالى كريم ، ولذا وعدها الله تعالى أحبابه وبشرهم بها ، وجعلها لهم جزاءً .

الأمر الثاني : هو أن الجنة هي محبوبة عند المؤمنين ومرغوبة ، وهي مقصودة لهم ومطلوبة ، ولولا ذلك لما كان وعد الله تعالى لهم بها وبشراهم بها ـ ما كان لذلك أثر لموقع الفرحة والبشرى عندهم ، وحينئذٍ يكون ما بشرهم به ووعدهم الله تعالى غير محبوب لديهم ، وليس هو المطلوب عندهم ، كلّا بل إنما بشرهم بما يحبون ويسرون ، بدليل أنهم حمدوا الله تعالى الذي أحلَّهم دار المقامة من فضله .

تفصيل الكلام على الأمر الأول :

يجب على المؤمن أن يعتقد أن دخول الجنة فوز عظيم ، ومقام كريم ، وأن جنة الله تعالى هي كريمة عليه ، محبوبة لديه ، ولذلك حبَّب فيها أحبابه ومقربيه ، وعظم شأنها ، ومدحها ، ورغب فيها ، ودعا إليها ، وبشر بها عباده المؤمنين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

قال تعالى : ﴿ لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون أعدَّ الله لهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين

اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾ .

أترى أيها العاقل أن الله تعالى يعد لرسوله ﷺ والذين معه جنات ما لها تلك القيمة والكرامة ؟ وما لها ذلك الشأن الكبير والمقدار العظيم ، والفضل الأجمع والمقام الأرفع الكبير ؟؟

كلا ؛ بل كما قال ﷺ : « ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » .

ولما نزلت فواتح سورة الفتح تبشّر النبي ﷺ بالفتح المبين ، وبمغفرة الله تعالى له ما تقدم وما تأخر ، وإتمام النعمة والنصر العزيز — قال أصحاب النبي ﷺ : (هنيئاً لك يا رسول الله ، قد أخبرك الله تعالى بما هو فاعل بك ، فما ندري ما هو فاعل بنا) .

فأنزل الله تعالى آيات يبشِّر المؤمنين والمؤمنات بالجنات :

روى الشيخان والترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : نزل على النبي ﷺ : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ مرجعه من الحديبية .

فقالوا : (هنيئاً لك مريئاً يا رسول الله ، لقد بين الله تعالى لك ماذا يفعل بك ؛ فماذا يفعل بنا ؟

فنزلت : ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ الآية).

فقد بشَّر الله تعالى الصحابة وجميع المؤمنين والمؤمنات على مختلف

درجاتهم ومراتبهم ، في الولاية والقرب بجنات تجري من تحتها الأنهار ﴿ ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً ﴾ .

فختم تلك البشارة بأنها الفوز العظيم ، فكيف يسوغ للعاقل أن يستهين بالجنة ويستخف بها ، وقد عظم الله تعالى الفوز بدخولها ؟ بل الواجب على العاقل أن يسعى إليها محباً لها ومشتاقاً إليها .

ومما يدل على كرامة الجنة وعظيم قدرها عند الله تعالى ، أن الله تعالى اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، فهل يتصور العاقل أن يقدِّم الله تعالى ثمناً قليلاً ، وبدلاً خسيساً ، ويجعل ذلك مقابل أنفس أحبابه المؤمنين وأموالهم — اللهم أنت أجل وأعلى سبحانك — بل هذا يدل على عظيم قدر هذا المقابل ونفاسة قيمته وعلو شأنه :

قال تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

ومن تدبَّر في هذه الآية الكريمة تراءت له وجوه كثيرة من تكريم الله تعالى لعباده المؤمنين ، وتشريفه لهم ، ورفعة شأنهم ، وعلو مقامهم ، وعظيم قدرهم عنده سبحانه .

وسأذكر لك جملة موجزة من تلك الوجوه وأترك البقية إلى موضع آخر إن شاء الله تعالى :

الوجه الأول : إعلان الله تعالى في محكم كتابه ، ليعلم أهل الملأ الأعلى والأدنى بشرائه من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة .

وإقامته سبحانه المؤمنين في منصب العاقدين البائعين أنفسهم وأموالهم لله تعالى ، وفي هذا تشريف لعباده المؤمنين ، ورفعة لمستواهم على غيرهم .

كما شرفهم سبحانه بمعرفته وإشراقات أنواره في قلوبهم ، قال تعالى : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ .

كما شرفهم بالخطابات الإلٓهية التي فيها التكاليف الشرعية ، فناداهم بصفة الإيمان فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ في كثير من الآيات القرآنية .

كما شرفهم بحمل الأمانات والعهود والمواثيق ، قال تعالى : ﴿ والذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾ .

كما شرفهم بالمبايعة له سبحانه بواسطة أحب أحبابه وأفضل خليقته سيدنا محمد ﷺ ، قال تعالى : ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ الآية .

كما شرفهم بعقد الشراء منهم وبيعهم له ، وهنّأهم بذلك فقال : ﴿ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ﴾ .

فانظر يا أخي رعاك الله تعالى ما أكرم المؤمنين على الله تعالى ، فقد اشترى منهم فما عليهم إلا أن يسلموا المبيع لمن اشترى ، وذلك بأن يجعلوا أنفسهم وأموالهم تحت أمر الله تعالى ، فلا يتصرفوا في أنفسهم ، ولا في أموالهم ، إلا بما شرعه لهم وأحبه منهم ـ وذلك بالعمل الصالح ، والكلم الطيب ، والجهاد في سبيله ، والسعي في نفع العباد والبلاد ـ فإن الخلق كلهم عباد الله تعالى ، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله .

وهذا هو معنى الإسلام ـ أي : الاستسلام العامّ إلى الله تعالى كما شرع لهم سبحانه وتعالى .

قال تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ أي : الاستسلام لما أمر الله تعالى من عقائد وأقوال ، وأعمال وأخلاق وآداب .

فالمسلم الكامل هو الذي أسلم نفسه وماله لله تعالى ، يتصرف بهما كما شرع الله تعالى ، فيأتمر بما أمره الله تعالى به ، وينتهي عما نهاه الله تعالى عنه .

فإذا طالبه أمر الله تعالى بالصلاة صلَّى ، وإذا طالبه أمر الله تعالى بالزكاة زكَّى ، وإذا طالبه أمر الله تعالى بالصيام صام ، وإذا طالبه أمر الله تعالى بالحج حج .

وإذا طالبه أمر الله تعالى بالجهاد جاهد ـــ وهكذا دواليك .

وبهذا يكون تسليم المبيع في عقد البيع لله تعالى ـــ فافهم .

وهذا هو الإِسلام الكامل ، أي : الاستسلام لله تعالى فيما أمر ونهى .

الوجه الثاني : أنه سبحانه أكَّد عقد الشراء ، ودفع الثمن بقوله : ﴿ وعداً ﴾ وهو مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله ، لأن الشراء بأن لهم الجنة يتضمن الوعد لهم بالجنة .

الوجه الثالث : أنه سبحانه أكد ذلك أيضاً بقوله : ﴿ عليه ﴾ وهذا من باب إيجابه على نفسه ، فإنه سبحانه لا أحد يوجب عليه ، ولكنه سبحانه هو قد يوجب على نفسه ، قال تعالى : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾، وهو سبحانه يحتم على نفسه قال تعالى : ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ﴾ .

ومن هذا قوله تعالى في هذه الآية : ﴿ وعداً عليه حقاً ﴾ فهو يحق على نفسه ما شاء .

الوجه الرابع : أنه سبحانه أكد ذلك العقد فكتبه على نفسه في أصح الكتب ، وأثبت الصكوك الموثقة ، وهي : التوراة النازلة على موسى ، والإنجيل النازل على عيسى على رسولنا وعليهم الصلاة والسلام ، والقرآن الجامع المعجز النازل على سيدنا محمد ﷺ فقال تعالى : ﴿ وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ .

الوجه الخامس : أنه سبحانه أكَّد ذلك العقد بقوله تعالى : ﴿ ومَنْ أوفى بعهده من الله ﴾ ؟.

فبين للمؤمنين أن العهد مع الكريم النفس ، الوفي العهد هو : عقد وثيق لا يحتمل الغش ولا الخديعة ، فما ظنكم بعهد الله تعالى : ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾ ؟.

الوجه السادس : طمنهم سبحانه بثقة العقد ووفاء العهد ليكونوا مستبشرين مطمئنين ، فرحين مسرورين ، في مقام العيان لقوة الاطمئنان ، وكيف لا يفرحون ويستبشرون بذلك العقد ؟ وفيه الفوز العظيم ـ وإن واسطة عقد البيع الذي يأخذ البيعة من الخلق لله الحق سبحانه ، هو أفضل الخلق وأحبهم إلى الله تعالى ، وأكرمهم على الله تعالى ألا وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ﴾ .

فما أشرف هذا العقد .

فتلك الآية الكريمة وما اشتملت عليه من شرائه سبحانه أنفس المؤمنين وأموالهم بأن لهم الجنة ـ تدل على عظيم أمر الجنة ، وعلو شأنها ، ورفعة

قدرها ، وكرامتها عند الله تعالى .

فإن من المستحيل على الله تعالى ذي الجلال والإكرام ، والطول والإنعام ، أن يشتري من عباده المؤمنين المكرمين عنده أنفسهم وأموالهم ، بما هو خسيس ، أو رخيص ، أو بخيس – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

بل اشترى أنفسهم وأموالهم بما هو عظيمٌ قدره ، كبيرٌ فخره ، رفيعٌ شرفه ، يفوق ثمن كل ثمين ، ويعلو عن كل تقويم ، لا يُحصى عدُّه ، ولا يُستقصى حدُّه ، فيه كل مرغوب ومحبوب ، وإليه المنتهى في كل غاية ومطلوب ، ألا وهو جنة الله تعالى ، التي أعدها لأحبابه ، ومقربيه وأوليائه وأهليه .

وهل تعرف أيها العاقل ما هي الجنة ؟ وما أنواع نعيم الجنة ، وماذا تحتوي عليه الجنة ؟؟

قد تظن أن الجنة هي : تحتوي على أشجار ، وثمار ، وظلال ، وأنهار ، وحور ، وقصور ، ومطاعم ، ومشارب طيبة ، ولذائذ جسمية ممتعة – وليس وراء ذلك شيء ، وهذا شأن الجاهل بأمر الجنة وشأن من لم يعرف الجنة .

فالمؤمن العاقل هو من عرف الجنة وعلم ما فيها من أنواع المكارم ، وأنواع الفضل الإلهي ، وأنواع النعيم ، يعرف ذلك كما عرفها الله تعالى ووصفها في كتابه الكريم ، وكما وصفها رسول الله ﷺ .

وأنا العبد الفقير لربه تعالى أذكر لك جملة موجزة مما جاء في وصف الجنة ، وما فيها من أنواع الفضل والكرم الإلهي ، مقتبساً من الكتاب

والسنة ، وأترك التفصيل إلى كتاب آخر خاص بعالم الجنة إن شاء الله تعالى :

١ ــ الجنة فيها رؤية رب العالمين عياناً :

فمن كان يحب الله تعالى يحب أن يراه ، لأن المحب يحب رؤية محبوبه ، ومن أحب رؤية الله تعالى أحب جنة الله تعالى ، لأن فيها رؤية الله تعالى التي هي غاية المطلوب ــ قال الله تعالى : ﴿ وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ .

جاء في (الصحيحين) وغيرهما عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال : « إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تُغلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ، ثم قرأ : ﴿ وسبِّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾ » .

وإن رؤية أهل الجنة ربهم سبحانه هي أحب إليهم من كل نعيم الجنة :

روى مسلم والترمذي عن صهيب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى : تريدون شيئاً أزيدكم ؟

فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة ؟ ألم تنجنا من النار ؟

قال : فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى ثم تلا هذه الآية : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ ».

ورؤية الله تعالى في الجنة منها : رؤية عامة لجميع أهل الجنة ، ومنها خاصة يختص بها سبحانه من يشاء من عباده .

أما العامة فقد جاء في (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الناس قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟

فقال : « هل تمارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟» .

قالوا : لا يا رسول الله .

قال : « هل تمارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب ؟» .

قالوا : لا يا رسول الله .

قال : « فإنكم ترون ربكم كذلك » الحديث بطوله .

وهذه الرؤية العامة تكون في الكثيب يوم الجمعة كما دلت على ذلك الأحاديث ، ومنها ما جاء عن حذيفة في حديث طويل رواه الطبراني في (الأوسط) بإسنادين أحدهما جيد قوي ، ورواه أبو يعلى ، وابن أبي الدنيا ، والبزار واللفظ له وفيه : « فإذا كان يوم الجمعة في الحين الذي يبرز أو يخرج فيه أهل الجمعة إلى جمعتهم ، نادى مناد : يا أهل الجنة أخرجوا إلى دار المزيد ، لا يعلم سعتها وعرضها وطولها إلا الله عزَّ وجلَّ ، فيخرجون في كثبان المسك ، وتوضع لهم المنابر ، والكراسي ، فيأخذ القوم مجالسهم – أي : كل واحد منهم في رتبته ومقامه –.

قال : فيكون أول ما يسمعون منه سبحانه : أين عبادي الذين أطاعوني بالغيب و لم يروني ، وصدقوا رسلي واتبعوا أمري ، فسلوني فهذا يوم المزيد .

قال فيجتمعون على كلمة واحدة : رب رضينا عنك فارضَ عنا .

قال : فيعيد عليهم ذلك القول ويقول لهم : فسلوني فهذا يوم المزيد .

قال : فيجتمعون على كلمة واحدة : ربِّ وجهك أرنا ننظر إليه .

قال : فيكشف الله تبارك وتعالى الحجاب ويتجلى لهم فيغشاهم من نوره شيء لولا أنه قضى عليهم أن لا يحترقوا لاحترقوا مما غشيهم من نوره » إلى تمام الحديث .

وأما الرؤية الخاصة بالأكرمين على الله تعالى فقد جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة ، وأكرمهم على الله تعالى : من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية — ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ ».

رواه أحمد والترمذي ورواه ابن أبي الدنيا بلفظ :

قال رسول الله ﷺ : « إن أفضل أهل الجنة منزلة من ينظر إلى وجه الله تعالى كل يوم مرتين » .

٢ — الجنة فيها تحياته تعالى وتسليماته على أهل الجنة :

قال الله تعالى : ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً ﴾.

وقال تعالى : ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شُغل فاكهون هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون سلام قولاً من رب رحيم ﴾ .

عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الربُّ جلَّ جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة — وهو قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ — فلا يلتفتون إلى شيءٍ مما

هم فيه من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ، ويبقى فيهم نوره وبركته » رواه ابن ماجه وغيره .

٣ ــ فيها مكالمته سبحانه لأهل الجنة وإحلاله الرضوان عليهم :

قال الله تعالى : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ فتجليه سبحانه عليهم بالرضوان أكبر عندهم من مآكل الجنة وشرابها وأنهارها ومساكنها .

روى الشيخان وغيرهما عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله عزَّ وجلَّ يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة .

فيقولون : لبيك ربَّنا وسَعْديك ، والخير في يديك .

فيقول : هل رضيتم ؟ ــ أي : بما أعطيتم ــ .

فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك .

فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟
فيقولون : وأيُّ شيءٍ أفضل من ذلك ؟
فيقول : أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً » .
اللهم اجعلنا منهم بكرامة سيدنا رسول الله ﷺ عليك ــ آمين .

٤ ــ فيها ثناؤه سبحانه على أهل الجنة وشكرهم على عملهم الصالح :

قال الله تعالى بعد أن ذكر ألوان النعيم في الجنة ، وأنواع اللذائذ ، وأصنافاً من العطاء والكرم الإلَهي ــ قال سبحانه : ﴿ وإذا رأيت ثَمَّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً ﴾ .

فملك الدنيا مهما اتسع وامتدَّ فهو حقير صغير بالنسبة لملك الجنة ،

فإنه الملك الكبير ، وكيف لا يكون كذلك وقد جاء أن أدنى أهل الجنة وآخرهم دخولاً لها : من يؤتى « قدر الدنيا وعشرة أمثالها » الحديث كما رواه الترمذي وغيره..

ثم قال سبحانه بعد ذلك : ﴿ إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً ﴾ .

فقد شكرهم سبحانه على سعيهم المبرور ، كما قال تعالى : ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً ﴾ .

وإذا دخل أهل الجنة الجنة ــ جعلنا الله تعالى منهم بفضله ورحمته ــ قدموا شكرهم وحمدهم لله تعالى على أن هداهم ووفقهم لذلك ، ثم إنه سبحانه يقابلهم بالثناء عليهم بحسن أعمالهم وصلاح أفعالهم .

قال تعالى : ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا : الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ .

٥ ــ الجنة فيها المعية لرسول الله ﷺ ومرافقته والاجتماع به ﷺ :

لقد ذكر الله تعالى في مواضع من القرآن الكريم أنواعاً من نعيم أهل الجنة ، ومن جملة تلك الأنواع أفرد نوعاً خاصاً من نعيم أهل الجنة ، يبشرهم بذلك ، وينهض بهمتهم ليظفروا بذلك : قال الله تعالى : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً ﴾.

ففي هذه الآيات الكريمة : البشائر الإلٓهية للمطيعين لله تعالى ورسوله ﷺ بالمعية والمرافقة للنبيين ؛ وإمامهم سيدنا محمد ﷺ ؛ومعيّتهم الصديقين والشهداء والصالحين .

ثم أثنى على أهل هذا المقام ، وذكر شأن هذا المقام فقال تعالى : ﴿ وحَسُن أولئك رفيقاً ﴾.

ثم عظم ذلك المقام ، وبين لعباده فضل ذلك المقام ، وأنه لا ينال بالأمر السهل فقال تعالى : ﴿ ذلك الفضل ﴾ مشيراً إلى علو مرتبة الفضل وعزة شأنه ﴿ ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً ﴾ فهو يتفضل به على من يشاء من عباده ، فعليهم أن يسألوه من فضله ــ اللهم تفضل علينا بذلك يا ذا الفضل العظيم .

وقد كان أصحاب النبي ﷺ أشد الناس حرصاً على نيل هذا المقام لأنهم ذاقوا حلاوته .

وقد جاء في سبب نزول هذه الآيات الكريمة ما يدلك على ذلك .

فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : (جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إنك أحبُّ إلَيّ من نفسي ، وأحبُّ إلَيّ من أهلي ، وأحبُّ إلَيّ من ولدي ، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك ، وإذا ذكرتُ موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلتَ الجنة رُفعتَ مع النبيين ، وإن دخلتُ الجنة خشيت أن لا أراك .

فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزلت عليه هذه الآية : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين

والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾[1]).

بل كان أصحاب النبي ﷺ إذا دعوا الله تعالى وسألوه في أوقات الإجابة ، جعلوا دعاءهم وسؤالهم أن يسعدوا بمرافقة النبي ﷺ في الجنة .

روى مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه أنه قال : كنت أبيت عند النبي ﷺ فأتيته بوَضوئه وحاجته فقال لي : « سَلْ » .

فقلت : يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة .

فقال ﷺ : « أوغير ذلك » .

قلت : هو ذاك .

قال : « فأعني على نفسك بكثرة السجود » .

ولما مرَّ النبي ﷺ في المسجد بعبد الله بن مسعود قال له ﷺ : « يا ابن مسعود سل تعطه » .

فلما أيقن ابن مسعود بالإجابة قطعاً راح يدعو بأحب شيء إليه ، وأكرم ما يكون عنده ، وهو مرافقة النبي ﷺ في أعلى الجنة فقال :

(اللهم إني أسألك نعيماً لا يبيـد ، وقرَّة عين لا تنقطع).

وفي رواية : **(لا تنفد ، ومرافقة النبي ﷺ في أعلى الجنة جنـة الخلـد)** كما في (المسند) وغيره .

ولما بشَّر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه الكرام بأن المرء مع مَنْ أحبَّ ، فرحوا أشدَّ الفرح فقد جاء في (الصحيح والمسانيد) وغيرهما

(١) هكذا رواه الحافظ أبو عبد الله المقدسي من طريق الطبراني ثم قال : لا أرى بإسناده بأساً ، وقد رواه ابن مَرْدُوْيَه من طرق متعددة ، وروى ابن جرير نحو هذا كما في (تفسير) ابن كثير رحمه الله تعالى .

من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم — أي : لم يعمل مثل عملهم —.

فقال ﷺ : « المرء مع من أحب » .

قال أنس : (فما فرح المسلمون مثل فرحهم بهذا الحديث).

وفي رواية قال أنس : (إني لأحب رسول الله وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل كعملهم) .

قال عبد الله : وإني لأحب رسول الله ﷺ وأصحابه وأحبابه وأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل مثل عملهم بجاه رسول الله ﷺ وكرامته عند الله تعالى .

٦ — الجنة فيها من أنواع النعيم : ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر :

روى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله عزَّ وجلَّ : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

قال : اقرأوا إن شئتم قول الله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ ».

فمهما رأت عين من أنواع النعيم والمحاسن والجمال في الدنيا ، ومهما سمعت أذن بذلك ، فإن الجنة فوق ذلك ، وأعلى من ذلك ، ومهما تصوَّر الإنسان وخطر على قلبه من أنواع النعيم والحسن والجمال ، فإن الجنة أعلى

من ذلك ؛ لأنها جنة الله التي أعدها لأحبابه ومقربيه – كما جاء في حديث طويل رواه مسلم وفيه يقول الله تعالى : « أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدي ، فلم ترَ عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشرٍ » الحديث .

الأمر الثاني الذي يجب الانتباه إليه :

إذا علمت يا أخي المؤمن ما هي الجنة ، وماذا تحتوي عليه الجنة من جميع المحبوبات والمطلوبات الحسنة النافعة ، وجميع المرغوبات عند ذوي الفضل والكمالات – إذا علمتَ ذلك كان من الواجب عليك أيها المؤمن أن تحب الجنة ، وأن ترغب فيها ، لأن الله تعالى حببها إلى المؤمنين ، ورغبهم فيها ، وأعد لهم فيها ما يحبون ويرغبون .

بل يجب عليك أن تسارع إليها ، لأن الله تعالى أمرك بذلك ، قال تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أُعدت للمتقين ﴾ .

فمن كان مسارعاً إلى محبوب له ومرغوب ، فليكن مسارعته إلى الجنة أسرع ، بل يجب عليك أيها المؤمن أن تسابق إلى الجنة أقوى المسابقة ، لأن الله تعالى أمر بذلك ، قال تعالى : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

واعلم أيها المؤمن أن الله تعالى سوف يسألك عن أمره لك بالمسارعة وبالمسابقة ، هل سارعت إلى الجنة وسابقت أم لا ؟ وهل كانت مسارعتك

إلى الجنة ومسابقتك إليها أقوى أم كنت إلى الدنيا وزخارفها أسرع وأسبق ؟؟

كما يجب عليك أيها المؤمن أن تسأل الله تعالى بإلحاح وصدق أن يجعلك من أهل الجنة ، وهذا أمر لا بدَّ منه لكل مؤمن مهما ارتفعت درجته ، وعلت منزلته .

فقد سأل خليل الله تعالى ربه أن يجعله من ورثة جنة النعيم ، وذكر الله تعالى لنا ذلك في محكم كتابه ليعلمنا ذلك،قال تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام أنه قال : ﴿ والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين واجعل لي لسان صدق في الآخرين واجعلني من ورثة جنة النعيم ﴾ .

كما أن الحبيب الأكرم والرسول الأعظم سيدنا محمداً ﷺ كان يسأل الله تعالى الجنة ؛ مع أنه ﷺ هو الذي يفتحها ولا تفتح لأحد قبله ، وهو أول من يدخلها ، وجميع أهلها يدخلون من ورائه ﷺ .

فقد روى الترمذي وغيره في حديث طويل وفيه كان من دعائه ﷺ : « اللهم يا ذا الحبل الشديد ، والأمر الرشيد ، أسألك الأمن يوم الوعيد ، والجنة يوم الخلود ، مع المقربين الشهود ، الركع السجود ، الموفين بالعهود ، إنك رحيم ودود ، تفعل ما تريد » .

ومن دعائه ﷺ كان يقول : « اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك » الحديث .

وفي الحديث الذي رواه أبو داود وابن ماجه عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وفي رواية لأبي داود عن جابر رضي الله عنه

قال : قال النبي ﷺ لرجل : « كيف تقول في الصلاة » – أي : في الدعاء آخر الصلاة ؟

قال : أتشهَّد وأقول : اللهم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار – أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ – أي : لا أدري ما تدعو به أنت يا رسول الله ولا ما يدعو به معاذ بصوتكما الخفي – فقال ﷺ : « حولها ندندِن » أي : كلنا يدعو بذلك .

وقد أخبر الله تعالى عن أولي الألباب من المؤمنين أنهم يسألونه الجنة قال تعالى مخبراً عنهم يقولون: ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ﴾ .

فسألوه سبحانه أن يؤتيهم ما وعدهم على لسان الرسل ، وهو : دخول الجنة بدليل قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب ﴾ .

وهذا هو الوعد الذي جاءت جميع الرسل به ، ونزل في جميع الكتب الإلهية قال تعالى : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

كما أن من وظيفة حملة العرش ومن حوله دعاءهم للمؤمنين بالجنة ، قال تعالى : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم

ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيءٍ رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

فلولا أن الجنة أمرها عظيم ، وشأنها كبير ، ما دعى بها حملة العرش ومن حوله للمؤمنين الصادقين .

وأنت تعلم أن الملائكة عليهم السلام كما وصفهم سبحانه : ﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ .

ولقد كان ﷺ يحثُّ المؤمنين ويرغبهم في سؤالهم ربهم الجنة :

روى أصحاب السنن وغيرهم عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« مَنْ سأل الله الجنة ثلاث مرات قالت الجنة : اللهم أدخله الجنة .

ومن استجار من النار ثلاث مرات قالت النار : اللهم أجره من النار » .

وقد جاء في الحديث المتفق عليه يخبر فيه النبي ﷺ عن القوم الذين اجتمعوا على تسبيح الله تعالى وتحميده وتكبيره وقد حفتهم الملائكة . فيقول سبحانه للملائكة : « فما يسألوني ؟»

تقول الملائكة : « يسألونك الجنة ويعوذون بك من النار » الحديث .

وكان أصحاب النبي ﷺ يسألونه عما يدخلهم الله تعالى به الجنة ، حباً في الجنة ورغبة فيها ومن ذلك :

ما روى الترمذي وغيره عن معاذ رضي الله عنه قال : قلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار .

فقال ﷺ : « لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على مَنْ يسَّره الله تعالى عليه :

تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت » .

ثم قال ﷺ : « ألا أدلك على أبواب الخير ؟

قال : قلت : بلى يا رسول الله .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل في جوف الليل — في رواية شعار الصالحين — » الحديث .

وروى ابن ماجه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله ﷺ : « يا عائشة عليك بالجوامع الكوامل — أي : الأدعية الجامعة لكل خير — قولي : اللهم إني أسألك من الخير عاجله وآجله ما علمتُ منه وما لم أعلم .

وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم .

اللهم إني أسألك من خير ما سألك عبدك ونبيك محمد ﷺ .

وأعوذ بك من شر ما عاذ منه عبدك ونبيك محمد ﷺ .

اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل .

وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل .

وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيته لي خيراً »[1].

الأمر الثالث الذي يجب الانتباه إليه :

لقد دلت الآية الكريمة المبشرة بدخول الجنة وهي قوله تعالى : ﴿جنات عدن يدخلونها﴾ الآية وأمثالها من الآيات التي يعد الله تعالى فيها عباده بالجنة ويبشرهم بها ـ لقد دلت تلك الآيات على أن رغبة المؤمن الكامل في الجنة ، ومحبته لها ، ودعاؤه بها لا ينقص إخلاصه في عبادته لله تعالى ، ولا ينافي كمال أهل الكمال من الرجال العابدين المخلصين المقربين .

فإن أهل الكمال يعبدون الله تعالى لأنه هو الله تعالى ربهم ورب العالمين ، المتصف بجميع الكمالات المطلقة ، والمنزه عن جميع العيوب والنقائص ـ فهو الله تعالى الإله الحق ، المعبود حقاً ، الذي يجب أن يعبد حقاً ، ولو لم يخلق جنة ولا ناراً .

ولذلك كان له سبحانه حق واجب على عباده أن يعبدوه ، لأنه ربهم وهم عباده ، وهذا الحق ذاتي له كما قال ﷺ لمعاذ : « أتدري ما حق الله على عباده ؟» .

قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : « حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » .

والله تعالى من فضله وإكرامه هو حقَّ على نفسه ، ووعد عباده العابدين له أن يدخلهم الجنة تكريماً لهم .

---

(١) وقد رمز في (الجامع الصغير) إلى صحته ، وقال العلامة المناوي : ورواه عنها البخاري في (الأدب المفرد)، ورواه أحمد والحاكم وصححه . اهـ .

والله تعالى لا يخلف وعده ، بل هو محقق لا محالة ، قال تعالى : ﴿ جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتياً ﴾ .

فأهل الكمال يعبدون الله تعالى لذاته لأنه سبحانه إلٓه يعبد حقاً ، وله حق على عباده أن يعبدوه لأنهم عباده ، ما لهم غنى عنه ، وهذا معنى قول السيدة رابعة العدوية رضي الله عنها : (إلٓهي ما عبدتك خوفاً من نارك ، ولا طمعاً في جنتك ، ولكن علمتُ أنك إله حقاً تعبد فعبدتك لذاتك) .

وعلى هذا جرى الكُمل من المؤمنين ، ولكن مع ذلك يسألون الله تعالى الجنة ، ويعوذون به من النار ، لأنه سبحانه هو حببَّهم في الجنة وأحبها لهم ، ورغبهم فيها ، وجعلها تكريماً لهم ، فهم يحبون كرامة الله ، ويحبون رؤية الله تعالى ، ويحبون سماع كلام الله تعالى ، ويحبون تجلياته الرضوانية ، وتجلياته الجمالية ، ويحبون مقعد الصدق عند مليك مقتدر ، ويحبون دار ضيافته التي دعاهم إليها قال تعالى : ﴿ والله يدعو إلى السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ .

اللهم اجعلنا منهم فضلاً منك وكرماً يا أكرم الأكرمين — فالمؤمنون الصادقون يحبون ذلك كله .

كما يحبون أحبَّ الخلق إلى الله تعالى ومرافقته ورؤيته ، والمعية معه ومجالسته ﷺ وذلك كله إنما يكون في الجنة .

اللهم إنا نسألك الجنة ونعوذ بك من النار ، برحمتك يا عزيز يا غفار ، ويا كريم يا ستّار .

ولقد أرسل سيدنا إبراهيم الخليل ﷺ مع سيدنا الحبيب الأكرم ﷺ ليلة المعراج — أرسل تحية وسلاماً وبشارة إلى أمة سيدنا محمد ﷺ

يحرك هممهم وعزائمهم إلى المسارعة إلى الجنة :

قال ﷺ : « مررتُ ليلة أسري بي بإبراهيم عليه السلام فقال لي : يا محمد : أقرىء أمتك مني السلام ، وبشرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » الحديث رواه الترمذي وغيره .

ولما صار شهداء أحد رضي الله عنهم ورضي عنا بهم لما صاروا عند ربهم ، ورأوا نعيم الجنة ومحاسنها وقناديلها المعلقة في ظل العرش فراحوا يطلبون من يبلغ عنهم أحبابهم في الدنيا ، ويخبرهم عما في الجنة من الفضل العظيم ، والنعيم المقيم فقال الله تعالى : « أنا أبلغهم عنكم » .

روى أبو داود وأحمد وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « إنه لما أصيب إخوانكم بأحد ، جعل الله تعالى أرواحهم في جوف طير خضر ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا : من يبلّغ عنا إخواننا ـ أي : من أهل الدنيا ـ أنا أحياء في الجنة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب .

فقال الله تعالى : أنا أبلغهم عنكم .

فأنزل الله عزَّ وجلَّ : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألَّا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ الآيات ».

فمحبة المؤمن للجنة ، ورغبته فيها ، وطلبه إياها ، ودعاؤه ربه أن يجعله من أهلها ، لا ينافي إخلاصه في العبادة لله تعالى ، وصدقه في طاعته لله تعالى ، كما أنه لا يدل ذلك على نقص مقامه ، فقد سأل ذلك الأنبياء والصديقون والشهداء كما تقدم .

روى الترمذي والنسائي والإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يسمع عند وجهه الشريف كدويِّ النحل ، فلبثنا ساعة — أي : فنزل عليه الوحي فلبثنا ساعة — ثم استقبل رسول الله ﷺ القبلة ورفع يديه وقال :

« اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تُهنَّا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، اللهم أرضنا وارض عنا » .

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم : « لقد أنزل علي عشر آيات من أقامهن — أي : قام بموجبهن — دخل الجنة — ثم قرأ ﷺ :

﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ »).

اللهم اجعلنا منهم بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين .

وروى ابن ماجه في (سننه) عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه ، كما روى أبو داود في باب تخفيف الصلاة بسنده عن بعض أصحاب

النبي ﷺ قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لرجل : « كيف تقول في الصلاة ؟»ـ أي في الدعاء آخر الصلاة .

فقال الرجل : (أتشهد وأقول : اللهم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار) .

أنا يا رسول الله لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ .

فقال النبي ﷺ : « حولها نُدَنْدِنْ » .

وفي رواية : قال ﷺ : « إني ومعاذاً حول هاتين » .

أي : ندندن في طلبهما والدعاء بهما .

وهذا الرجل كما قال العلامة الخطيب البغدادي هو سليم الأنصاري السلمي ، كان يدعو في صلاته أن يدخله الله تعالى الجنة ويعيذه من النار ، فبين له ﷺ أن هذا هو المطلوب .

والدندنة هي الكلام الذي يسمع ولا يفهم ، وهو أرفع من الهيمنة قليلاً ـــ كما في (النهاية) .

فالهيمنة كلام لا يسمع ولا يفهم .

الفرق بين نعيم المقتصدين ونعيم السابقين المقربين

لقد ذكر الله في القرآن العظيم الفوارق بين نعيم المقتصدين وهم أصحاب اليمين ، ونعيم المقربين السابقين ـــ في عالم البرزخ وفي عالم جنة المأوىٰ ؛ جاء ذلك في عدة مواضع من القرآن الكريم :

أما التفاضل والتفاوت بين نعيمهما في عالم البرزخ فقد قال الله تعالى في آخر سورة الواقعة : ﴿ **فلولا إذا بلغت الحلقوم** ﴾ أي : إذا بلغت الروح حلقوم المحتضر : ﴿ **وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون فلولا إن كنتم غير مدينين** ﴾ أي : إن كنتم كما تزعمون أنكم غير مقهورين بقدرة الله تعالى ، وعزة سلطانه وقضائه ﴿ **ترجعونها** ﴾ أي : تردون الروح إلى الجسم و لا تتركوها تفارقه ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ ، ولكن أنتم عاجزون ـــ إذاً فاعلموا أن لكم رباً قادراً قاهراً فاعبدوه وأطيعوه قبل أن تصيروا إلى ذلك الحال ، وذلك اليوم .

﴿ **فأما إن كان** ـــ أي : المحتضر ـــ **من المقربين : فروح وريحان وجنة نعيم** ﴾ أي : فهذا المقرب ينتقل ويصير فوراً إلى نعيم البرزخ الذي فيه الرَوْح والراحة ، والسرور للروح والجسم والمدارك ، وإلى الريحان وهو الرزق بأنواعه المختلفة المناسبة لعالم البرزخ ﴿ **وجنة نعيم** ﴾ .

﴿ وأما إن كان ـــ المحتضر ـــ من أصحاب اليمين : فسلام لك من أصحاب اليمين ﴾ .

والمعنى : أن الملائكة عليهم السلام يقولون له عند الموت : سلام لك ، أنت من أصحاب اليمين .

أو المعنى : فسلام لك ـــ أي : مسلَّم لك أنت من أصحاب اليمين ، فيبشرونه بسلام وأمان ، وأنه من أصحاب اليمين ، وبذلك تنزل عليه السكينة ، وتحل الطمأنينة ، ويذهب عنه الروع .

أو المعنى فسلام لك يا من هو من أصحاب اليمين ، والجار والمجرور في موضع حال ، كما تقول : هنيئاً لك من أتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـــ أي : كائناً منهم .

﴿ وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم . وتصلية جحيم ﴾ .

وفي هذا دليل على عذاب القبر ـــ أعاذنا الله تعالى منه .

وقد أوضحت ذلك مفصلاً في كتاب : (الإيمان بعوالم الآخرة) فارجع إليه .

التفاضل والتفاوت بين نعيم المقربين

وأصحاب اليمين في جنة المأوى

لقد ذكر الله تعالى التفاضل بين نعيم المقربين وأصحاب اليمين في جنة المأوى ، وبيّن الفوارق بينهما في سور متعددة : كسورة الواقعة ، وسورة الرحمن ، وسورة المطففين وغيرها من السور القرآنية الكريمة .

وإنني أذكر لك أيها القارىء الكريم بعض ذلك :

قال الله تعالى في أول سورة الواقعة : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم . إذا وقعت الواقعة** ﴾ أي : حدث وقوع القيامة ، وسميت القيامة بالواقعة لتحقق وقوعها قطعاً ، ولذا قال سبحانه : ﴿ **ليس لوقعتها كاذبة** ﴾ فهي محققة الوقوع بلا شبهة ، وكل ما يجري فيها من الحساب والسؤال والميزان وغير ذلك فهو حق وصدق .

﴿ **خافضة رافعة** ﴾ أي : خافضة لأقوام كفرة ، أو فجرة ، كانوا في الدنيا مترفعين ومتجبرين ، وهي : رافعة لأقوام مؤمنين صادقين مخلصين ـ وربما كانوا في الدنيا مساكين .

﴿ **إذا رجت الأرض رجّاً وبسّت الجبال بسّاً** ﴾ أي : تزلزل الأرض زلزالاً شديداً ، وأما الجبال الصم الشامخة فتبس بساً أي : تفتت فتاً دقيقاً « **فكانت هباءً منبثاً** ﴾ متفرقاً ، بعد ما كانت شديدة صلبة ذات صخر أصمّ ـ وهذا يكون حال الأرض والجبال .

ثم ذكر حال مَنْ على ظهرها من المكلفين فقال سبحانه : ﴿ **وكنتم أزواجاً ثلاثة** ﴾ أي : صرتم يوم القيامة أصنافاً ثلاثة :

﴿ **فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة** ﴾ يعني : إنَّ شأنهم عظيم ، وفضلهم كبير .

﴿ **وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة** ﴾ يعني : إن عذابهم كبير ، وشأنهم حقير .

﴿ **والسابقون السابقون** ﴾ والمعنى : إن السابقين بالخيرات من الأعمال الصالحة ، والعبادات الخالصة ، والمسارعين في أعمال البر والإحسان ، وما ينفع العباد والبلاد ـ هؤلاء هم السابقون إلى جنة الله تعالى ورحمته ، ودار كرامته سبحانه .

﴿ **أولئك المقربون** ﴾ الذين شرفهم الله تعالى بقربه ، وأكرمهم بحبه ، وحفاهم برضوانه وأنسه ، في حظيرة قدسه : ﴿ **في جنات النعيم** ﴾ .

﴿ **ثلة من الأولين وقليل من الآخرين** ﴾ والمعنى : أن السابقين المقربين من هذه الأمة المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم هم كثيرون ، ولكن أكثرهم من أول هذه الأمة وقليل من آخرها ، فهم في صدر الأمة أكثر منهم في آخرها :

كما روى ابن المنذر والطبراني وابن مَرْدُوْيَهْ ، ومسدد في (مسنده) وغيرهم عن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى : ﴿ **ثلة من الأولين** ﴾ وفي قوله تعالى بعد آيات : ﴿ **وثلة من الآخرين** ﴾ قال صلى الله عليه وآله وسلم : « هما جميعاً من هذه الأمة » .

وفي رواية عن ابن عباس مرفوعاً : « هما جميعاً من أمتي » صلى الله عليه وسلم .

﴿ **على سُرُر موضونة** ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى ذلك : (منسوجة بالذهب وقضبان الفضة) .

﴿ **متكئين عليها متقابلين . يطوف عليهم ولدان مخلَّدون بأكواب وأباريق وكأس من معين** ﴾ فهؤلاء الولدان ، وهم الغلمان كما في سورة الدهر ، من نشأة مباينة ، خلقهم الله تعالى مخلدين ، وظيفتهم تقديم الطعام والشراب لأهل الجنة ، في مجالسهم ومجتمعاتهم ، فيقدمون لهم أنواع الشراب ، ومن ذلك خمرة الجنة التي لا تخمر العقل ، ولا تصدع الرأس ، ولا تنزف الفكر ، ولذا قال سبحانه : ﴿ **لا يصدعون عنها** ﴾ أي : لا يصدر صداع لهم عنها لآلام كما في خمرة الدنيا .

﴿ **ولا ينزفون** ﴾ ولا تنزف عقولهم .

﴿ **وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ .

وأما الحديث بينهم فهو الكلام الطيب السار ﴿ **لا يسمعون فيها لغواً** ﴾ من كلام قبيح ، أو كلام لا ينفع صاحبه وسامعه ، ﴿ **ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً** ﴾ فلا يسمعون إلا القول السلام الذي فيه التحية والترحيب ، وفيه التكريم والطيب .

ثم ذكر سبحانه أصحاب اليمين ، فقال تعالى : ﴿ **وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين** ﴾ يعني : أمرهم عظيم ، وشأنهم كبير أيضاً .

﴿ في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة وفرش مرفوعة ﴾ .

وقد روى الترمذي وحسنه والنسائي وأحمد وغيرهم عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ارتفاعها كما بين السماء والأرض » .

ولا تنكر ذلك أيها العاقل فذلك العالم أوسع بكثير من هذا العالم : قال تعالى : ﴿ وإذا رأيت ثَمَّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً ﴾ .

وصعود المؤمن ونزوله هناك : إما بواسطة الرياح المسخرة لهم ، كما سخر الله تعالى ذلك لسيدنا سليمان ، أو يعلو سريره والجالس عليه ، أو يعطيهم الله تعالى قوة الصعود والعلو لقوتهم ، كالماشي على وجه الأرض ، فالنعيم هناك مطلق ، وأسباب متنوعة ، ولهم ما يشتهون – فافهم .

قال تعالى : ﴿ لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد ﴾ .

﴿ إنا أنشأناهن إنشاءً فجعلناهن أبكاراً . عرباً أتراباً . لأصحاب اليمين . ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ .

وإن تفصيل الكلام على تفسير هذه الآيات الكريمة سيأتي في موضعه من كتاب : (الإيمان بعالم الجنة) إن شاء الله تعالى .

وأما ما جاء في سورة الرحمن من ذكر التفاوت بين نعيم السابقين ونعيم أصحاب اليمين فقد قال سبحانه في السابقين المقربين :

﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ذواتا أفنان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . فيهما عينان تجريان . فبأي آلاء ربكما

تكذبان . فيهما من كل فاكهةٍ زوجان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . متكئين على فرش بطائنها من إستبرق ، وجنى الجنتين دان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . كأنهن الياقوت والمرجان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . هل جزاء الإحسان إلا الإحسان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

ثم ذكر أنواعاً من نعيم أصحاب اليمين الذين هم في الرتبة دون السابقين المقربين فقال تعالى :

﴿ ومن دونهما جنتان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . مدهامّتان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . فيهما عينان نضاختان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . فيهما فاكهة ونخل ورمّان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . فيهن خيرات حسان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . حور مقصورات في الخيام . فبأي آلاء ربكما تكذبان . لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . متكئين على رفرف خضر وعبقرِيٍّ حسان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام ﴾ .

وقال سبحانه في سورة المطففين :

﴿ إن الأبرار لفي نعيم ، على الأرائك ينظرون . تعرف في وجوههم نضرة النعيم . يُسْقون من رحيقٍ مختوم . ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . ومزاجه من تسنيم عيناً يشرب بها المقربون ﴾ .

والمعنى : أن الأبرار يشربون من رحيق الجنة أي : خمرتها ، وتُمزج لهم بشيءٍ من عين التسنيم ، وعين التسنيم تتسنّم من العرش يشرب منها

المقربون صِرفاً بلا مزج لقوة استعدادهم .

ولم يقل يشرب منها بل قال : ﴿ يشرب بها ﴾ ليدل على كمال شربهم ، وتمام رِيهم . فكأنه قال سبحانه : يشربون منها ويَرْتَوون بها، ففيه تضمين كما هو معلوم في علم البلاغة ، ونظير ذلك قوله تعالى في سورة الدهر :

﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً . عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً ﴾ .

هذا وإن تفصيل الكلام على معاني هذه الآيات الكريمة ، سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى من كتاب (الإيمان بعالم الجنة) إن شاء الله تعالى .

فضائل الأمة المحمدية
عليه أفضل الصلاة والسلام وأكمل التحية

قال الله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ .

وفي هذه الآية الكريمة إعلان وإعلام من المليك العلاَّم ، بخيريّة هذه الأمة على جميع الأمم ، وذلك لأفضلية رسولها عليه أفضل الصلاة والسلام .

وإليك هذه الكلمات الموجزة حول الآية الكريمة :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة ﴾ أي:كنتم في علم الله تعالى الذي لا أول له : خير أمة ، والمعنى أن الله تعالى كان عليماً بأنكم خير أمة ، علماً قديماً لا بدء له كما قال سبحانه : ﴿ وكان الله بكل شيء عليماً ﴾ ، وفي هذه إشارة إلى تحقق خيريّة هذه الأمة ، وثبوت قطعيَّتها ، لأنها ثابتة في العلم الإلٓهي القديم الذي لا يتبدل ولا يتغيَّر ، فإن خيرية هذه الأمة هي ثابتة في العلم الإلٓهي القديم الذي لا أول له .

وقيل : المراد : كنتم خير أمة في اللوح المحفوظ ، أي : كتب الله تعالى ذلك في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف

سنة ، وأثبت ذلك عنده ، وفي هذا إشارة أيضاً إلى حقيَّة هذه الخيريّـة وتحققها لا محالة .

وقيل : المراد : كنتم في الكتب السابقة النازلة على الرسل قبلكم ، أي : كتبتم فيها أنكم يا أمة محمد ﷺ خير أمة .

قال عبد الله : وهذه الوجوه الثلاثة لا تنافِي بَينها ، وكلها داخلة تحت قوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ أي: كنتم في العلم القديم الإلٓهي ، ثم في اللوح المحفوظ ، ثم في الكتب النازلة من عند الله تعالى على رسل الله صلوات الله تعالى على رسولنا وعـليهم أجمعين ــ خير أمة ــ فخيريتكم ثابتة في العلم الإلٓهـي ، ومكتوبـة في اللـوح المحفـوظ الـذي لا يتبدل ، ومعلن عنها في الكتب السماوية .

الثانية : ﴿ كنتم خير أمة ﴾ والمعنى أنكم يا أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم خير أمة خَيِّرة ، فقد مضت قبلكم أمم خيّرة اتبعت رسلهـا وآمنت بأنبيائها ، فهؤلاء الذين مضوا قبلكم وآمنوا بأنبيائهم ورسلهم و لم يكفروا ــ هؤلاء كانوا أخيارًا ، ولكنكم أنتم يا أمة محمد ﷺ خير من أولئك كلهم ، كما ورد في الحديث الذي رواه الترمذي وأحمد وغيرهما عن معاوية بن حَيْدة رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إنكم تُتِمُّون ــ وفي رواية : توفون ــ سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله تعالى » .

وروى الإمام أحمد بسند حسن عن سيدنا علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآلـه وسلم : « أُعطيـتُ مـا لم يعـط أحـد من الأنبياء :

نصرتُ بالرعب ، وأعطيتُ مفاتيح الأرض، وسُمِّيتُ أحمد ، وجعل التراب لي طهوراً ، وجُعلتْ أمتي خير الأمم » .

الثالثة : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ أي : أُظهِرتْ في عالم الكيان والوجود ، وأُبرزتْ للعيان والشهود ، لنفع جميع الناس ، وإنَّ الذي أخرجهم لنفع جميع الناس هو الله رب العالمين ، والمعنى : أنكم يا أمة محمد ﷺ ، لقد أخرجكم الله تعالى إلى عالم الوجود ليوصل الخير والبرِّ ، والفلاح والنجاح بعضكم إلى بعض ، ولتوصلوا الخير والبر والفلاح والنجاح إلى من سِوَاكم من جميع طبقات الناس ولو كانوا على غير مِلَّتكم ، فإنكم أمة الخير ، وليس خيركم قاصراً عليكم فحسب ؛ بل هو متعدٍّ لجميع الناس ، لأنكم دُعاة خير وبر ودعاة رأفة ورحمة ، ودعاة فلاح وصلاح وليست دعوتكم قائمة على عصبية ولا عنصرية ، ولا جاهلية ولا طبقية ، بل هي قائمة على المودة والرحمة ، فأنتم أحرص الناس على إيصال الخير لجميع الناس ، وأحرص الناس على دفع الشر عن جميع الناس ، ومن ثمَّ كان من شأنكم ، ولازم وصفكم ، أنّكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، على وجه اللطف والنصيحة ، لا على وجه العنف والفضيحة .

الرابعة : ﴿ تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ .

والمعنى : **تأمُرون الناس** بما هو معروف أنه خير وبرّ ، وفيه الصلاح والفلاح ، ويكون أمركم بالمعروف على وجهٍ معروف دون إساءة لمن تأمرونه ولا خُشونة ، بل بالكلام الطيب ، والقول الليِّن ، والمقابلة الحسنة ، والوجه البشوش .

وتنهون الناس عن المنكر لأنه منكر يؤدي إلى المفاسد والمضارّ

والشرور ، وليكن نهيكم عن المنكر على وجه غير منكر ، فلا احتقار ولا ازدراء ولا غلظة ، فأنتم يا أمة محمد ﷺ متبعون لرسولكم الكريم وسائرون على منهجه القويم ، الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلُّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأَغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزَّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فبما رحمة من الله لنْتَ لهم ولو كنت فَظّاً غليظ القلب لانفضُّوا من حولك ﴾ الآية .

وأما قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ الآية فهذا في باب الجهاد ، إذا وقفوا موقف المعارضة والمحاربة والعناد ، لا في موقف الدعوة .

الخامسة : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ أي : وتؤمنون بالله اعتقاداً وقولاً وعملاً بامتثال أوامره ، واجتناب مناهيه ، وبذلك كله تكونون قد أدَّيتم الحقوق الواجبة عليكم .

روى ابن جرير أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ هذه الآية : ﴿ كنتم خير أمة ﴾ الآية ثم قال : (يا أيها الناس مَن سرّه أن يكون من تلكم الأمة فليؤدِّ شرط الله فيها) .

فقوله تعالى : ﴿ وتؤمنون بالله ﴾ يشمل الإيمان كله ـ الإيمان الاعتقادي القلبي ، والإيمان العملي والقولي .

قال تعالى : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ أي : صلاتكم وبقية عباداتكم العملية والقولية : من الصيام ، والقيام ، والزكاة ، والتهليل والتسبيح ، وتلاوة القرآن الكريم ، وغير ذلك .

وقال تعالى : ﴿ الذين يحملون العرش وَمَنْ حَوْله يُسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ﴾ أي : يصلون له ويسبحونه ، ويقدسونه ويحمدونه .

ومن المعلوم أن الإيمان هو قول وعمل .

والعمل نوعان : عمل قلبي ، وعمل قالبي : أي : بدني ـ فافهم ذلك .

وكما أعلن الله تعالى خيريَّة هذه الأمة على سائر الأمم ، أعلن أيضاً اصطفاءه لهذه الأمة فقال سبحانه : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ الآية كما تقدم .

فأمة المصطفى ﷺ هي الأمة المصطفاة .

وسوف أذكر بعض الخصائص المترتبة على خيريَّتها واصطفائها ، ثم أتكلم على آية ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ بتفصيل إن شاء الله تعالى .

مقام الشهادة على جميع الأمم قبلها

لما كانت هذه الأمة المحمدية ﷺ هي خير أمة وأكرم الأمم عند الله تعالى ـ أعطاها الله تعالى مقام الشهادة على الأمم قبلها ، فإذا كان يوم القيامة ودعا الله تعالى الرسل وأممهم إلى موقف الحساب وفصل القضاء ، وجمعَ الرسل بأممهم ، ويسأل الله تعالى عن موقف الأمم معهم ، ويسأل الأمم عن موقف الرسل معهم ، فهناك تجري الخصومة ـ قال تعالى : ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ .

وهناك يقول كل رسول : إنه بلغ قومه ، ونصح لهم ، وأزال عذرهم ، وينكر الكافرون من الأمم ويقولون : ما جاءنا من نذير ، فكل رسول يَدَّعي التبليغ والنصح التام ؛ وأمته الكافرة تنكر ذلك .

ومن المعلوم أن البيّنة على المدعي أولاً ـ فيطالب الله تعالى الرسل بمن يَشهد لهم ، فيقول كل رسول: يشهد لي محمد ﷺ وأمته، فتقدم أمة محمد ﷺ فتشهد بصدق الأنبياء ، وتبليغهم أممهم ، ويُعدِّلهم ويزكيهم سيدنا محمد ﷺ ، ويحكم الله تعالى وهو خير الحاكمين ، وتظهر حقية دعوى الرسل ، وتحق الكلمة على الأمم الكافرة ، ويفصل الله تعالى بقضائه .

روى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يُدعى نوح يوم القيامة ـ أي : يدعوه الله تعالى ـ فيقول : لبيك وسعديك يا ربِّ .

فيقول : هل بَلَّغتَ ؟، فيقول : نعم .

فيقال لأمته : هل بلَّغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير .

فيقول : مَنْ يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ـ فيشهدون أنه قد بلَّغ ، فذلك قوله جلَّ ذكره : ﴿ وَكذلك جَعَلْناكم أمّة وَسَطاً لِتَكونوا شُهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ ».

ومعنى قوله تعالى : ﴿ جَعَلْناكم أمّةً وَسَطاً ﴾ أي : جعلناكم خِيَاراً عُدُولاً أزكياء بتزكية رسول الله ﷺ وبتعديله لكم .

فالوَسَطِيَّةُ هنا ليست زمانية ولا مكانية ، وإنما هي وسطية الفضل والخير .

فإن الوسط مجمع كمال الطرفين المتقابلين .

فيقال : صفة الكرم هي : وسط بين وصف البخل والإسراف .

وذلك أن البخل وهو الإمساك فإنه خير إذا أمسك وبخل في أمر يترتب عليه شر ، وإنه شرٌّ إذا أمسك عن الخير .

والإسراف وهو البذل فإن كان في خير فلا سرف في الخير بل هو خير ، وإن كان في الشر فهو الشر المذموم .

فالكرم هو مجمع كمال الطرفين : بذل في الخير وإمساك عن الشر ، فيأخذ خير الطرفين ويترك شر الطرفين .

وكذلك جاء في الحديث : « خَيْرُ الأُمور أَوْساطها » .

فهذه الأمة المحمدية ، المتَّبعة لسيدنا محمد ﷺ ، هي مجمع الكمالات ، وإنما نالت هذا الشرف في الكمال بفضل رسولها ﷺ ، الذي هو المثل الأكمل ، والمعلِّم الأفضل ﷺ .

وروى الإمام أحمد وغيره عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يجيء النبيّ يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك ، فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلَّغكم هذا ؟ ـ أي : نبيكم ، فيقولون : لا .

فيقال له : هل بلَّغتَ قومك ؟ فيقول : نعم ، فيقال مَنْ يشهد لك ؟ فيقول : محمد ﷺ وأمته .

فيقال لهم : ـ أي : لأمة سيدنا محمد ﷺ ـ هل بلَّغ هذا قومه ؟ فيقولون : نعم .

فيقال لأمة محمد ﷺ : وما علمكم بذلك ؟ فيقولون : جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلّغوا ، فصدَّقناه ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ ».

فأكرِمْ بهذا المنصب الشريف ، والمقام المنيف ، الذي أكرم الله تعالى به أمة حبيبه الأكرم ﷺ ـ إنه مقام رفيع عزيز ، يعلو على جميع الأمم .

روى ابن مَرْدُوْيَه وابن أبي حاتم وغيرهما عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أنا وأمتي يوم القيامة على كَوْم ـ أي : مستوى عالٍ ـ مُشرِفين على الخلائق ، وما من الناس أحد إلا وَدَّ أنه مِنّا ، وما

مِنْ نبيّ كذبه قومه إلا ونحن شهداء أنه قد بلَّغ رسالة ربه عز وجلّ » .

ولما كان منصب الشهادة شريفاً ، ومقاماً كريماً ، كان حقيقاً بأن يَطمع فيه المسلم العاقل ويطمح إليه ، ويسأل الله تعالى من فضله أن يجعله من أهله ، كما أخبر الله تعالى عن العقلاء الأذكياء بقوله : ﴿ وإذا سمعوا ما أُنزِل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عَرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية الكريمة : (أي : فاكتبنا مع محمد ﷺ وأمته ، وهم الشاهدون الذين يشهدون لنبيِّهم أنه قد بلَّغ ، ويشهدون للرسل أنهم قد بلَّغوا)[1] .

اللهم ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ، بنور وجهك الكريم يا رب العالمين .

وهذا المنصب الشريف إنما يناله من كان تقيَّ القلب ، سليم الصدر ، طيِّب اللسان .

أما من كان آثم القلب ، سقيم الصدر ، أو بذيء اللسان ، فهو مجروم كما تشير إلى ذلك الأحاديث التالية :

روى مسلم وأبو داود وغيرهما عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يكون اللعَّانون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة » .

وروى الحكيم الترمذي عن حبان بن أبي جبلة قال : « بلغني أنه ترفع

---

(١) رواه الحاكم وغيره .

أمة محمد ﷺ على كوم – أي : مكان مرتفع على غيرهم – بين يدي الله عز وجل ، تشهد للرسل على أممها بالبلاغ ، وإنما يشهد منهم يومئذٍ من لم يكن في قلبه إحنة – أي : حقد وغِلّ – على أخيه المسلم » .

فمن كان في قلبه حقد ، أو حسد ، أو غل ، أو بُغض ، أو كبر ، أو ازدراء ، أو غشّ فهو محروم بعيد عن الله تعالى وعن رسول الله ﷺ ، لا ينال مقام الشاهدين .

ففي الحديث عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحبكم إليَّ وأقربكم مني في الآخرة أحاسنكم أخلاقاً ، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني في الآخرة أسوأكم أخلاقاً الثرثارون المتفيهقون المتشدِّقون »(١) .

وروى الطبراني عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : « ليس مني ذو حسدٍ ولا نميمة ولا كهانة ولا أنا منه » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس منا من غشَّ »(٢) .

وروى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس منا من لم يُجِل كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالِمنا حقه » .

---

(١) قال في (الترغيب): رواه أحمد ورواته رواة الصحيح ، والطبراني ، وابن حبان في (صحيحه). اهـ . **والثرثار** هو : كثير الكلام تكلفاً ، **والمتشدق** هو : الذي يتكلم بملء شدقه وتعظيماً لكلامه ، **والمتفيهق** هو : الذي يتوسع في كلامه استعلاءً وتكبراً .

(٢) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه وغيرهم .

وروى الترمذي عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويوقر كبيرنا » .

وزاد الطبراني في روايته : « ولا يكون المؤمن مؤمناً حتى يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس منا مَنْ لم يتغنّ بالقرآن »[1] .

فقد تبرأ رسول الله ﷺ من انتساب هؤلاء إليه ، فلا نصيب لهم من مقام الشهداء ، الذين قال تعالى فيهم : ﴿ وكذلك جعلناكم أمّةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ .

ومن تابَ توبةً نصوحاً تاب الله تعالى عليه .

قبول شهادة هذه الأمة على بعضها تكرمةً من الله تعالى لها

روى البخاري وغيره عن عمر رضي الله عنه قال : (قال رسول الله ﷺ : « أيُّما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة » ، قلنا : يا رسول الله وثلاثة ؟ قال : « وثلاثة » ، قلنا : يا رسول الله واثنان؟ قال: « واثنان » ، ثم لم نسأله عن الواحد) .

وروى البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس رضي الله عنه قال : (مُرَّ على النبي ﷺ بجنازة فأثنوا عليها خيراً فقال : « وجبتْ » .

ثم مُرَّ بجنازة أخرى فأثنوا عليها شراً فقال : « وجبتْ » .

(١) ورواه الإمام أحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم عن سعد .

فقيل : يا رسول الله قلت لهذا وجبت ولهذا وجبت ؟

فقال ﷺ « مُرَّ بجنازة فأثنيتم عليها خيراً ، فقلت : وجبت له الجنة ، ومر بجنازة فأثنيتم عليها شراً فقلت : وجبت له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض » ــ أي : شهادة المؤمنين مقبولة وواجبة ، ــ أي : ثابتة ــ ، والمؤمنون شهداء الله في الأرض ، فشهادتهم مقبولة ، كما أن الملائكة شهداء الله في السماء وشهادتهم مقبولة كما يدل عليه الحديث الآتي .

روى ابن أبي شيبة والطبراني وغيرهما عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : (مُرَّ على النبي ﷺ بجنازة رجل من الأنصار فأثني عليها خيراً ، فقال : « وجبت » .

ثم مرَّ عليه بجنازة أخرى فأثني عليها دون ذلك ، فقال :« وجبت »

فقالوا يا رسول الله : وما وجبتْ ؟

فقال ﷺ : « الملائكة شهود الله في السماء ، وأنتم شهود الله في الأرض ») .

وروى الإمام أحمد وابن ماجَهْ وغيرهما عن أبي زهير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم » .

قالوا : بمَ يا رسول الله ؟

قال : « بالثناء الحسن والثناء السيء ، أنتم شهداء الله في الأرض » .

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى : قال بعضهم : معنى الحديث : أن الثناء بالخير لمن أثنىٰ عليه أهل الفضل وكان ذلك مطابقاً للواقع ــ فهو من أهل الجنة ، فإن كان غير مطابق فلا وكذا عكسه .

قال النووي : والصحيح أنه ــ أي : الحديث السابق الذي فيه « وجبت وجبت » هو على عمومه وأن مَنْ مات منهم فألهم الله تعالى الناس الثناء عليه بخير كان دليلاً على أنه من أهل الجنة ، سواء كانت أفعاله تقتضي ذلك أم لا ، فإن الأعمال داخلة تحت المشيئة ، وهذا إلهامٌ يستدل به على تعيينها أي : تعيين المشيئة ، وبه تظهر فائدة الثناء . اهـ .

قال الحافظ ابن حجر : وهذا في جانب الخير واضح ، ويؤيده ما رواه أحمد وابن حبان والحاكم من طريق حَماد بن سلمة عن ثابت عن أنس مرفوعاً : « ما من مسلم يموت فيشهد له أربعة من جيرانه الأدنين ــ أي : الأقربين إليه ــ أنهم لا يعلمون منه إلا خيراً إلا قال الله تعالى : قد قبلت قولكم وغفرت له ما لا تعلمون » .

وفي رواية لأحمد : « ثلاثة » بدل أربعة .

قلت : وفي رواية أبي يعلى وابن حبان في (صحيحه): « إلا قال الله تعالى قد قبلت علمكم فيه ، وغفرت له ما لا تعلمون » .

قال الحافظ وأخرج الخطيب في (تاريخه) عن أنس مرفوعاً : « ما من مسلم يموت فيشهد له رجلان من جيرانه الأدنين فيقولان : اللهم لا نعلم إلا خيراً ، إلا قال الله تعالى للملائكة : اشهدوا أني قد قبلت شهادتهما ، وغفرت له ما لا يعلمان » ــ أي : من ذنوبه .

قال الحافظ : وأما جانب الشر فظاهر الأحاديث أنه كذلك لكن إنما يقع ذلك أي : وجبت له النار إذا شهدوا في حق مَنْ غلب شره على خيره ، وقد وقع في آخر حديث أنس : « أن لله ملائكة في الأرض تنطق على ألسنة بني آدم بما في المرء من الخير والشر » رواه الحاكم والبيهقي .

وقد اشتهر على ألسنة السلف الصالح قولهم : ألسنة الخلق أقلام الحق . اهـ .

قال الحافظ المنذري : وروى أحمد عن شيخ من أهل البصرة لم يُسمِّه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يرويه عن ربه عز وجلَّ قال : « ما من عبد مسلم يموت فيشهد له ثلاثة أبيات من جيرانه بخير إلا قال الله عز وجل : قد قبلتُ شهادة عبادي على ما علموا ، وغفرت له ما أعلم » .

أي : غفر الله تعالى ذنوبه الخفية التي يعلمها الله تعالى ، ولكنهم لا يعلمونها ، وهذا من باب الفضل والمنَّة ، تكرمةً من الله تعالى لهذه الأمة ، وتحقيقاً لظنها الحسن بعضها في بعض ، وأن فطرة المؤمنين مستقيمة ، وقلوبهم سليمة غير لئيمة ولا سقيمة ، يُثنون على أخيهم المؤمن بما ظهر لهم من أمره الحسن دونَ أن يتتبعوا زَلاَّته الخفيَّة ، وعثَراته الداخلية ، حتى يشرحوه ويفضحوه ويَكشفوا عنه ستره ، فما مِن أحدٍ يكشف الستر عن أخيه المسلم ؛ إلا كشف الله تعالى ستره ، وما من أحدٍ يستر على أخيه المسلم إلا ستر الله تعالى عليه في الدنيا والآخرة .

اللهم اجعلنا هادين مهديين ، ساترين مستورين ؛ برحمتك يا أرحم الراحمين .

قال ﷺ في خطبةٍ له : « يا معشر من أسلم بلسانه و لم يُفضِ الإيمان إلى قلبه ، لا تؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبَّع الله عورته ، ومَنْ تتبع الله عورته ، يفضحه ولو في جوف رحله » رواه الترمذي وغيره .

إكرام الله تعالى لهذه الأمة

بشفاعات خاصة من رسولها سيدنا محمد ﷺ

إن سيدنا محمداً ﷺ له شفاعة عامّة تعمُّ جميع أهل الموقف : بَرّهم وفاجرهم ، ومؤمنهم وكافرهم ، ينقذهم من أهوال الموقف وكرباته ، وشدائده وأهواله الشديدة المديدة .

وله ﷺ شفاعات خاصة بأمته وهي أنواع متعددة :

شفاعته في أهل الكبائر من أمته قد استحقوا العذاب ولكن يغفر الله تعالى لهم بشفاعته ﷺ .

وهناك شفاعات في أهل الكبائر قد استحقوا العذاب ، ودخلوا النار ، فيشفع بهم رسول الله ﷺ فأخرجوا من النار على طبقات ، وعلى أصنافٍ متعددة ، ولولا شفاعاته بهم ﷺ لبقوا مدداً طويلة وآماداً مديدة : ويدلك على ذلك الأحاديث الآتية :

الشفاعة العامَّة

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (أُتِي لرسول الله ﷺ : يوماً بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهس منها نهسة :

فقال ﷺ : « أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون بم ذاك ؟

يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد فَيسمَعهم الداعي ، وينفذهم البصر ، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب

ما لا يطيقون ، وما لا يحتملون .

فيقول بعض الناس لبعض : ألا تَروْن ما أنتم فيه ؟ ألا ترون ما قد بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟.

فيقول بعض الناس لبعض : إئتوا آدم .

فيأتون آدم فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ــ إشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا ؟ ــ أي : من الهم والكرب .

فيقول آدم : إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته .

نفسي نفسي إذهبوا إلى غيري إذهبوا إلى نوح ﷺ .

فيأتون نوحاً فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض ، وسمّاك الله عبداً شكوراً ، إشفع لنا إلى ربك ــ ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا ؟ .

فيقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتُ بها على قومي .

نفسي نفسي إذهبوا إلى إبراهيم ﷺ .

فيأتون إبراهيم فيقولون : أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا إلى ربك ــ ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا ؟

فيقول لهم إبراهيم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ــ وذكر كَذَباته .

نفسي نفسي إذهبوا إلى غيري إذهبوا إلى موسى ﷺ .

فيأتون موسى فيقولون: ياموسى أنت رسول الله ، فضَّلك الله برسالاته وبتكليمه على الناس ، اشفع لنا إلى ربك – ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بَلَغنا ؟

فيقول لهم موسى ﷺ : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإني قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها .

نفسي نفسي إذهبوا إلى عيسى ﷺ .

فيأتون عيسى فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله ، وكلّمْتَ الناس في المهد ، وكلمةٌ منه ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، فاشفع لنا إلى ربك – ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا ؟

فيقول لهم عيسى ﷺ : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله .

نفسي نفسي إذهبوا إلى غيري ، إذهبوا إلى محمد ﷺ .

فيأتوني فيقولون : يا محمد أنت رسول الله ، وخاتم الأنبياء ، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، إشفع لنا إلى ربك – ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بَلَغَنا ؟

قال ﷺ : فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي ثم يفتح الله عليَّ ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلي .

ثم يقول سبحانه : **يا محمد** : **إرفع رأسك** ، **وقل يسمع لك** ، **وسَلْ تعطه** ، **واشفع تُشَفَّع** .

فأرفع رأسي فأقول : يا رب أمتي أمتي .

فيقال : يا محمد أدخِل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ».

قال ﷺ : « والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر ، أو كما بين مكة وبُصرى » .

وأصل هذا الحديث متفق عليه لدى الصحاح والسنن والمسانيد .

فهو ﷺ يشفع أولاً في أهل الموقف عامة ، ثم يشفع الشفاعات الخاصة :

شفاعته ﷺ بالمذنبين من أمته :

روى الشيخان واللفظ لمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجَّلَ كل نبيٍّ دعوته ، وإني أخبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، فهي نائلة إن شاء الله مَنْ مات لا يُشرك بالله شيئاً » .

والمعنى : أن كل نبي له دعوة عامة في أمته ، ظاهرة الأثر فيهم ، وهي مستجابة لا محالة ، يدل على ذلك الرواية الثانية عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل نبي دعوة دعا بها في أمته ، فاستجيب له ، وإني أريد إن شاء الله أن أؤخر دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة » .

وروى الطبراني والبزار بسند جيد عن عبد الرحمن بن أبي عقيل رضي الله عنه قال : (انطلقت في وفدٍ إلى رسول الله ﷺ فقال قائل منا : يا رسول الله : ألا سألتَ ربكَ مُلكاً كملك سليمان ؟.

قال : فضحك رسول الله ﷺ ثم قال : « فلعلَّ لصاحبكم ــ أي رسولكم محمد ﷺ ــ عند الله أفضل من ملك سليمان .

إن الله لم يبعث نبياً إلا أعطاه دعوة .

منهم من اتخذها دنيا ــ أي : في منافع الدنيا لأمته ــ فأعطيها .

ومنهم من دعا بها على قومه إذ عصوه فأهلكوا بها ــ أي: كنوح عليه السلام ــ

وإن الله تعالى أعطاني دعوة فاختبأتها عند ربي شفاعةً لأمتي يوم القيامة ») .

شفاعته ﷺ بالعصاة المذنبين

استحقوا العذاب فلم يدخلوا النار بشفاعته ﷺ

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » رواه أبو داود وغيره من أصحاب السنن .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في حديثه عن رسول الله ﷺ أنه يقوم بين يدي ربه فيقول : « يا رب : أمتي أمتي .

فيقول الله عزَّ وجلَّ : يا محمد ما تريد أن أصنع بأمتك ؟.

فأقول : يا ربِّ عجِّل حسابهم .

فيدعى بهم فيحاسَبُون .

فمنهم مَنْ يدخل الجنة برحمته .

ومنهم من يدخل الجنة بشفاعتي .

فما أزال أشفع حتى أعطى صِكاكاً ـ أي : كتباً ـ برجال ـ أي : بأسماء رجال ـ قد بُعث بهم إلى النار ، حتى إن مالكاً خازن النار ليقول : يا محمد ما تركتَ لغضب ربك في أمتك من بقية »[1] .

وروى أصحاب السنن عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » .

وهذا سجل شفاعته ﷺ بمن له ذنوب وكبائر ، استحقوا العذاب فجاءت شفاعته بهم فلم يدخلوا النار كما تقدم .

ويشمل المذنبين من أهل الكبائر الذين استحقوا العذاب فدخلوا النار بذنوبهم ، ثم أُذن له ﷺ بالشفاعة بهم قبل مضي مدتهم التي استحقوها ، فيخرجهم على طبقات متفاوتة ، كما سيتضح لك إن شاء الله تعالى .

---

(١) قال المنذري : رواه الطبراني في (الكبير والأوسط) والبيهقي في (البعث) وليس في إسنادهما من ترك . اهـ .

شفاعته ﷺ فيمن دخلوا النار بذنوبهم فيخرجهم على أصناف

روى الشيخان واللفظ لمسلم عن أنس رضي الله عنه قال : حَدثنا محمد رسول الله ﷺ قال :

« إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض .

فيأتون آدم فيقولون : اشفع لذريتك فيقول : لست لها ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله ــ هكذا الرواية ولم يذكر نوحاً اختصاراً ــ .

فيأتون إبراهيم فيقول : لست لها ولكن عليكم بموسى عليه السلام فإنه كليم الله .

فيؤتى موسى فيقول : لست لها ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمته .

فيؤتى عيسى فيقول : لست لها ولكن عليكم بمحمد ﷺ .

فأوتى فأقول : أنا لها .

فأنطلق فأستأذن على ربي فيؤذن لي ، فأقوم بين يديه فأحمده بمحامد لا أقدر عليه ــ أي: ذلك الحمد ــ الآن يلهمنيه الله تعالى ، ثم أَخِرّ ساجداً .

فيقال لي : يا محمد إرفع رأسك ، وقل يُسمع لك وسَلْ تعطه ، واشفع تشفَّع .

فأقول : يا رب : أمتي أمتي .

فيقال : انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من بُرَّةٍ أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها .

فأنطلق فأفعل .

ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد ثم أخرُّ له ساجداً .

فيقال لي : يا محمد ارفع رأسك ، وقل : يسمع لك ، وسل تعطه ، واشفع تشفَّع .

فأقول : يا رب : أمتي أمتي .

فيقال لي : انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردلٍ من إيمان فأخرجه منها .

فأنطلق فأفعل .

ثم أعود إلى ربي فأحمده بتلك المحامد ثم أخرُّ له ساجداً .

فيقال لي : يا محمد ارفع رأسك ، وقل : يسمع لك ، وسلْ تعطه ، واشفع تشفع .

فأقول ياربِّ : أمتي أمتي .

فيقال لي : انطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار .

فأنطلق فأفعل » .

وروى مسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أمَّا أهل النار الذين هم أهلها ـ أي: الكفار بأنواعهم ـ فإنهم

لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن ناس ـ أي : مسلمون ـ أصابتهم النار بذنوبهم ـ أو قال : بخطاياهم ـ فأماتتهم إماتة ، حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة فجيء بهم ، ضبائر ضبائر ـ أي : جماعات بعد جماعات ـ فبثُّوا على أنهار الجنة .

ثم قيل : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم ـ أي : من نهر الحياة ـ فينبتون نبات الحبّة تكون في حميل السيل » .

فقال رجل من القوم : كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية ـ أي : لأنه يعرف أحوال البادية وأجواءها ـ .

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى : والظاهر والله أعلم من معنى هذا الحديث أن الكفار الذين هم أهل النار والمستحقون للخلود لا يموتون فيها ولا يحيون حياة ينتفعون بها ويستريحون كما قال تعالى فيهم : ﴿ لا يُقْضَى عليهم فَيَموتوا ولا يُخَفَّفُ عنهم من عذابها ﴾ ، وكما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ .

قال رحمه الله تعالى : وأما قوله ﷺ : « ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم » إلى آخره ، فمعناه : أن المذنبين من المؤمنين يميتهم الله تعالى إماتة بعد أن يعذبوا المدة التي أرادها الله تعالى .

وهذه إماتة حقيقية يذهب معها الإحساس ويكون عذابهم على قدر ذنوبهم ، ثم يميتهم ، ثم يكونون محبوسين في النار من غير إحساس فحماً ، فيحملون ضبائر ضبائر ـ أي : جماعات جماعات ـ كما تحمل الأمتعة ويلقون على أنهار الجنة ، فيصب عليهم ماء الحياة ، فيحيون وينبتون ـ أي : تنبت أجسادهم ـ نبات الحبة في حميل السيل : في سرعة نباتها

وضعفها ، فتخرج لضعفها صفراء ملتوية ، ثم تشتد قوتهم بعد ذلك ، ويصيرون إلى منازلهم ـ أي : في الجنة ـ وتكمل أحوالهم ، **قال رحمه الله تعالى** : فهذا هو الظاهر من لفظ الحديث ومعناه . ا هـ .

قال عبد الله غفر الله له : وهذا القول مبني على أن الموت لم يذبح بين الجنة والنار على السور عند دخول المعذبين النار ، وإنما يذبح بعدما يخرج العصاة كلهم من النار ويدخلون الجنة ، ولا يبقى في النار إلا المخلدون أبداً .

قال ﷺ :«يؤتى بالموت كأنه كبش أملح ، حتى يوقف على السور بين الجنة والنار ثم يقال:يا أهل الجنة ، ويا أهل النار هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت فيضجع ويذبح »

قال ﷺ : « فلولا أن الله تعالى قضى لأهل الجنة بالحياة والبقاء لماتوا فرحاً ، ولولا أن الله تعالى قضى لأهل النار بالحياة والبقاء لماتوا ترحاً » .

فالموت يموت بالذبح ، فلا يبقى موت لأهل الجنة ، ولا لأهل النار .

ثم قال الإمام النووي رحمه الله تعالى : وحكى القاضي عياض رحمه الله تعالى فيه : ـ أي : في معنى الحديث السابق ـ وجهين :

أحدهما : إماتة حقيقية ـ أي : كما تقدم ـ .

والثاني : ليست بموت حقيقي ، ولكن يغيب عنهم إحساسهم بالآلام ـ أي : بدليل قوله ﷺ : «فأماتتهم إماتة » ـ أي : نوعاً من الإماتة غير المعهودة .

قال : ويجوز أن تكون آلامهم أخفّ . اهـ .

يعني : أن تحسس العصاة بالعذاب يكون أخف من تحسس الكفار بسبب الإيمان في قلوبهم ، فإن النار لا تطلع على أفئدتهم ، بخلاف الكفار فإن النار تطلع على أفئدتهم ، وتعم كل ذرة فيهم ــ عياذاً بالله تعالى ، قال سبحانه : ﴿ نار الله الموقدة . التي تطلع على الأفئدة ﴾ .

ثم قال الإمام النووي رحمه الله تعالى : فهذا كلام القاضي ــ والمختار ما قدمناه والله أعلم . اهـ

العصاة الذين يخرجون من النار
بشفاعته صلى الله عليه وآله وسلم
لا يحصي عددهم إلا الله تعالى

روى الطبراني في (الكبير والصغير) بإسناد حسن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « يدخل من أهل هذه القبلة النار مَنْ لا يحصي عددهم إلا الله بما عصوا الله تعالى ، واجترؤا على معصيته ، وخالفوا طاعته ، فيؤذن لي في الشفاعة ، فأثني على الله تعالى ساجداً كما أثني عليه قائماً ــ أي : بين يدي رب العزة تحت عرشه ــ . فيقال لي : يا محمد ارفع رأسك ، وسَلْ تعطه واشفع تشفَّع » .

شفاعته ﷺ بأمته واسعة رحمةً بأمته

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « خُيِّرتُ بين الشفاعة أو يدخل نصف أمتي الجنة ، فاخترت الشفاعة لأنها أعمُّ وأكفى .

أَمَا إنها ليست للمؤمنين المتقدمين ـ أي : السلف الصالح من هذه الأمة المحمدية ﷺ ـ ولكنها للمذنبين الخطَّائين المتلوِّثين »[1] .

وفي حديث عوف بن مالك رضي الله عنه الطويل قال : فقال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بما خيِّر لي ربي آنفاً ».

قلنا : بلى يا رسول الله .

قال : « خيِّرني ربي بين أن يدخل ثلثي أمتي الجنة بغير حساب ولا عذاب ، وبين الشفاعة ».

قلنا : يا رسول الله ما الذي اخترت ؟

قال : « اخترت الشفاعة » .

قلنا جميعاً : يا رسول الله اجعلنا من أهل شفاعتك .

فقال : « إن شفاعتي لكل مسلم »[2] .

وفي رواية ابن حبان قال رسول الله ﷺ : « أتاني آتٍ من ربي فخيَّرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة » .

فقال القوم : يا رسول الله اجعلنا منهم .

فقال ﷺ : « أنصتوا أنصتوا » ، ثم قال رسول الله ﷺ : « هي لمن مات لا يشرك بالله شيئاً » .

---

(١) قال الحافظ المنذري : رواه أحمد والطبراني واللفظ له وإسناده جيد ، ورواه ابن ماجه من حديث أبي موسى الأشعري بنحوه . اهـ .

(٢) قال المنذري : رواه الطبراني بأسانيد أحدها جيد ؛ ورواه ابن حبان في (صحيحه) بنحوه . اهـ .

الله تعالى
يرضي حبيبه محمداً ﷺ في أمته ولا يسوؤه

روى مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ تلا قول الله تعالى في إبراهيم : ﴿ رَبِّ إنهنَّ أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ .

وقال عيسى عليه السلام : ﴿ إنْ تُعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

فرفع ﷺ يديه وقال : « اللهم أمتي أمتي وبكى »

فقال الله عزَّ وجلَّ : « يا جبريل اذهب إلى محمد — وربك أعلم — فسَلْه ما يبكيك » ؟

فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال — وهو أعلم — .

فقال الله تعالى : « يا جبريل إذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك » .

اللهم اجعلنا من خاصة أمته ﷺ بجاهه عندك .

وروى البزار والطبراني بإسناد حسن عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ قال : « أشفع لأمتي حتى يناديني ربي تبارك وتعالى فيقول : أقد رضيت يا محمد ؟ فأقول : إي ربِّ رضيت » .

فلا يزال ﷺ يشفع بأمته حتى لا يبقي أحداً من العصاة في النار ، ويخرجهم على طبقات متفاوتة كما تقدم .

شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم بمَنْ قال لا إله إلا الله

روى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك قام من الليل يصلي ، فاجتمع رجال من أصحابه يحرسونه حتى إذا صلى وانصرف إليهم فقال لهم :

« لقد أعطيت الليلة خمساً ما أعطيهن أحد قبلي :

أمَّا أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامَّة ، وكان من قبلي إنما يُرسَل إلى قومه .

ونصرت على العدوِّ بالرعب ولو كان بيني وبينه مسيرة شهر مُلِئَ منه – أي : من الرعب – .

وأحلِّتْ لي الغنائم أُكلها – وكانَ مَنْ قبلي يُعظمون أكلها وكانوا يحرقونها .

وجعلت لي الأرض مساجد وطهوراً – أينما أدركتني الصلاة تمسَّحتُ – أي : تيممتُ إذا لم نجد الماء – وصَلَّيتُ ، وكان من قبلي يعظمون ذلك وإنما كانوا يصلّون في كنائسهم وبيعهم .

والخامسة هي ما هي – أي : شأنها كبير – قيل لي : سَلْ فإن كل نبيٍّ قد سأل ، فأخَّرتُ مسألتي إلى يوم القيامة ، فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله » .

والمعنى : أن شفاعته ﷺ تعم الصحابة وكل من يأتي بعدهم إلى

يوم القيامة ممن يشهد أن لا إله إلا الله أي : مع شهادة محمد رسول الله ﷺ ، وذلك لأن هذه الشفاعة هي دعوته التي اختبأها شفاعة يوم القيامة لأمته ــ أي : الذين آمنوا به ــ كما تقدم في الأحاديث السابقة : « وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة » .

شفاعته ﷺ بالمصلين عليه ﷺ في كل وقت وحين عدد ما وسعه علم الله رب العالمين وعلينا معهم أجمعين

روى ابن أبي داود عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يوم حجة الوداع يقول :

« إن الله تعالى قد غفر لكم ذنوبكم عند الاستغفار فمن استغفر بنيّة صادقة غفر له ، ومن قال لا إله إلا الله رجح ميزانه ، ومَنْ صلّى عليَّ كنت شفيعه يوم القيامة »(١)

وروى البيهقي عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أكثروا من الصلاة عليَّ في يوم الجمعة وليلة الجمعة ، فمن فعل ذلك كنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

« مَنْ صلَّى عليَّ عشراً صلّى الله عليه مائة ، ومَنْ صلَّى عليَّ مائة صلَّى الله عليه ألفاً ، ومن زاد صَبابةً وشوقاً كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة »(٢) .

---

(١) وقال في الصلات والبشر : أخرجه الحسن بن أحمد بسند جيد . اهـ .

(٢) قال الحافظ السخاوي : أخرجه أبو موسى المديني بسندٍ قال الشيخ : لا بأس به . اهـ .

شفاعته ﷺ بمن سأل الله تعالى له الوسيلة

روى الإمام مسلم وأبو داود والترمذي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا سمعتم النداء — أي : الأذان — فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلّوا عليَّ ، فإنه من صلى عليَّ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشر صلوات ، ثم سَلُوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا ينبغي أن تكون إلا لعبد » .

وفي رواية الترمذي : « إلا لرجل واحد وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلَّتْ له شفاعتي يوم القيامة » .

شفاعته ﷺ بمن زاره بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم

روى البيهقي وابن عدي عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال :

« مَنْ زار قبري وجبت له شفاعتي » .

وروى البيهقي عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

« مَنْ زارني بالمدينة محتسباً كنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة » .

شفاعته ﷺ بمن مات في مدينته المنوَّرة

بأنواره صلى الله عليه وآله وسلم

روى الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« من استطاع منكم أن يموت في المدينة فليمت بها ، فإني أشفع لمن يموت بها » .

رسول الله ﷺ هو فاتح باب الشفاعة عند الله الذي يشفِّع الله تعالى به علماء أمته وشهداءهم وقراءهم وصلحاءهم :

روى ابن ماجه عن عثمان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء » .

وروى الأصبهاني والبيهقي عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « يجاء بالعالم والعابد يوم القيامة ، فيقال للعابد: أدخل الجنة ، ويقال للعالم : قف حتى تشفع للناس بما أحسنت إليهم » .

وروى أبو داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته » .

وروى الترمذي عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ القرآن فاستظهره فأحل حلاله ، وحرَّم حرامه ــ أدخله الله الجنة ، وشفَّعه في عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار » .

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « قد أعطي كل نبيٍّ عطية ، فكلٌّ قد تعجَّلها ، وإني أخَّرتُ عَطيّتي شفاعة لأمتي ، وإن الرجل من أمتي ليشفع للفئام ــ أي : الجماعات من الناس ــ فيدخلون الجنة ، وإن الرجل ليشفع للقبيلة ، وإن الرجل ليشفع للعصبة ، وإن الرجل ليشفع للثلاثة والرجلين والرجل ».

وفي رواية : « وإن الرجل ليشفع للرجل من أهل بيته فيدخلون الجنة بشفاعته » .

مضاعفة الله تعالى الأجور لهذه الأمة المحمدية

إن من إكرام الله تعالى لهذه الأمة المحمدية ﷺ أنه سبحانه ضاعف لهم أجورهم على أعمالهم بالنسبة لمن قبلهم مضاعفة عامة ، كما ضاعف لهم مضاعفات خاصة أيضاً وقد أكرمهم بأجر كبير ، وثواب وفير على أعمالٍ قليلة يعملونها ــ في أزمنة خاصة أو أمكنة خاصة .

روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إنما مثلكم واليهود والنصارى ، كرجل استعمل عمالاً فقال : من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط ، فعملت اليهود على قيراط قيراط ثم عملت النصارى على قيراط قيراط » .

وفي رواية : « فقال من يعمل لي مِنْ نصف النهار الى صلاة العصر على قيراط ، فعملت النصارى ، ثم أنتم الذين تعملون ــ أي : أنتم يا أمة محمد ﷺ الذين تعملون ــ من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين .

فغضبت اليهود والنصارى وقالوا : نحن أكثر عملاً وأقل عطاءً ؟
قال : هل نقصتكم من حقكم ؟ قالوا : لا .
قال : فذلك فضلي أوتيه مَنْ أشاء » .
وفي رواية : « فقال الله تعالى : هل ظلمتكم من حقكم شيئاً ؟
قالوا : لا – أي بل أخذنا حقنا المشروط قيراطاً قيراطاً – .
فقال : – أي فقال الله تعالى – فذلك فضلي أوتيه من أشاء »[1] .

قال الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى : والمراد بالحديث تشبيه من تقدم – أي : من أهل الكتاب – بأول النهار إلى الظهر والعصر في كثرة العمل الشاق وكثرة التكاليف ، وتشبيه هذه الأمة بما بين العصر والليل في قلة ذلك وتخفيفه ، وليس المراد طول الزمن وقصره ، إذ مدة هذه الأمة أطول من مدة أهل الإنجيل . اهـ .

ولقد عامل الله تعالى هذه الأمة المحمدية ﷺ بالفضل فضاعف لهم أجرهم على أعمالهم مضاعفة عامة .

وأما المضاعفات الخاصة بأن الحسنة الواحدة هي بعشر إلى سبعين إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، فهذا فضل آخر من الله تعالى على هذه الأمة .

روى ابن حبان في (صحيحه) والبيهقي في (الشعب) وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (لما نزلت : ﴿ مَثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ﴾ الآية .
قال رسول الله ﷺ : « ربِّ زد أمتي » .

(١) انظر صحيح البخاري – كتاب الإجارة وكتاب الصلاة .

فنزلت : ﴿ مَنْ ذَا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ .

قال ﷺ : « ربِّ زد أمتي »

فنزلت : ﴿ إنّما يُوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾) .

وجاء في رواية ابن المنذر عن سفيان بن عبد الله : لما نزلت : ﴿ مَنْ جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ :

قال ﷺ : « ربِّ زد أمتي » .

فنزلت : ﴿ مَنْ ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً ﴾ الآية .

فقال ﷺ : « ربِّ زد أمتي »

فنزلت : ﴿ مَثَلُ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ﴾ الآية .

فقال ﷺ « ربِّ زد أمتي » .

فنزلت : ﴿ إنَّما يُوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ .

والقرض الحسن الذي رغبنا الله تعالى فيه الوارد في هذه الآية الكريمة يشتمل كل عمل صالح ، وكل كلام طيِّب ، وأعمال الخير كلها ، ولذلك كان بعض السلف الصالح إذا سمع قول الله تعالى : ﴿ مَنْ ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ﴾ يقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ـــ هذا القرض الحسن . اهـ .

فالله تعالى يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم .

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الله ليضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة » .

ثم تلا أبو هريرة : ﴿ إن الله لا يَظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ .

قال أبو هريرة رضي الله عنه : إذا قال الله تعالى : ﴿ أجراً عظيماً ﴾ فمَن يقدر قدره !؟.

كما أنه سبحانه تفضل على هذه الأمة المحمدية ﷺ بمضاعفة ثواب أعمال يعملونها في أزمنة معينة وأمكنة معينة هي بالظاهر قليلة ولكن ثوابها عظيم كبير ــ فضلاً منه وكرماً :

فهناك العمل في ليلة القدر فإنه خير من العمل في ألف شهر :

قال تعالى : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ .

يعني أن العمل الصالح في ليلة القدر هو خير من العمل الصالح في ألف شهر .

وهناك العمل الصالح في أيام عشر ذي الحجة فإنه لا يعادله عمل إلا عمل واحد وهو الخروج للجهاد في سبيل الله وذهاب النفس والمال :

روى البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

« ما من أيام العمل الصالح فيها أحبُّ إلى الله عزَّ وجلَّ من هذه الأيام »ــ يعني أيام العشر ــ قالوا : (يا رسول الله : ولا الجهاد في سبيل الله) ، قال : « ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء » .

فانظر في هذا الفضل الكبير على هذه الأمة المحمدية ﷺ واشكر نعمة الله تعالى عليك أنه جعلك من أمة سيدنا محمد ﷺ .

وهناك مضاعفة الصلاة النافلة بعد المغرب :

جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ صلَّى بعد المغرب ستَّ ركعات لم يتكلم فيما بينهنَّ بسوء عُدِلْن بعبادة اثنتي عشرة سنة »[1] .

وعن عمار بن ياسر رضي الله عنهما قال : رأيت حبيبي رسول الله ﷺ يصلي بعد المغرب ست ركعات وقال : « من صلى بعد المغرب ست ركعات غفرت له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر »[2] .

وهناك مضاعفات ثواب الصلاة في المسجد النبوي الشريف والمسجد الحرام ومسجد قباء :

روى البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » .

وروى الإمام أحمد وغيره عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه » .

وجاء في الحديث الذي رواه ابن ماجه عن أنس رضي الله عنه أن

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه وابن خزيمة في (صحيحه) .

(٢) رواه الطبراني في الثلاثة كما في (الترغيب) .

رسول الله ﷺ قال : « وصلاة في مسجدي بخمسين ألف صلاة ، وصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة »[1] .

وروى الطبراني في الكبير عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة ، والصلاة في مسجدي بألف صلاة ، والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة »[2] .

وروى الطبراني في (الكبير) عن بلال بن الحارث رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « رمضان بالمدينة خير من ألف رمضان فيما سواها من البلدان ، وجمعة بالمدينة خير من ألف جمعة فيما سواها من البلدان » .

وقد روى البيهقي نحو هذا أيضاً .

وعن أسيد بن ظهير الأنصاري رضي الله عنه وكان من أصحاب النبي ﷺ يحدث عن النبي ﷺ أنه قال : « صلاة في مسجد قباء كعمرة »[3] .

وعن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ تطهَّر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلَّى فيه صلاة كان له كأجر عمرة »[4] .

---

(١) قال الحافظ المنذري : رواته ثقات إلا أن أبا الخطاب أحد رواته لا تحضرني الآن ترجمته . اهـ .

(٢) قال الهيثمي : حديث حسن .

(٣) قال المنذري : رواه الترمذي وقال : حسن غريب ، ورواه ابن ماجه والبيهقي .

(٤) قال المنذري : رواه أحمد والنسائي وابن ماجه واللفظ له والحاكم وقال : صحيح الإسناد ، والبيهقي .

ورواه يوسف بن طهمان عن أبي أمامة بن سهل عن أبيه عن النبي ﷺ بمعناه وزاد : « ومن خرج على طهر لا يريد إلا مسجدي هذا — أي : مسجد رسول الله ﷺ — ليصلي فيه كانت بمنزلة حجة » .

فانظر يا أخي في هذا الفضل العظيم ، الذي أكرم الله تعالى به هذه الأمة المحمدية ﷺ .

فكل صلاة في مسجد رسول الله ﷺ لك بها ثواب حجة ، وكل صلاة في مسجد قباء لك بها ثواب عمرة ، فأكثر من الحج والعمرة .

ومن ذلك الفضل الكبير ما جاء في الذي يصلي صلاة الصبح بجماعة ثم يجلس في مصلاه يذكر الله تعالى بتسبيح ، أو تحميد ، أو تكبير ، أو تهليل ، أو تلاوة قرآن ، أو صلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أو نحو ذلك من الأدعية والاستغفار ، فجميع ذلك فيه ذكر الله تعالى ، فمن فعل ذلك بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس وترتفع ثم قام فصلى ركعتين ، نال أجراً عظيماً :

روى الطبراني بسند جيّد عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلّى صلاة الغداة — أي : الصبح — في جماعة ، ثم جلس يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ، ثم قام فصلى ركعتين — انقلب — أي : رجع — بأجر حجّة وعمرة » .

وروى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى الصبح في جماعة ، ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة » .

قال : قال رسول الله ﷺ : « تامة تامة تامة »

وعن سهل بن معاذ عن أبيه رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « من قعد في مصلاه حين ينصرف من صلاة الصبح حتى يُسبِّح — أي يصلي ركعتي الضحى ؛ لا يقول إلا خيراً — غفر له خطاياه وإن كانت أكثر من زبد البحر » رواه أحمد وأبو داود .

وروى أبو يعلى والطبراني واللفظ له عن عمرة رضي الله عنها قالت : سمعت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من صلى الفجر فقعد في مقعده فلم يلغ بشيء من أمر الدنيا ويذكر الله تعالى حتى يصلي الضحى أربع ركعات خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه لا ذنب له » .

تخفيف الله تعالى عن الأمة المحمدية

التكاليف العملية بالنسبة إلى الأمم السابقة واعطاؤهم الأجر كاملاً موفوراً

روى الشيخان وغيرهما واللفظ لمسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أُتيت بالبراق وهو : دابَّة أبيض طويل ، فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه »

قال : « فركبته حتى أتيت بيت المقدس » .

قال : « فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء ، ثم دخلت المسجد فصلَّيت فيه ركعتين ، ثم خرجت ، فجاءني جبريل عليه السلام بإناءٍ من خمر وإناء من لبن ، فاخترت اللبن ، فقال جبريل عليه السلام : اخترت الفطرة .

ثم عرج بي إلى السماء فاستفتح جبريل ، فقيل : مَنْ أنت ؟ قال : جبريل ، قيل : ومَنْ معك ؟ قال : محمد ﷺ ، قيل : وقد بُعث إليه ؟ قال : نعم قد بُعث إليه ، ففتح لنا ــ فإذا أنا بآدم عليه السلام فرحّب بي ودعا لي بخير .

ثم عرج بي إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل عليه السلام ، فقيل : مَنْ أنت؟قال : جبريل ، قيل : ومَنْ معك ؟ قال : محمد ﷺ ، قيل : وقد بُعثَ إليه ؟ قال : قد بُعث إليه ، ففتح لنا ــ فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما فرحبا بي ودعوا لي بخير .

ثم عرج بي إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال محمد ﷺ ، قيل : وقد بُعث إليه ؟ قال : قد بُعث إليه ، ففتح لنا ــ فإذا أنا بيوسف ﷺ إذا هو قد أعطي شطر الحسن ، فرحَّبَ بي ودعا لي بخير .

ثم عرج بي إلى السماء الرابعة ، فاستفتح جبريل عليه السلام ، قيل : مَنْ هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ﷺ ، قيل : وقد بُعث إليه ؟ قال : قد بُعث إليه ، ففتح لنا ــ فإذا أنا بإدريس عليه السلام فرحّب بي ودعا لي بخير قال الله عز وجل : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾ .

ثم عرج بي إلى السماء الخامسة ، فاستفتح جبريل ، قيل : مَنْ هذا ؟ فقالَ : جبريل ، فقيل : ومن معك ؟ قال : محمد ﷺ ، قيل : قد بُعث إليه ، قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ــ فإذا أنا بهارون ﷺ ، فرحّب بي

ودعا لي بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل عليه السلام ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ﷺ قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، قال : ففتح لنا – فإذا أنا بموسى ﷺ ، فرحّبَ بي ، ودعا لي بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل عليه السلام ، فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال : محمد ﷺ ، قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا – فإذا أنا بإبراهيم ﷺ مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه .

ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى ، وإذا ورقها كآذان الفيلة ، وإذا ثمرها كالقِلال .

قال : فلما غشيها من أمر الله تعالى ما غشي تغيَّرت ، فما أحد من خلق الله تعالى يستطيع أن ينعتها من حسنها .

فأوحى الله تعالى إليَّ ما أوحى ، ففرض عليَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة .

فنزلت إلى موسى عليه السلام فقال : ما فرض ربك على أمتك ؟.

قلت : خمسين صلاة .

قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا يطيقون ذلك ، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم .

قال ﷺ : فرجعت إلى ربي فقلت : يا ربِّ خفف على أمتي –

فحطَّ عني خمساً .

فرجعت إلى موسى فقلت : حطَّ عني خمساً .

قال : إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف .

قال ﷺ : فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى ، وبين موسى عليه السلام حتى قال : يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة .

ومَنْ همَّ بحسنة فلم يعملها كتب له حسنة ، فإن عملها كتب له عشراً ، ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها ـ أي : خوفاً من الله تعالى ـ لم تكتب شيئاً ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة .

قال ﷺ : فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ﷺ فأخبرته .

فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف .

فقال رسول الله ﷺ : فقلتُ قد رجعتُ إلى ربي حتى استحييتُ منه » .

وأحاديث المعراج الشريف بلغت حد التواتر كما هو معلوم عند علماء الحديث ، وذلك مما يوجب الاعتقاد الجازم به .

وإن أحاديث المعراج المحمدي الشريف تُبيّن لنا عدة أمور أهمها :

١ ـ بيان فضل سيدنا محمد ﷺ على جميع الأنبياء والمرسلين ، واختصاصه ﷺ بالمعراج جسماً وروحاً .

٢ ـ بيان أن للسماوات أبواباً ، وأن أحداً لا يمكن أن يدخلها إلا بعد الاستئذان ، فهذا جبريل عليه السلام قيل له لما استفتح : مَنْ ؟ قال :

جبريل — كما تقدم .

٣ — بيان أنه لا يمكن لأحد أن يدخل السماوات إلا بإذن من الله تعالى ، كما دل عليه قول خازن السماوات لجبريل : ومَنْ معك ؟ قال : محمد ﷺ ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ — والرواية هنا وقد بُعث إليه ؟ — أي : أهذا الذي بَعَثَ الله تعالى إليه ، وأرسل إليه بالحضور والمعراج ؟ قال : نعم — ففتح لنا .

٤ — بيان أن السماوات هي عوالم حقيقية وجودية شهودية .

٥ — بيان أن السماوات هي سبعة كما دل عليه نصاً حديث المعراج حيث يقول : فعرج بي إلى السماء الدنيا ، ثم عرج بي إلى السماء الثانية ، حتى عدَّ سبع سماوات — وليست هي الكواكب السماوية ، بل السماوات غير الكواكب بنص هذا الحديث .

٦ — فيه بيان حياة الأنبياء صلوات الله عليهم ، تلك الحياة التي هي أقوى من حياة الدنيا .

فقد قال ﷺ لما دخل في السماء الثانية : « فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام فسلّمت عليهما فردّوا عليّ ودعوا لي بخير » .

فلا فرق بين جوابهما ودعائهما والسلام عليهما وردهما السلام ، مع أن عيسى ابن مريم لم يمت ، وأما يحيى بن زكريا فقد مات ، ولكن لما مرّ بهما رسول الله ﷺ ليلة المعراج عاملهما في الخطاب والسلام سواءً ، وكان منهما الرد والجواب على حد سواء ، فإن عيسى ابن مريم لم يمت وسوف يموت بعد نزوله آخر الزمان — كما قال الله تعالى : ﴿ وإنْ مِنْ

أهل الكتاب : إلا لَيؤمنن به قبل موته ﴾ . الآية .

فلا يموت عيسى حتى تؤمن به جميع أهل الكتاب : اليهود والنصارى ، وهذا أمر لم يقع إذاً هو لم يمت ، ولكن رُفع حياً إلى السماء ، وسوف ينزل آخر الزمان ، ويقتل الدجال ، ويؤمن به أهل الكتاب كلهم ، فبعد ذلك يموت ، وذلك من علامات الساعة الكبرى كما قال تعالى : ﴿ وإنّه ـــ أي : عيسى ابن مريم ـــ لعلم للساعة فلا تمترنَّ بها ﴾ الآية .

والأحاديث الصحيحة الواردة في ذلك كثيرة وشهيرة ، وبلغت حد التواتر ، وليس موضع تفصيلها هنا .

٧ـــ وفي حديث المعراج أيضاً دليل على أن الخير من أنبياء الله تعالى لا ينقطع ، والنفع منهم للعباد لا يمتنع ، ووظائفهم لا تتعطل بعد موتهم صلوات الله تعالى على نبيّنا وعليهم وعلينا معهم أجمعين .

فلهذا كليم الله سيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، يطلب من سيدنا محمد رسول الله ﷺ : أنْ يسأل الله تعالى التخفيف عن أمته ، ويجيب الله تعالى حبيبه الأكرم ﷺ ، ويخفف عن أمته من خمسين صلاة إلى خمس صلوات ، ولها أجر الخمسين ، تكرمة من الله تعالى لهذه الأمة المحمدية ، ورحمة بها .

وهذا خليل الله تعالى سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، يبعث مع سيدنا محمد رسول الله ﷺ ليلة المعراج سلاماً إلى أمة محمد ﷺ ، وبشارةً لها ، وفيها الدلالة على خير كبير وثواب وفير .

فقد روى الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله

ﷺ قال : « لقيت ليلة أسري بي إبراهيم عليه السلام فقال لي : يا محمد أقرىء أمتك مني السلام ، وبشرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ــ أي : هي بقاع واسعة كلها صالحة للغرس والزراعة ــ وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » .

وهكذا أنبياء الله تعالى يجتمعون ويتذاكرون أمور العباد وشؤونات عالم الدنيا .

روى الإمام أحمد وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لقيتُ ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى فتذاكروا أمر الساعة ، فردُّوا أمرهم إلى إبراهيم فقال : لا علم لي بها .

فردوا الأمر إلى موسى فقال : لا علم لي بها .

فردُّوا الأمر إلى عيسى فقال : أمَّا وجبتها ــ أي : وقت وقوعها ــ فلا يعلم بها أحد إلا الله تعالى ، وفيما عهد إليَّ ربّي أن الدجال خارج ومعي قضيبان ، فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص ، فيُهلكه الله تعالى ، إذا رآني ، حتى إن الحجر والشجر ليقول : يا مسلم : إن تحتي كافراً تعال فاقتله ، فيهلكهم الله تعالى ــ أي : فيهلك الله تعالى أتباع الدجال ــ .

ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم ، فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حَدَب ينسلون ، فيطؤون بلادهم ، لا يأتون على شيء إلا أهلكوه ، ولا يمرون على ماء إلا شربوه .

قال عيسى عليه السلام : ثم يرجع الناس إليَّ فيشكونهم ، فأدعو الله

عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض ـ أي : تتغير رائحتها ـ من نتن ريحهم فينزل الله المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر » الحديث .

وفي هذا الحديث دليل على حياة الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم ، وعلى استمرار خيرهم ونفعهم للعباد والبلاد ، وأعظمهم نفعاً وخيراً ، وأعمُّهم رحمةً وبرّاً هو الحبيب الأكرم ، والإمام الأعظم سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

والذي قال : « حياتي خير لكم ، ووفاتي خير لكم » الحديث ﷺ أبداً أبداً .

وهكذا الشهداء في سبيل الله تعالى ـ يجتمعون ويتذاكرون ، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، ولكن حياة الأنبياء هي أسمى وأكمل وأقوى من حياة الشهداء ، لأن الحياة على مراتب :

روى أبو داود وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال :

« لما أصيب إخوانكم بأحد ، جعل الله تعالى أرواحهم في جوف طير ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلّقة في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ، ومقيلهم ، قالوا :ـ أي : لبعضهم ـ مَنْ يُبلِّغ عنا إخواننا في الدنيا أننا أحياء نرزق لئلا ينكلوا عند الحرب ؟

فقال الله تعالى : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله تعالى ﴿ ولا تحسبن

الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ». الآيات .

وإن أقوى الأنبياء حياة ، وأعظمهم إطلاعاً ، وأوسعهم رحمة ورأفة ، وعطفاً ولطفاً ، هو حبيب الله تعالى الأكرم سيدنا محمد ﷺ ، فإن خيره بعد وفاته ﷺ لا ينقطع ، وبره لا يمتنع ، كما يدل على ذلك الأحاديث الآتية :

عن أوس بن أوس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم عليه السلام وفيه قبضَ ، وفيه النفخة وفيه الصعقة – فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة عليَّ » – أي : عرضاً خاصاً في يوم الجمعة غير العرض العام أيام الأسبوع –

قالوا: يا رسول الله كيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمْتَ – أي : بليت بعد الموت ؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله تعالى حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » .

رواه أصحاب السنن واحمد وغيرهم من طرق متعددة .

فلما أخبر النبي ﷺ عن هذا العرض – يعني عرض الصلاة عليه يوم الجمعة ﷺ راح بعض الصحابة يسأل عن هذا العرض هل هو خاص في حياته الدنيا ، أم هو مستمر بعد الوفاة ؟ وهل يفترق العرض عليه بعد

الوفاة عن العرض عليه قبلها ؟ أم أنهما على حد سواء ؟.

فجاء الجواب بقوله ﷺ : « إن الله تعالى حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » — يعني أن العرض بعد الوفاة هو مستمر باق ، وأن العرض لا يختلف عن العرض في الحياة الدنيا ، لأن الله تعالى حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء .

والمراد بهذا الحديث أن للصلاة عليه ﷺ يوم الجمعة عرضاً خاصاً ، فيه زيادة ثواب وإكرام ، وإن كانت الصلاة عليه ﷺ معروضة في سائر الأوقات والأيام ، كما دَلَّ على ذلك بقية الأحاديث :

روى الطبراني عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى عليَّ بلغتني صلاته وصليت عليه ، وكتب له سوى ذلك عشر حسنات ».

وروى الطبراني عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « حيثما كنتم فصلّوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني » حديث حسن .

وروى البزار بإسناد حسن عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم ، ومماتي خير لكم »

وعند ابن سعد : « فإذا أنا مت كانت وفاتي خيراً لكم ، تعرض عليَّ أعمالكم فإن رأيت خيراً حَمِدتُ الله تعالى ، وإن رأيت غير ذلك استغفرتُ لكم »[1] .

---

(١) وقد قال الحافظ العراقي وكذلك الهيثمي : رجاله رجال الصحيح ، وجاء في رواية ابن سعد من طريق بكر بن عبد الله المزني مرسلاً ، أرسله عن ابن عباس وغيره . وقد قال الذهبي فيه : هو ثقة إمام .

وقد روى صدر هذا الحديث أيضاً الحارث بن أسامة في (مسنده) عن أنس . اهـ .

قال العلامة المناوي رحمه الله تعالى في قوله ﷺ : « كانت وفاتي خيراً لكم » .

لأن لكل نبي في السماء مستقرًّاً إذا قُبض ، كما دلَّتْ عليه الأخبار ، فالمصطفى ﷺ له مستقر هناك ، يسأل الله تعالى الخير لأمته في كل يوم لكل صنف من أمته : فللمتهافتين على الذنوب يسأل الله تعالى لهم التوبة ، وللتائبين الثبات ، وللمستقيمين الإخلاص ، ولأهل الصدق الوفاء ، وللصديقين وفور الحظّ .

قال رحمه الله تعالى وأشار ﷺ بقوله : « مماتي خير لكم » إلى عدم انقطاع النفع بالموت ، بل الموت في وقته أنفع ولو من وجه . اهـ كلام المناوي كما في (فيض القدير) .

قال عبد الله : ويدلُّ على بقاء نفعه واستمرار خيره وبرّه ﷺ ما رواه ابن أبي شيبة بإسناد صحيح كما قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) عن مالك الدار[٢] وكان خازن عمر رضي الله عنه قال :

أصاب الناس قحط في زمن عمر رضي الله عنه ، فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ وقال : يا رسول الله : استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا .

فأتي الرجل في المنام فقيل له : ائت عمر ... الحديث .

قال في (الفتح): وقد روى سيف في (الفتوح) أن الذي رأى المنام المذكور هو بلال بن الحارث المزني أحد الصحابة . اهـ .

والذي أتاه في المنام هو سيدنا رسول الله ﷺ كما في رواية ابن أبي

---

(٢) قال أبو عبيدة : ولّاه عمر رضي الله عنه عيال عمر ، فلما كان عثمان رضي الله عنه ولّاه أيضاً فسمي مالك الدار . اهـ (شرح المواهب).

خيثمة : فجاء النبي ﷺ في المنام فقال له : « ائت عمر فقل له : إنكم مُسْقون ، فعليك بالكيس » .

فبكى عمر وقال : (يا ربِّ ما آلو — أي : ما أقصِّر إلاَّ ما عجزتُ عنه) . كما في شرح المواهب .

وهناك قام عمر رضي الله عنه فجمع الناس للاستسقاء ، وسقاهم الله تعالى .

وروى الدارمي في (سننه) عن أبي الجوزاء التابعي الثقة قال : قَحَطَ — ويقال : قُحِطَ للمفعول — أهل المدينة قحطاً شديداً فشكوا إلى عائشة رضي الله عنها أم المؤمنين فقالت :

(أنظروا قبر النبي ﷺ فاجعلوا منه كوى إلى السماء) — أي : اجعلوا طاقات من السقف الذي على القبر الشريف إلى السماء ، حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف .

ففعلوا فمطروا حتى نبت العشب ، وسمنت الإبل حتى تفتَّقت من الشحم — فسُمِّي عام الفتق .

وقد نقل العلماء المحققون ما وقع للحافظ أبي بكر مسند أصبهان ، والحافظ الطبراني والحافظ أبي الشيخ من أنّه نزلت بهم فاقَةٌ وهم في المدينة المنورة بأنواره ﷺ .

فجاء الأول إلى القبر الشريف وشكا الجوع ، فقال له الحافظ الطبراني : اجلس إما الرزق أو الموت ، فلم يلبثوا أن جاءهم رجل من آل البيت بشيء كثير مع غلامين له ، وأخبرهم أنه رأى النبي ﷺ يأمره أن يحمل إليهم شيئاً — أي : من الطعام .

ومن ذلك ما وقع لأبي الخير الأقطع كما حكاه أبو عبد الرحمن السلمي .

فخيره ﷺ عام ، وإحسانه وبرّه طام ، ونفعه مستمر على الدوام ، ما ينقطع من ذلك أبداً على مدى الدهور ومرور الأيام .

وقد أعلمنا رسول الله ﷺ أنه حيٌّ بعد وفاته حياة هي أكمل من الحياة الدنيا وأعظم ، وأن الله تعالى قد ردّ إليه روحه الشريف ﷺ فهو يسمع سلام المسلمين ويرد عليهم :

كما روى أبو داود وأحمد والطبراني والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحد يسلم علي إلا ردَّ الله إليَّ روحي – وفي رواية إلا ردَّ الله تعالى عليَّ روحي – حتى أرد عليه السلام » .

وفي رواية البيهقي : « إلا ردَّ الله عليَّ روحي » .

فقد أعلمنا رسول الله ﷺ أنه يرد السلام على من يسلم عليه بعد وفاته كما كان يرد السلام في الحياة الدنيا .

وقد جمع الحافظ البيهقي جزءاً في حياة الأنبياء في قبورهم ، واستدل بكثير من الأحاديث النبوية ، ومنها ما رواه مسلم أن النبي ﷺ قال :

« مررت بموسى ليلة أُسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره » .

وحديث اجتماعه ﷺ بالأنبياء ليلة الإسراء ، وتقدمه فيهم إماماً .

وحديث : « الأنبياء أحياءٌ في قبورهم يصلون » .

وروى أبو يعلى وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « والذي نفسي بيده لينزلنَّ عيسى ابن مريم ثم لئن

قام على قبري فقال : يا محمد لأجيبنّه » .

وروى الحاكم وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليهبطنَّ عيسى ابن مريم حكماً وإماماً مقسطاً ، وليسلكنَّ فجّاً فجّاً حاجّاً أو معتمراً ، وليأتينَّ قبري حتى يسلّم عليَّ ولأردنَّ عليه » .

فانظر أيها العاقل رعاك الله تعالى : هذا رسول الله عيسى عليه السلام سوف يحج ويعتمر ويسلك فجّاً فجاً حتى يأتي قبر النبي ﷺ ليسلّم عليه ويزوره ، وقد شهد له رسول الله ﷺ بأنه حكم أي : حاكم يحكم بشريعة النبي ﷺ لا بشريعته التي كان عليها فإنها كانت لبني إسرائيل في ذلك الزمان ، وأما بعد نزوله فهو يعمل بشريعة رسول الله ﷺ : كتابه وسنته ـ كما صرَّحت بذلك بقية الأحاديث الدالة على نزوله في آخر الزمان .

وقد شهد له رسول الله ﷺ بأنه حكم مقسط فهو إمامُ هدي محمديّ صلوات الله تعالى على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين .

فإذا كان عيسى عليه السلام يشد رحله لزيارته ﷺ ، فكيف لا تشد رحلك إليه .

فعليك أيها المسلم بزيارة رسول الله ﷺ ، والتسليم عليه ، والأدبَ الأدب في حضرة رسول الله ﷺ .

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : وقد ذكر جماعة ـ أي : من العلماء الثقات منهم الشيخ أبو منصور الصباغ في كتابه (الشامل) الحكاية المشهورة عن العتبي قال :

كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ أبداً أبداً ، فجاء أعرابي فقال : السلام عليك يا رسول الله : سمعت الله تعالى يقول : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا

أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ .

وقد جئتك مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربي ثم أنشأ يقول :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه
فطاب من طيبهن القاع والأكَم
نفسي الفداء لقبرٍ أنت ساكنه
فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي .

قال العتبي : فغلبتني عيني فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال : « يا عتبي إلحق الأعرابي فبشِّره أن الله تعالى قد غفر له » .

اللهم اغفر لنا ، وعافنا ، واعف عنا بجاه رسول الله ﷺ وكرامته عليك — آمين .

وهذه الحكاية بلغت حد الشهرة ، وتناقلها ثقات العلماء والمحدثين .

وقد ذكرت جملةً من الوقائع والحكايات الثابتة في هذا الباب في كتابي : (**الصلاة على النبي ﷺ**) **فارجع إليه** .

جعل الله تعالى صفوف هذه الأمة في صلاتها

كصفوف الملائكة عند ربها في صلاتها

روى مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « فُضِّلْنَا على الناس بثلاث : جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً ، وجعل لنا ترابها طهوراً إذا لم نجد الماء » .

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا تصفُّون كما تصفُّ الملائكة عند ربهم ؟ » .

قلنا : وكيف تصفُّ الملائكة عند ربهم ؟

فقال ﷺ : « يُتمُّون الصفوف المتقدمة ، ويتراصُّون في الصف » رواه مسلم وأصحاب السنن .

اقتداء الملائكة بهم في صلواتهم

وتأمينهم وتحميدهم ودعاؤهم لهم ما داموا في مصلاَّهم

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا قال الإمام ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾فقولوا : آمين فإنه من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » .

وفي رواية للبخاري : قال رسول الله ﷺ : « إذا قال أحدكم آمين وقالت الملائكة في السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه » .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى : والذي يظهر أن المراد بالملائكة مَنْ يشهد تلك الصلاة من الملائكة ممن في الأرض والسماء . اهـ

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا قال الإمام سمع الله لمن حمده ، فقولوا : اللهم ربنا لك الحمد ، فإنه مَنْ وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » .

وروى الإمام أحمد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن العبد إذا جلس في مصلاَّه بعد الصلاة صَلَّت عليه الملائكة ، وصلاتهم عليه : اللهم اغفر له ، وإن جلس ينتظر الصلاة صلَّتْ عليه الملائكة وصلاتهم عليه : اللهم اغفر له اللهم ارحمه » .

إكرام الله تعالى لهذه الأمة في شهر رمضان

بخمس خصال لم تنلها أمة قبلها

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« أعطيت أمتي خمس خصال في رمضان لم تعطهنَّ أمة قبلهم : خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، وتستغفر لهم الحيتان » .

وفي رواية ابن حبان والبيهقي : « وتستغفر لهم الملائكة حتى يفطروا ويزيِّن الله عز وجل كل يوم جنته ثم يقول : يوشك عبادي الصالحون أن يلقوا عنهم المؤنة ويصيروا إليك ، وتصفَّد فيه مردة الشياطين ، فلا يخلصوا فيه إلى ما كانوا يخلصون إليه في غيره ، ويغفر لهم في آخر ليلة » .

قيل : يا رسول الله ، أهي ليلة القدر ؟ .

قال : « لا ولكن العامل إنما يوفَّى أجره إذا قضى عمله »[1] .

وروى البيهقي عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أعطيت أمتي في شهر رمضان خمساً لم يعطهن نبي قبلي :

أما واحدة : فإنه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان نظر الله عز وجل إليهم – أي:نظرة الرضا والرحمة – قال ﷺ : ومن نظر الله إليه لم يعذبه أبداً .

وأما الثانية : فإن خلوف أفواههم حين يمسون أطيب عند الله من ريح المسك .

وأما الثالثة : فإن الملائكة تستغفر لهم في كل يوم وليلة .

وأما الرابعة : فإن الله عز وجل يأمر جنته فيقول لها : استعِدِّي وتزيَّني لعبادي ، أوشك أن يستريحوا من تعب الدنيا إلى داري وكرامتي .

وأما الخامسة : فإنه إذا كان آخر ليلة غفر الله لهم جميعاً » .

فقال رجل : يا رسول الله : أهِيَ ليلة القدر ؟

فقال ﷺ : « لا ، ألم تر إلى العمال يعملون فإذا فرغوا من أعمالهم وُفّوا أجورهم » .

وجاء في رواية للأصبهاني في عداد تلك الخصال أنه ﷺ قال : « ولله في كل يوم ألف ألف عتيق من النار ، فإذا كانت ليلة تسع وعشرين أعتق الله تعالى فيها مثل جميع ما أعتق في الشهر كلّه » .

وجاء في حديث طويل للبيهقي وغيره : « ولله عز وجل في كل يوم من شهر رمضان عند الإفطار ألف ألف عتيق من النار كلهم قد استوجبوا

(١) رواه أحمد والبزار والبيهقي ، ورواه ابن حبان في (الثواب) كما في (ترغيب) المنذري .

النار ، فإذا كان آخر رمضان أعتق الله في ذلك اليوم بقدر ما أعتق من أول الشهر إلى آخره »[1] .

تكريم الله تعالى لهذه الأمة المحمدية

وتشريفها بمشروعية الصلاة والسلام على رسولها الكريم ﷺ وقد رتّب على ذلك فوائد وخصائص تنفعهم في الدنيا والآخرة

اعلم علمنا الله تعالى وإيّاك ، أن الله تعالى لم يأمر بالصلاة والسلام على نبي من الأنبياء ، ولم يفرض ذلك على أمة إلا الصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ ، فقد فرض الله تعالى ذلك وأمر بذلك هذه الأمة ، ورتب لهم على صلواتهم وسلامهم عليه فضائل وفوائد ، تنفعهم في الدنيا والآخرة ؛ فقال تعالى : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلِّموا تسليماً ﴾ .

وفي هذا إعلانه سبحانه فضل هذا الرسول الكريم ، وبيان أكرميته على الله تعالى ، فأخبر سبحانه عن نفسه أنه جلَّ وعلا يصلي على هذا النبي الكريم تكريماً له وتشريفاً .

ثم أخبر عن ملائكته عليهم السلام بأنهم كلهم يصلون على هذا النبي ﷺ ـــ تشرُّفاً وتبرُّكاً بهذا الرسول الكريم ﷺ .

ثم يأمر سبحانه بالصلاة والسلام على هذا النبي الكريم صلوات الله تعالى وسلامه عليه ـــ فيناديهم بصيغة التأييه والتنبيه ، ويخاطبهم بصفة الإيمان الذي تحلّوا به ، ليبين أن الأمر الموجَّه عليهم هو مقتضى إيمانهم بالله

---

(١) انظر ذلك كله في (ترغيب) الحافظ المنذري .

تعالى ورسوله ﷺ إن كانوا صادقين في ذلك فيقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا صلُّوا عليه وسلِّموا تسليماً ﴾ لبيك اللهم ربي وسعديك ، والخير في يديك ، صلوات الله تعالى البر الرحيم والنبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين ، وما سبّح لك من شيء يا رب العالمين — على سيدنا محمد ابن عبد الله خاتم النبيين ، وإمام المرسلين ، ورسول رب العالمين ، الشاهد البشير ، الداعي إليك بإذنك ، السراج المنير ، وعليه أفضل الصلاة والسلام وعلى آله وعلينا معهم أجمعين .

وما أمرهم بالصلاة والسلام عليه ﷺ إلا ليكرمهم بفوائدها الكثيرة ، وفضائلها الكبيرة ، وقد بينت ذلك مع الأدلة الواردة في كتابي : (**الصلاة على النبي ﷺ**) — مفصلةً ، وأنا الآن أذكر منها جملة فأقول :

الصلاة على النبي ﷺ هي سبب لأن يصلي الله تعالى على مَنْ يصلي عليه صلاة مضاعفة من لدنه سبحانه ، ومن سلَّم عليه نال السلام من الله تعالى مضاعفاً .

كما أنها سبب لأن يصلي عليه سيدنا محمد ﷺ .

وهي سبب لأن تصلي عليه الملائكة عليهم السلام .

وهي سبب لتكفير السيئات ، ورفعة الدرجات ، ومغفرة الذنوب ، وستر وإصلاح العيوب ، وتزكية النفس ، وتزكية الأعمال .

وهي سبب لأن يكتال الثواب بالمكيال الأوفى ، وبها يكتب له قيراط من الأجر مثل جبل أحد ، وبها كفاية همّ الدنيا والآخرة ، وبها تُمحى الخطايا ، وبها النجاة من الأهوال يوم القيامة ، ومن النفاق ، ومن النار ، والإكثار منها يفضل على عتق الرقاب .

وبها ينال شهادة الرسول ﷺ له بها عند الله تعالى ، وبها ينال شفاعته الخاصة ، وينال رضى الله تعالى ورحمته والأمان من سخطه .

وبها ينال الاستظلال بظل العرش ، وبها رجحان الميزان ، وبها ينال ورود حوض النبي ﷺ ، والأمان من العطش ، والعتق من النار ، والجواز على الصراط .

وبها ينال رؤية المقعد المقرب من الجنة عند الموت ، وبها ينال كثرة الحور العين .

وبها ينال أجر الصدقة ، وبها ينمو المال ويبارك فيه ، وبها تنقضي من الحوائج مائة بل أكثر .

وهي باب عظيم من أبواب العبادات ، لأن فيها امتثال أمر الله تعالى في قوله سبحانه : ﴿ صلّوا عليه ﴾ ولذا ترتب عليها رفعة الدرجات ، وتكفير السيئات ، فإن هذا من خصائص العبادات كما هو معلوم .

وبالصلاة عليه ﷺ ينفى الفقر ، وضيق العيش ، وينشرح الصدر ، وتزيَّن المجالس ، وتستنير بأنوارها ، وبها يلتمس مظانّ الخير .

وبها ينتفع المصلي عليه ﷺ وولده وولد ولده .

وبها يتقرب إلى الله تعالى ورسوله ﷺ ، ويكون أولى الناس به ﷺ أكثرهم عليه صلاة .

وهي نور لصاحبها ، وبها ينتصر على الأعداء ، وبها يطهر القلب من النفاق والشقاق ومن الصدأ .

وهي سبب عظيم لمحبة الناس لصاحبها ، وسبب عظيم لرؤية النبي ﷺ .

وهي مانع من اغتياب الناس لصاحبها .

وهي من أبرك الأعمال وأبرّها وأفضلها وأكثرها نفعاً لصاحبها في الدين والدنيا .

وهي سبب لطيب المجلس وخيره حتى لا يعود ذلك المجلس على الجليس حسرةً وندامة يوم القيامة .

وهي تنفي عن العبد اسم البخيل إذا صلّى على النبي ﷺ حين يذكره ، أو يسمع ذكره .

وبالصلاة عليه ﷺ ينجو العبد من الدعاء عليه برغام أنفه إذا تركها عند ذكره ﷺ .

وبها يهتدي صاحبها إلى طريق الجنة ، كما أن تاركها يخطىء طريق الجنة .

وبها يخرج العبد من الجفاء .

وبها يتم الكلام الذي ابتدىء بحمد الله تعالى والصلاة على رسوله ﷺ .

والصلاة على النبي ﷺ سبب لإبقاء الله تعالى الثناء الحسن للمصلّي عليه بين أهل السماء والأرض ، لأن المصلّي على النبي ﷺ هو سائل من الله تعالى أن يثني على رسوله ﷺ ويكرمه ، والجزاء من جنس العمل ، فلا بدَّ وأن يحصل للمصلّي عليه نوع من ذلك .

وهي سبب للبركة في ذات المصلّي عليه ﷺ ، وفي عمله ، وفي

عمره ، ورزقه ، وأسباب مصالحه ، لأن المصلّي عليه ﷺ هو يدعو ربه أن يبارك على النبي ﷺ وعلى آله ، وهذا الدعاء مستجاب حقاً فلا بدَّ أن تنال البركة من يصلّي عليه ﷺ .

وهي سبب عظيم لدوام محبة النبي ﷺ ، وزيادتها ، ومضاعفتها - ولا شك أن محبته ﷺ هي ركن ركين ، وعقد متين من عقود الإيمان ، كما ورد في الأحاديث الصحيحة : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » .

وقال لعمر رضي الله عنه : « حتى أكون أحب إليك من نفسك » .

فالصلاة على النبي ﷺ تزيد المصلّي حباً فيه من وجوه متعددة :

منها أن العبد كلما أكثر من ذكر المحبوب ، وأكثر استحضاره في قلبه ، واستحضر محاسن محبوبه ، وكمالاته ، ومعانيه - تضاعف حبه له ، وزاد شوقه إليه ، واستولى المحبوب على جميع جوانب قلبه .

وإذا أعرض عن ذكره ، وإحضاره ، واستحضار محاسنه ، وكمالاته ، نقص حبه من قلبه .

ولا شيء أقرَّ لعين المحب من رؤية المحبوب ، ولا شيء أقرَّ لقلبه وأفرح للبّه من ذكر محبوبه ، وإحضار محاسنه ، فإذا قوي هذا في قلبه جرى لسانه بمدحه ، وكثرة الثناء عليه ، وذكر محاسنه ومعانيه - فلا يسعد للمحب حال ، ولا يهنأ له بال إلا إذا سكن محبوبه في قلبه .

ويرحم الله تعالى القائل :

ساكنٌ في القلب يعمره ... لست أنساه فأذكره
غاب عن سمعي وعن بصري ... وسُوَيْدا القلب تبصره

ولله درّ القائل :

إنّ قلبـــاً أنت ساكنـــه غير محتـــاج إلى السرج
ومـــريضاً أنت عائـــده قـــد أتـــاه الله بالفـــرج
وجـهك المأمــول حجتنــا يـوم يـأتي النـاس بالحجـج
شرعك الـوضّاء وجهتنــا خير منهاج لمنتهج

ولله درّ القائل :

ومـــن عـــجب أني أحـــن إليهمُ
وأسأل عنهم من لقـيت وهــم معــي
وتشهدهـم عيني وهــم في سوادهــا
ويبصرهـم قلبــي وهــم بين أضلعــي

وما أحسن قول سيدي العارف الكبير علي وفا رضي الله عنه ونفعنا به في قصيدته الدالية التي يصف فيها حال محب النبي ﷺ العاشق له :

سَكَنَ الفـؤادَ فـعشْ هنيئـاً يـا جسد
ذاك النـــعيم هـــو المقيم إلى الأبـــد
أصبحتَ في كنف الحبيب ومن يكـن
جـار الكـريم فعـيشه العـيش الرغـد
عشْ في أمـــان الله تحت لوائــــه
لا خـوف في هـذا الجنـاب ولا نكـد
لا تختشي فقـراً وعنـدك بـيت مـن
كل المنـــى لك مـــن أياديـــه مـــدد

ربُّ الجمال ومُرسل الجدوى ومن
هو في المحاسن كلها فرد أحد
قطبُ النُهى غوث العوالم كلها
أعلى علي ساد أحمد من حمد
روح الوجود حياة من هو واجد
لولاه ما تم الوجود لمن وجد
عيسى وآدم والصدور جميعهم
هم أعينٌ هو نورها لما ورد
لو أبصر الشيطان طلعةَ نوره
في وجه آدم كان أولَ مَنْ سَجَدْ
أو لو رأى النمرود نُور جماله
عبد الجليلَ مع الخليل وما عند
لكن جمال الله جلَّ فلا يُرى
إلا بتخصيص من الله الصمد
فابشرْ بمن سكن الجوانح منك يا
أنا قد ملئت من المنى عيناً ويد
عين الوفا معنى الصفا سرُّ الندى
نور الهدى روح النهى جسد الرَّشَد
هو للصلاة من السلام المرتضى
الجامع المخصوص ما دام الأبد
صلى الله عليه وآله وسلم

فإذا سكن المحبوب قلب المحب صار المحب في حال لا يرى ، ولا يسمع ، ولا يعقل إلا بمحبوبه الساكن في قلبه ، وبهذا يتحقق فناء المحب في محبوبه ، كما فنيت الباء الأولى من الحب في الثانية ، وأصبح الحكم والحركات في الإعراب للثانية ، فاعتبروا يا أولي الأبصار .

والصلاة على النبي ﷺ هي سبب عظيم في محبة الله تعالى للمصلّي عليه ، ومحبة النبي ﷺ للمصلي عليه .

وهي سبب عظيم لهداية العبد وحياة قلبه ـــ فإنه كلما أكثر الصلاة عليه ﷺ وأكثر من ذكره ، استولت محبته ﷺ على قلبه ، حتى لا يبقى في القلب معارضة لشيء مما جاء عن النبي ﷺ ، ولا يبقى في شك مما جاء به ﷺ ، بل يصير ما جاء به ﷺ مسطوراً في قلبه ، محبوباً إليه ، فلا يحب إلا ما جاء عن رسول الله ﷺ ، ولا يهوى إلا ما جاء عن رسول الله ﷺ ، ويتحقق فيه قوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به ثم لا يَزيغ عنه » الحديث .

اللهم اجعلنا منهم بجاهه ﷺ عندك يا رب العالمين .

كما أن الصلاة عليه ﷺ هي سبب لعرض اسم المصلي عليه ﷺ ، وسبب لذكره عنده كما قال ﷺ : « فإن صلاتكم معروضة عليّ » وقوله ﷺ : « إن لله ملائكة سيَّاحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام » .

وكفى بالعبد المسلم شرفاً ونبلاً ، أن يذكر اسمه بحضرة سيدنا رسول الله ﷺ .

كما أن الصلاة عليه ﷺ هي متضمّنة لذكر الله تعالى وشكره ، ومعرفة فضله وإنعامه على عبيده بإرساله إليهم .

فالمصلي عليه ﷺ قد تضمنت صلاته ذكر الله تعالى ودعاءه ، وذكر رسوله ﷺ وسؤاله ربه أن يصلى على حبيبه كما هو أهله ، وأن ينال المصلّي عليه ﷺ بصلاته عليه الفضل العظيم .

هذا وإن الصلاة عليه ﷺ تتضمن دعاء العبد ربه ، وسؤاله بأن يثني سبحانه على حبيبه ﷺ ، وأن يزيد في تشريفه وتكريمه ، ورفعة ذكره وقدره ، ولا ريب أن الله يحب ذلك ، ورسول الله ﷺ يحب ذلك أيضاً .

فالمصلّي عليه ﷺ قد صرف رغبته وسؤاله ، ودعاءه ، إلى محابِّ الله تعالى ورسوله ﷺ ، وآثر ذلك كله على طلبه حوائجه ومحابِّه .

بل كان هذا المطلوب عنده هو فوق مطلوبه ، وكان هذا المرغوب فوق رغباته ، فقد آثر ما يحبه الله تعالى ورسوله ، وآثر الله تعالى ورسوله ومحابهما على ما سواهما ، فالجزاء من جنس العمل ــ فإن من آثر الله تعالى على غيره آثره الله تعالى على غيره وقد قال ﷺ في دعائه « وآثرنا ولا تؤثر علينا » اللهم آمين .

ومن فوائد الصلاة عليه ﷺ أنها سبب لسعة العيش ، وبركة المعاش وتيسيره :

فقد روى أبو موسى المديني عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : (جاء رجل إلى النبي ﷺ فشكا إليه الفقر وضيق العيش والمعاش .

فقال له رسول الله ﷺ : « إذا دخلت منزلك فسلِّم إن كان فيه أحد ، ثم سلِّم عليَّ واقرأ : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ » .

ففعل الرجل ذلك فأدرَّ الله تعالى عليه الرزق حتى أفاض على جيرانه وقراباته) .

وقد ذكر الحافظ السخاوي رحمه الله تعالى الحديث السابق ثم قال :
وحكى أبو عبد الله القسطلاني رحمه الله تعالى أنه رأى النبي ﷺ في النوم فشكا إليه الفقر .

فقال له ﷺ : « قل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، وهَبْ لنا اللهم من رزقك الحلال الطيب المبارك ، ما نصون به وجوهَنا عن التعرض إلى أحد من خلقك ، واجعل لنا اللهم إليه طريقاً سهلاً من غير تعب ولا نصب ، ولا منَّة ولا تبعة ، وجنِّبنا اللهم الحرام حيث كان وأين كان ، وعند من كان ، وحُلْ بيننا وبين أهله ، واقبض عنا أيديهم ، واصرف عنا قلوبهم ، حتى لا نتقلب إلا فيما يُرضيك ، ولا نستعين بنعمتك إلا على ما تحبُّ يا أرحم الراحمين » .

وفي (مسند الفردوس) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً :
« اللهم إني اسألك يا الله يا رحمن يا رحيم ، يا جار المستجيرين ، يا مأمن الخائفين ، ويا عماد من لا عماد له ، ويا سند من لا سند له ، يا ذخر من لا ذخر له ، يا حرز الضعفاء ، يا كنز الفقراء ، يا عظيم الرجاء ، يا منقذ الهلكى ، يا منجي الغرقى ، يا محسن ، يا مجمل ، يا منعم ، يا مفضل ، يا عزيز ، يا جبار ، يا منير ، أنت الذي سجد لك سواد الليل ، وضوء النهار ، وشعاع الشمس ، وحفيف الشجر ، ودويُّ الماء ، ونور القمر ، يا الله ، أنت الله وحدك لا شريك لك ، أسألك أن تصلي على محمد عبدك ورسولك وعلى آل محمد » ، اللهم وعلينا معهم أجمعين .

هذا وقد أوضحت ذلك كله في كتاب : (**الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم**) فارجع إليه تجد فيه ما يسعدك بإذن الله تعالى .

جعل الله تعالى
صدور هذه الأمة المحمدية عليه الصلاة والسلام
مصاحف قرآنية

لقد أكرم الله تعالى أمة سيدنا محمد ﷺ بكرامة عظيمة لم تنلها أمة مثلها ، وذلك أنه سبحانه جعل قلوب هذه الأمة أوعية لكلامه ، وجعل صدورها مصاحف لحفظ آياته ، فلا يغسله من قلوبهم تيار الماء ، ولا يمحوه من صدورهم كيد الأعداء ، فلو أنه محي من السطور فإنه محفوظ في ألواح الصدور .

قال الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّنَاتٌ في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ .

وروى الطبراني والإمام البغوي وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال :

« صفتي – أي : وصفني الله تعالى في الكتب السابقة السماوية – : أحمد المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، يجزي بالحسنة الحسنة ، ولا يكافىء بالسيئة ، مولده مكة ، ومهاجره طيبة ، وأمته الحَّمادُون ، يأتزرون على أنصافهم ، ويُوضئون أطرافهم ، أناجيلهم في صدورهم – يعني مصاحف قرآنهم في صدورهم – يصَفُّون للصلاة كما

يصفون للقتال ، قربانُهم الذي يتقربون به إلَيّ دماؤهم ، رهبان بالليل ليوث بالنهار » .

وروى أبو نعيم في (الدلائل) عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لما فرغت مما أمرني الله به من أمر السماوات والأرض — أي : ليلة المعراج — قلت : يا ربِّ إنه لم يكن نبيّ قبلي إلا وقد أكرمته : جعلت إبراهيم خليلاً ، وموسى كليماً ، وسخرت لداود الجبال ، ولسليمان الريح ، وأحييت لعيسى الموتى — فما جعلت لي ؟ .

فقال سبحانه : أوليس قد أعطيتك أفضل من ذلك كله : إني لا أُذكر إلا ذكرتَ معي ، وجعلتُ صدور أمتك أناجيل — أي : مصاحف — يقرؤون القرآن ظاهراً ؛ ولم أعطها أمةً — أي : قبلك — وأعطيتك كنزاً من كنوز عرشي : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » .

وقد روي هذا الحديث من طرق أخرى .

وفي صحيح مسلم من حديث طويل قال صلى الله عليه وآله وسلم : « وإن ربي عز وجلَّ قال لي : قد أنزلتُ عليك كتاباً لا يغسله الماء ، تقرأه نائماً ويقظان » الحديث .

والمعنى أن الماء يغسل ما يكتب في السطور ، ولكنه لا يمحو ما يحفظ في الصدور .

الهدي المحمدي باق في هذه الأمة

والخير فيها متواصل إلى آخرها

روى مسلم والترمذي وغيرهما عن ثوبان رضي الله عنه في حديث طويل قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك » .

وروى الشيخان عن معاوية رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « مَنْ يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، وإنما أنا قاسم والله يُعطي ، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله ، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله » .

وروى الإمام أحمد وغيره عن عمران بن حصين رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على مَنْ ناوأهم ، حتى يقاتل آخرهم المسيح الدَجَّال » .

وروى ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا تزال طائفة من أمتي قوَّامة على أمر الله لا يضرها مَنْ خالفها » .

وروى الإمام أحمد ومسلم وغيرهما عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، فينزل عيسى ابن مريم ، فيقول أميرهم : تعال صلِّ لنا ــ أي : إماماً بنا ــ فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض أمير ــ تكرمة الله تعالى لهذه الأمة » .

والمعنى : أنه لما ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام في آخر الزمان فيُدعى إلى أن يَؤمَّ هذه الأمة في الصلاة ، فيمتنع لأول مرة ، ويقدِّم أميرهم ، ويقتدي به مع المقتدين ، ثم بعد ذلك يتقدم إماماً ، وذلك ليبين للناس أنه جاء متبعاً لرسول هذه الأمة سيدنا محمد ﷺ ، ومتشرعاً بشريعة سيدنا محمد ﷺ ، وليبين في ذلك كرامة الله تعالى لهذه الأمة ، وأن رسولها هو رسول إلى جميع الأنبياء والمرسلين أيضًا ، وأنهم يجب عليهم أن يؤمنوا به ومنهم رسول الله تعالى عيسى بن مريم عليه السلام .

قال تعالى : ﴿ وإذْ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثمّ جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا : أقررنا قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ .

وروى الترمذي وأحمد وغيرهما عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل أمتي مثل المطر لا يُدرى أوله خير أم آخره » .

والمعنى أن الخير في هذه الأمة متوال ما ينقطع إلى يوم الدين ، كالمطر المتواصل ـ والحمد لله رب العالمين .

إكرام الله تعالى هذه الأمة المحمدية بيوم الجمعة

لقد أكرم الله تعالى أمة سيدنا محمد ﷺ بيوم الجمعة ، وخصها فيه بخصائص لم تنلها الأمم السابقة :

روى مسلم وغيره عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أضلَّ عن الجمعة من كان قبلنا ، فكان لليهود يوم السبت ، وكان للنصارى يوم الأحد ، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة ، نحن الآخرون من أهل الدنيا ، والأولون يوم القيامة ، المقضي لهم قبل الخلائق » .

يوم الجمعة هو سيد الأيام وأعظمها عند الله تعالى :

عن أبي لبابة بن عبد المنذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن يوم الجمعة سيد الأيام وأعظمها عند الله ، وهو أعظم عند الله من يوم الأضحى ويوم الفطر ، وفيه خمس خلال : خلق الله فيه آدم ، وأهبط الله فيه آدم إلى الأرض ، وفيه توفى الله آدم ، وفيه ساعة لا يسأل الله فيها العبد شيئاً إلا أعطاه إياه ـــ ما لم يسأل حراماً ، وفيه تقوم الساعة ، ما من ملك مقرب ، ولا سماء ولا أرض ، ولا رياح ، ولا جبال ، ولا بحر ، إلا وهنَّ يُشفقن من يوم الجمعة »[1] .

يوم الجمعة هو خير يوم طلعت عليه الشمس وغربت :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها » .

---

(١) قال المنذري : رواه أحمد وابن ماجه بلفظ واحد ، ورواه البزار أيضاً من طريق آخر . اهـ ملخصاً .

قال المنذري : رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن خزيمة ولفظه : « ما طلعت الشمس ولا غربت على يوم خير من يوم الجمعة ، هدانا الله له وأضلَّ الناس عنه ، فالناس لنا فيه تبع ، فهو لنا ــ أي : عيد لنا ــ واليهود يوم السبت ، والنصارى يوم الأحد ، إن فيه ــ أي : يوم الجمعة ــ ساعة لا يوافقها مؤمن يصلي يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تطلع الشمس ولا تغرب على أفضل من يوم الجمعة ، وما من دابة إلا وهي تضرع يوم الجمعة إلا هذين الثقلين الإنس والجن »(١) .

يوم الجمعة تعرض فيه الصلاة على النبي ﷺ عرضاً خاصاً :

عن أوس بن أوس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم يوم الجمعة معروضة عليَّ »

قالوا : وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أَرَمْتَ ــ أي : بليت بعد الموت ؟

فقال ﷺ : « إن الله عز وجلَّ حرّم على الأرض أن تأكل أجسامنا »(٢) .

فلا تزال تعرض الصلاة عليه ﷺ بعد الوفاة كما كانت تعرض عليه في الحياة الدنيا ، ولم يحدث أي تغير ، فإن الله تعالى حرّم على الأرض أن

---

(١) رواه ابن خزيمة وابن حبان في (صحيحهما) .

(٢) قال المنذري : رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان في (صحيحه) واللفظ له .

تأكل أجساد الأنبياء صلوات الله تعالى على نبينا وعليهم وعلينا معهم أجمعين أبد الآبدين .

لله تعالى عتقاء من النار في كل يوم جمعة :

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن يوم الجمعة وليلة الجمعة أربعة وعشرون ساعة ، ليس فيها ساعة إلا ولله فيها ستمائة ألف عتيق من النار » . قال الراوي عن ثابت البناني عن أنس : فخرجنا من عنده فدخلنا على الحسن فذكرنا له حديث ثابت فقال : سمعته وزاد فيه : « كلهم قد استوجبوا النار » .

قال المنذري : رواه أبو يعلى والبيهقي باختصار ولفظه : « لله في كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النار » .

يوم الجمعة يحشر وأهله يمشون في ضيائه :

روى الطبراني وابن خزيمة في (صحيحه) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تحشر الأيام على هيئتها ، وتحشر الجمعة زهراء منيرة ، أهلها يحفّون بها كالعروس تُهدى إلى خدرها تضيء لهم ، يمشون في ضوئها ، ألوانهم كالثلج بياضاً ، وريحهم كالمسك ، يخوضون في جبال الكافور ، ينظر إليهم الثقلان ، لا يُطْرقون تعجباً ، حتى يدخلوا الجنة لا يخالطهم أحد إلا المؤذّنون المحتسبون » .

يوم الجمعة فرض الله تعالى فيه صلاة هي أعظم الفرائض الصلاتية :

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ .

وقد خطب ﷺ وبيَّن عظيم فريضتها وعلو منزلتها وكبير خطورتها :

فعن جابر رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال :

« يا أيها الناس توبوا إلى الله تعالى قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ، وصلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له ، وكثرة الصدقة في السرِّ والعلانية ــ ترزقوا وتنصروا وتجبروا .

واعلموا أن الله افترض عليكم الجمعة في مقامي هذا ، في يومي هذا ، في شهري هذا ، من عامي هذا ، إلى يوم القيامة .

فمن تركها في حياتي أو بعدي وله إمام عادل أو جائر ، استخفافاً بها ، وجحوداً بها ، فلا جمع الله له شمله ، ولا بارك له في أمره ــ ألا ولا صلاة له ، ألا ولا زكاة له ، ألا ولا حج له ، ألا ولا بِرَّ له ــ حتى يتوب فمن تاب تاب الله عليه » .

رواه ابن ماجه ، ورواه الطبراني في (الأوسط) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

التحذير من ترك صلاة الجمعة :

عن أبي الجعد الضمري ــ وكانت له صحبة ــ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من ترك ثلاث جُمَع تهاوناً بها طبع الله على قلبه » .

رواه أحمد وأصحاب السنن .

وفي رواية لابن خزيمة وابن حبان : « من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر فهو منافق » .

وروى مسلم وغيره عن أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهم أنهما

سمعا رسول الله ﷺ يقول ـ على أعواد منبره : « لينتهينَّ أقوام عن ودعهم ـ أي : تركهم الجمعات ـ أو ليختمن الله على قلوبهم ، ثم ليكونن من الغافلين » .

فهذا الوعيد الشديد يدلك على عظيم فرضيتها ، وخطورة تركها من غير عذر شرعي .

يوم الجمعة هو يوم عيد المسلمين :

عن أنس رضي الله عنه قال : « عرضت الجمعة على رسول الله ﷺ جاءه بها جبريل عليه السلام في كفه كالمرآة البيضاء في وسطها كالنكتة السوداء .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

فقال : هذه الجمعة يعرضها عليك ربك لتكون لك عيداً ولقومك من بعدك ، ولكم فيها خير ، تكون أنت الأول ، وتكون اليهود والنصارى من بعدك ـ يعني : عيد المسلمين هو الأول ، ثم يأتي بعده عيد اليهود هو يوم السبت ، ثم النصارى يوم الأحد »[1] الحديث ويأتي تمامه .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن هذا ـ يعني : يوم الجمعة ـ يوم عيد جعله الله تعالى للمسلمين ، فمن جاء الجمعة فليغتسل ، وإن كان عنده طيب فليمسَّ منه ، وعليكم بالسواك »[2] .

---

(١) قال المنذري : رواه الطبراني في (الأوسط) بإسناد جيد . اهـ .

(٢) رواه ابن ماجه بإسناد حسن .

في يوم الجمعة تكون رؤية الله تعالى لجميع أهل الجنة في عالم الكثيب :

جعلنا الله تعالى منهم من فضله ورحمته :

قال الله تعالى : ﴿ لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قَتَرٌ ولا ذِلَّة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ .

وهذه الزيادة جاء بيانها في الحديث أنها رؤية الله تعالى :

روى مسلم والترمذي والنسائي عن صهيب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله عزَّ وجلَّ :

تريدون شيئاً أزيدكم ؟

فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ، ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟

قال ﷺ : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ ».

ويسمى يوم الجمعة في الآخرة يوم المزيد :

لأن الرؤية العامة لجميع أهل الجنة في عالم الكثيب تكون في يوم الجمعة :

فعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أتاني جبريل عليه السلام وفي يده مرآة بيضاء فيها نكتة سوداء فقلت : ما هذه يا جبريل ؟

قال : هذه الجمعة يعرضها عليك ربك لتكون لك عيداً ولقومك من بعدك ، تكون أنت الأول وتكون اليهود والنصارى من بعدك .

فقال ﷺ : ما لنا فيها ؟

قال : فيها خير لكم ، فيها ساعة من دعا بها ربه بخير هو له قُسِمَ إلا أعطاه إياه ، أوليس له يقسم إلا ادّخر له ما هو أعظم منه ، أو تعوَّذ فيها من شر هو عليه مكتوب إلا أعاذه، أو ليس عليه مكتوب إلا أعاذه من أعظم منه .

قلت : ما هذه النكتة السوداء فيها ؟

قال : هذه الساعة ، تقوم يوم الجمعة ، وهو سيد الأيام عندنا ، ونحن ندعوه في الآخرة يوم المزيد .

قلت : لم يدعونه يوم المزيد ؟.

قال : إن ربك عزَّ وجلَّ اتخذ في الجنة وادياً أفيح من مسكٍ أبيض ، فإذا كان يوم الجمعة جاء النبيون حتى يجلسوا على منابر من نور ، ثم جاء الصديقون والشهداء حتى يجلسوا على كراسي من ذهب ، ثم يجيء أهل الجنة حتى يجلسوا على الكثيب ــ أي : مكان مرتفع من المسك ــ .

قال : فيتجلى لهم ربهم تبارك وتعالى حتى ينظروا إلى وجهه ، وهو سبحانه يقول : أنا الذي صدقتكم وعدي ، وأتممت عليكم نعمتي ، هذا محلُّ كرامتي ، فسلوني الرضا ــ فيسألونه الرضا .

فيقول الله عز وجل : رضائي أحلكم داري ، وأنالكم كرامتي ، فسلوني فيسألونه ــ أي : جميع رغباتهم ــ حتى تنتهي رغبتهم، فيفتح لهم عند ذلك ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر إلى مقدار ــ أي : ويبقى ذلك التجلي إلى مقدار ــ مُنْصَرِفِ الناس يوم الجمعة » .

وفي رواية للبزار : « فإذا كان يوم الجمعة في الحين الذي يبرز أو يخرج فيه أهل الجنة إلى جمعتهم ، نادى منادٍ يا أهل الجنـة : اخرجـوا إلى دار المزيد »[1] إلى تمام الحديث .

في الجنة سوق يأتيها أهل الجنة في كل جمعة

روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة ، فتهبُّ ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم ، فيزدادون حسناً وجمالاً ، فيقول لهم أهليهم : والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً

فيقولون : وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حُسناً وجمالاً » .

ففي الجنة سوق – أي : مجتمع لأهل الجنـة – فيـه أنـواع الحُلـل والحُليِّ ، والحسن السنّي ، والجمال البهّي ، هذه السوق كبيرة واسعة ، يأتيها أهل الجنة في كل يوم جمعة ، ليزدادوا حسناً على حسنهم ، وجمالاً على جمالهم .

والظاهر أن ذلك يكون قبل ذهابهم إلى عالم الكثيب الذي يتجلّى فيه ربّ العزة والجلال عليهم بالرؤية ، وذلك ليقابلوا التجلي بالتحلي ، فإن العيد الذي هو الأكبر الأكبر هو يوم يتجلى عليهم بالرؤية عياناً ومن شأن العيد أن يكون فيه التحلّي والتجمّل .

فإذا اجتمعوا في تلك السوق أرسل الله تعالى ريح الشمال الجمالية النورانية فتحثوا في وجوههم وثيابهم – أي:تنثر تلك الريح وتنشر فوق وجوههم وثيابهم أنواع الطيب والمحاسن والجمال ، فيرجعون إلى أهلهم

(١) قال المنذري : رواه ابن أبي الدنيا ، والطبراني في (الأوسط) بإسنادين أحدهما جيد قوي ، وأبو يعلى مختصراً ورواته رواة الصحيح ، والبزار واللفظ له .

وقد ازدادوا حسناً وجمالاً ، كما ازداد أهلوهم حسناً وجمالاً ، لأن السوق جمعتهم كلّهم ، وشملتهم ريح الشمال كلّهم — اللهم اجعلنا منهم بفضلك يا أرحم الراحمين .

روى ابن عساكر عن جابر رضي الله عنه مرفوعاً : « إن أهل الجنة ليحتاجون إلى العلماء في الجنة ، وذلك أنهم يزورون الله تعالى في كل جمعة ، فيقول لهم سبحانه وتعالى : تمنُّوا ما شئتم ، فيلتفتون إلى العلماء فيقولون لهم : ماذا نتمنَّى ؟

فيقول : — لهم العلماء — تمَّنوا عليه كذا وكذا .

فهم يحتاجون إليهم — إلى العلماء — في الجنة كما يحتاجون إليهم في الدنيا » .

والمراد بالعلماء هنا — العلماء العارفون الغارفون من بحر سيدنا وحبيبنا وروح أرواحنا محمد رسول الله ﷺ ، الذي فتح الله تعالى عليه ، ويفتح عليه ما لم يفتحه على أحد من خلقه .

وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة لسوقاً ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء ، فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها » .

والمعنى والله أعلم : أن هذا السوق في الجنة فيه صور حسناء جميلة من الرجال ، وصور حسناء جميلة من النساء ، فإذا نظر الرجل صورة منها وأعجبته وأحبَّ أن تكون صورته على مثلها تلبسته تلك الصورة ولبسها ، كما يلبس الثوب الحسن ، وهكذا المرأة إذا رأت صورة من تلك الصور النسائية الجميلة فأعجبتها وودَّتْ أنْ تكون على تلك الهيئة والصورة

تلبسها تلك الصورة ولبستها ، وهكذا أهل الجنة يترقون في صور الحسن والجمال كما يترقون في درجات الفضل والكمال ، إلى ما لا نهاية ﴿ عطاءً غير مجذوذ ﴾ .

جعلنا الله تعالى منهم بجاه سيدنا محمد رسول الله ﷺ عند الله تعالى آمين .

انتظاره ﷺ أمته على الحوض

واستقباله لهم وسقياه هذه الأمة المحمدية

من حوضه الشريف خاصة

جعلنا الله تعالى منهم بجاهه عند الله تعالى

روى الشيخان وغيرهما عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : خرج يوماً ﷺ فصلّى على شهداء أُحد كالمودِّع لهم ثم صعد المنبر فقال : « إني فرط لكم — أي : سابقكم إلى الحوض أنتظركم — وأنا شهيد عليكم ، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن ، وإني والله أوتيت مفاتيح الأرض ، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها » .

فهو ﷺ على الحوض ينتظر أمته ، ويستقبلهم ، ويعرفهم بعلامة خاصة فيهم ليست لغيرهم — وهي : غُرَّة — أي : بياض في الوجوه — وتحجيل في الأقدام من أثر الوضوء .

روى مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « وددت أني رأيت إخواني » .

فقال أصحابه : يا رسول الله ﷺ ألسنا إخوانك ؟! .

قال :«أنتم أصحابي – أي : أنتم إخواني وأصحابي – وإخواننا الذين لم يأتوا بعدُ » – أي : الذين يؤمنون به و لم يلقوه في الدنيا ﷺ – .

وفي هذا تشريف لكل مؤمن ، وعقد إخوة الإيمان الذي عقده ﷺ مع كل مؤمن ومؤمنة ، حيث سماهم كلهم إخوانه ، فما أفضلها من أخوة ، وما أكرمها وما أشرفها ، – إنها مؤاخاة إيمانية مع سيدنا رسول الله ﷺ .

فقال أصحابه : يا رسول الله كيف تعرف من لم يأت بَعْدُ من أمتك ؟ .

فقال ﷺ : « أرأيت لو أنّ رجلاً له خيل غرّ مُحجّلة بين ظهري خيل دُهم بُهم – أي : ليست محجلة ولا غرة لها – ألا يعرف خيله » ؟.

قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : « فإنهم يأتون إليّ غراً محجلين من الوضوء ، وأنا فرطهم – أي : سابقهم ومنتظرهم – على الحوض » . فيكرم الله تعالى أمة سيدنا محمد ﷺ بالشرب من حوضه الشريف ، فلا يظمأون بعدها أبداً مهما طالت أهوال المواقف ، وتبيض وجوههم فلا يسود لأحدهم وجه في جميع المواقف .

فعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله وعدني أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً بغير حساب » .

ثم قال ﷺ : « قد وعدني سبعين ألفاً مع كل ألف سبعين ألفاً ، وزادني ثلاث حثيات » ـ أي : قبضات كبيرة ـ .

فقال يزيد بن الأخنس : فما سعة حوضك يا نبي الله ؟.

قال : « كما بين عدن إلى عَمّان ، وأوسع وأوسع » ويشير ﷺ إلى أنه واسع السعة .

قال ﷺ : « فيه مثعبتان ـ أي : مسيلان ـ من ذهب وفضة ».

قال : فماء حوضك يا نبيّ الله ؟.

فقال ﷺ : « أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأطيب رائحة من المسك ، من شرب منه لم يظمأ بعدها أبداً ، ولم يسودّ وجهه » .

اللهم اجعلنا منهم بجاهه عندك ﷺ .

قال الحافظ المنذري : رواه أحمد ورواته محتج بهم في الصحيح ، وابن حبان في (صحيحه)، بلفظ : « ولم يسود وجهه أبداً » اهـ .

قال : والمثعب : بفتح الميم والعين المهملة جميعاً بينهما ثاء مثلثة ، وآخره موحَّدة ـ أي : باء ـ وهومسيل الماء . اهـ .

وقد فصلت الكلام على الحوض الشريف في كتاب (الإيمان بعوالم الآخرة)، فارجع إليه إن شئت .

أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم
هي أول من يجوز الصراط من الأمم

جاء في الصحيحين وغيرهما في حديث طويل قال رسول الله ﷺ : « ثم يُضرب — أي : ينصب — الصراط بين ظَهْرانَيْ جهنم ، فأكون أوّل من يجوز الصراط بأمته — أي : أول من يسلك الصراط ويجاوزه بأمته — ولا يتكلم يومئذٍ أحد إلا الرسل ، وكلام الرسل : اللهم سلِّم سلِّم » الحديث .

فكل رسول يدعو لأمته بالسلامة والحفظ حين يجتازون الصراط .

اللهم اجعلنا من السالمين يا أرحم الراحمين بدعاء رسولنا سيدنا محمد ﷺ سيد المرسلين .

أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم
هي أول من يدخل الجنة من الأمم

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن الجنة حُرِّمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها ، وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتي » رواه الدارقطني وغيره .

أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم

هي أكثر أهل الجنة

روى الإمام أحمد عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « إن ربي أعطاني سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب » .

فقال عمر : فهلا استزدته يا رسول الله .

فقال : « استزدته فأعطاني مع كل ألف سبعين ألفاً » .

قال عمر : فهلا استزدته .

فقال « استزدته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفاً »

فقال عمر : فهلا استزدته .

فقال : « قد استزدته فأعطاني هكذا » وبسط الراوي بين باعيه .

وروى الإمام أحمد عن أبي بردة عن أبيه عن النبي ﷺ قال : « أهل الجنة عشرون ومائة صف ، هذه الأمة من ذلك ثمانون صفاً » .

وروى ابن أبي حاتم عن النبي ﷺ قال : « إن الله وعدني أن يدخل الجنة سبعين ألفاً بغير حساب ، ومع كل ألف سبعون ألفاً ، وزادني ثلاث حثيات » وإسناده حسن .

أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم
خصها الله تعالى بأعظم ميراث

لقد شرف الله تعالى هذه الأمة فجعلها أمة الميراث القرآني المحمدي ﷺ ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ﴾ .

ففي هذه الآية الكريمة وجوه من تفضيل الله تعالى لهذه الأمة المحمدية ، وتخصيصها بالمكرمات والفضائل :

أولاً ـ تكريمها بأن الله تعالى رب العالمين هو أورثها هذا القرآن الكريم الذي هو كتاب جامع لكل خير وسعادة وفلاح ونجاح .

فَشَرَّف هذه الأمة بتوريثها خير ميراث ، وأفضل وأهدى ، وأعظم وأوسع وأشرف كتاب وهو القرآن الكريم ، أورثها الله ذلك عن خير وأفضل وأكرم موروث ﷺ فهم خير ورثة إذا حافظوا عليه ، وعرفوا كرامته ، وتمسَّكوا به ، وعظموه ، فهم السادة والقادة ، والصالحون المصلحون ، قال تعالى : ﴿ والذين يُمسّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾ .

ثانياً ـ تكريم الله تعالى لهذه الأمة بأن اصطفاها من عباده على جميع الأمم ، فرسولها سيدنا محمد ﷺ هو المصطفى على جميع الأنبياء والرسل ، وأمته هي المصطفاة على جميع الأمم .

ثالثاً ـ في الآية الكريمة بيان أصناف هذه الأمة المحمدية ومراتبها عند الله تعالى ، وبيان أن هذه الأصناف هي باقية إلى يوم الدين : وتلك الأصناف هي : **فمنهم ظالم لنفسه** : وهو الذي ارتكب ما نهى الله تعالى من المعاصي ، أو ترك ما أوجب الله تعالى ومات ولم يتب من ذلك ، فقد ظلم نفسه ، لأنه فوَّت عليها الثواب ، وعرَّضها للعذاب ، فكيف لا يكتب ظالماً لنفسه ، ويسمى : الفاسق ، والعاصي ، والخالط ، والمذنب .

ومنهم مقتصد:والمقتصد مشتق من القصد وهو التوسط ، بأن امتثل ما أمر الله تعالى به ، وانتهى عما نهى الله تعالى عنه ، فأدى جميع الواجبات عليه ، ولكنه ليس له كثرة نوافل وزيادة طاعات وقربات تزيد عما وجب عليه ، فهذا يقال له من أصحاب اليمين ، ويلتحق بالأبرار مقابل المقربين وهو ناجٍ في الآخرة .

ومنهم سابق بالخيرات : وأما السابق بالخيرات بإذن الله تعالى فهو صاحب نوافل الطاعات والقربات الكثيرة الزائدة على الواجبات .

وفي الحديث الشريف : « اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات ... » الحديث .

ويقال لهم السابقون والمقربون ، قال تعالى : ﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون ﴾ .

وقال تعالى فيهم : ﴿ أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴾. وهؤلاء كثيرون في صدر هذه الأمة قليلون في آخرها: قال تعالى : ﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم ثلةٌ من الأولين وقليل من الآخرين ﴾ .

وأما المقتصدون أصحاب اليمين فهم كثيرون في أول هذه الأمة أيضًا كثيرون في آخرها ، قال تعالى : ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ .

وعلى كل حال فهم لا ينقطعون ، والخير في هذه الأمة باقٍ إلى يوم الدين .

رابعًا ــ جاءت البشارة في هذه الآية الكريمة أن الظالم لنفسه مع ظلمه لنفسه وتقصيره فإنه لم يخرج عن كونه من الأمة المصطفاة ، وله البشارة بحظه من الميراث القرآني ، فإنه لم يخرج عن كونه مسلماً ، وأن نهايته إلى الجنة ، فإن تاب قبل موته وأناب فهو كمن لا ذنب له ــ وهو إلى الجنة ، وإن لم يتب ومات على ذنوبه فإما أن يكفر الله عنه سيئاته بسبب الأهوال والكربات التي تمر عليه في برازخ الآخرة فيطهر منها ، وإما أن تناله شفاعة النبي ﷺ فيدخل بها الجنة بدون عذاب .

وإما أن يحقَّ عليه الحساب بالعذاب فيدخل النار مدة مؤقتة ثم يخرج بشفاعة سيدنا محمد ﷺ قبل استيفائه مدة عذابه كما ورد في أحاديث الشفاعة ــ وقد تقدم بعضها ويأتي بعضها إن شاء الله تعالى .

فالنهاية والمصير إلى الجنة كما أخبر الله تعالى عنهم كلهم بعد هذه الآية فقال : ﴿ جنات عدن يدخلونها يُحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ... ﴾ .

خامساً ــ قوله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ... ﴾ فيها إعلان فضل هذا الميراث الذي شرَّف الله تعالى به هذه الأمة المحمدية فإن فيه فخرهم ، وذكرهم ، وشرفهم ، وسعادتهم ، فإنه

الكتاب المتضمن للعلوم والمعارف ، والأسرار والأنوار ، وجميع أصناف الخير والبر ، وصلاح الدنيا وفلاح الآخرة .

فهو البحر المحيط الزاخر بالعلوم والحِكم والمعارف ، والأدلة والحجج القاطعة وقال تعالى : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون ﴾ أي : اتبعوا أوامره وهديه وإرشاده ، واتقوا مناهيه — ترحموا في الدنيا والآخرة ، وتعيشوا عيشة طيبة هنية ، راضية مرضية .

﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين . أو تقولوا لو أنَّا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدىً ورحمة فمن أظلم ممن كذّب بآيات الله وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون ﴾ .

والمعنى أن الله قد أنزل على هذه الأمة المحمدية ﷺ كتاباً فائقاً على جميع الكتب قبله ، وجامعاً لكل خير وسعادة حتى لا يبقى لكم حجة ولا عذر :

بأن تقولوا : لو أنا أنزل علينا كتاب مَنْ قبلنا — التوراة أو الإنجيل — لكنا أهدى من أولئك النازل عليهم .

أو تقولوا : لو أن الله أنزل علينا كتاباً مثل تلك الكتب السابقة لكنا أصلح وأهدى ، فقد جاءكم كتاب الله : القرآن العظيم المهيمن على كل كتاب نزل قبله ، والحاكم على جميع الكتب السماوية ، والجامع للحجة والبينة التي لا تُبقي شبهة لمشتبهٍ ، ولا تدع شكاً لذي شك ، والجامع لكل هدى إلى : خير وبرّ وصلاح ونجاح ، والجامع لكل ما فيه رحمة تعود على

العباد والبلاد ، فيجب عليكم أن تقبلوا بكليتكم عليه ، وتأخذوا به بقوة واجتهاد ، وتمسك به ، واهتداءٍ بهديه ، وعملاً بأوامره ، وانتهاءً عن مناهيه ، فيكون هذا الكتاب أمامكم وإمامكم .

ولا تصدفوا وتعرضوا عنه ، بل أقبلوا عليه وتقبلوا كل ما جاءكم به ، واتخذوه كتاباً منشوراً ، وهادياً لكم ونوراً ، ولا تتخذوه كتاباً مهجوراً . ﴿ فمن أظلم ممّن كذّب بآيات الله وصدف عنها ﴾ ؟!! ـ أي : أعرض عنها ـ ﴿ سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب ﴾ ـ في الدنيا والآخرة ﴿ بما كانوا يصدفون ﴾ .

اللهم اجعلنا من أهل القرآن وخاصته ـ آمين .

وقال سبحانه : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تُسألون ﴾ . أي : تسألون عن موقفكم مع هذا الكتاب .

وقال تعالى : ﴿ وإنه لتذكرة للمتقين . وإنه لحسرة على الكافرين ﴾ وأيُّ حسرة أعظم من هذه الحسرة ، وأيُّ خسارة أكبر من خسارتهم نور القرآن وهديه وخيره وبرِّه والسعادة به ، لقد فوّتوا على أنفسهم خيراً كثيراً ، وحرموها فلاحاً كبيراً بسبب إعراضهم عنه وكفرهم به .

وإن هذا الكتاب الكريم ، والقرآن العظيم ، فيه حجة الله تعالى على جميع العباد : بإعجازه نصّاً ومعنًى ، وتشريعاً ، وإخباراً عن المغيّبات : الماضية والآتية ، وبإعجازه تلاوةً ـ فله طريق خاصة في تلاوته ، وإعجازه حُكماً ، وإحكاماً ، وحِكماً ، وبياناً ، وتبياناً لكل شيء :

قال تعالى :﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً

مبيناً ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ كتاب أُحكمتْ آياته ثم فصِّلت مِن لدن حكيم خبير ﴾ .

هذا الكتاب الكريم فيه التنوير والتبصير قال تعالى : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومَنْ عميَ فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ .

فمن فتح لهذا القرآن عيون قلبه أبصر واستنار ، ورأى نور الحق فيه جليّا ، وعلم الحقائق من الأباطيل .

ومن أغمض عيون قلبه وتعامى عن هذا القرآن الكريم عمي وضلّ سواء السبيل .

هذا القرآن هو الكتاب الجامع لجميع أصناف العلم والحكمة قال تعالى : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ وكذَّبوا واتبعوا أهواءهم وكلُّ أمر مستقرّ . ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر . حكمة بالغة فما تغني النذر ﴾ .

هذا الكتاب الكريم فيه الهدى والبينات مع الحجة والبرهان كما أوضحت ذلك في كتاب : (**هدي القرآن الكريم**) والحمد لله رب العالمين .

سادساً ــ هذا الإيراث الرباني لخير كتاب قرآني عن خير موروث إنساني وأعظم وأفضل وأكرم حبيب رحماني ﷺ .

فهذا الاصطفاء الرباني لأمة هذا الرسول الكريم الجوهر النوراني وصفوة العمود والنسب العدناني – ذلك الإيراث والاصطفاء والاجتباء والانتقاء – أمره كبير ، وشأنه خطير ، لم يُنل ذلك بالكسب والعمل ، وإنما هو من باب المنة والفضل ، وأيّ فضل أكبر من هذا الفضل ؟! . ولذلك قال تعالى في آخر الآية : ﴿ ذلك هو الفضل الكبير ﴾ – أي : ذلك الإيراث الصادر منه سبحانه والاصطفاء الذي خصكم به يا أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ ذلك هو الفضل الكبير ﴾ .

فاذكروا فضل الله تعالى عليكم يا أمة محمد ﷺ ، ولا تنسوا فضل الله الكبير عليكم ، واشكروا له سبحانه على ما فضلكم به ، وذلك بحمدكم لله تعالى ، وثنائكم عليه ، وتمسككم بهذا الميراث القرآني ، قال تعالى : ﴿ والذين يُمسِّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾ .

اللهم اجعلنا منهم بفضلك ورحمتك يا ذا الفضل العظيم .

اللهم نوِّر بكتابك أبصارنا وبصائرنا ، واستعمل به أبداننا ، واجعله ربيع قلوبنا وروح أرواحنا ، ونور صدورنا ، وجلاء حزننا ، وذهاب همّنا وغمِّنا ، وأنيسنا في وحشتنا ، وحجة لنا يوم نلقاك .

بيان أصناف هذه الأمة المحمدية ﷺ

ومراتبها عند الله تعالى

لقد بين الله تعالى أصناف هذه الأمة من حيث التمسك بكتابه تعالى والعمل به ، فذكر أصنافاً ثلاثةً ، ومن المعلوم أن كل صنف منها تحته أصناف متعددة متفاوتة في المراتب كما دلَّ على ذلك بقية الآيات القرآنية ، وصدقته الأحاديث النبوية ، وسأبين جملةً منها إن شاء الله تعالى :

الصنف الأول : الظالم لنفسه :

لقد ذكر الله سبحانه الأصناف الثلاثة وبدأها بذكر الظالم لنفسه ، وذلك لحِكم عالية أبينها لك بعد ذكر مقدمة تمهيدية .

إعلم علمنا الله تعالى وإياك أن الظلم الوارد في قوله تعالى : ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ هو الظلم العملي لا الاعتقادي ، فإن الظلم يأتي في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على نوعين :

ظلم عملي : وهو المراد من الآية السابقة وذلك بسبب ترك واجب أو فعل منهي عنه محرم ، ويسمى الظلم الأصغر قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾.

فلما خاطب المؤمنين بذلك دل على أنه لم يرد به الظلم الأكبر الاعتقادي وهو الكفر ، بل الظلم العملي .

وأما **الظلم الاعتقادي** وهو يسمى الظلم الأكبر : فذلك هو الكفر بأنواعه قال تعالى : ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إن الشرك لظلمٌ عظيم ﴾ .

قال الإمام البخاري في صحيحه : باب ظلم دون ظلم ، ثم روى عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لما نزلتْ ﴿ الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (أيُّنا لم يظلم نفسه) ؟! فأنزل الله تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ .

والمعنى : أنه لما نزلت آية : ﴿ و لم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ خاف الصحابة أن يكون المراد بالظلم عمومه ، بحيث يعم الظلم الأصغر وهو ذنوب العبد ، فقالوا : (أينا لم يظلم نفسه ؟) ، أي : كلٌّ منا لا يخلو من ذنب ولو صغيراً أو أصغر من الصغير ، فبيَّن لهم النبي ﷺ أن المراد و لم يلبسوا إيمانهم بظلم أي : بشرك — أي:الشرك الأكبر — وهو الكفر الاعتقادي ، قال تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ﴾ أي : أن يكفر به بدليل قوله : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ الآية .

ومن الظلم الأكبر ما جاء في الآية : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان : اكفر فلما كفر قال : إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدَيْن فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾ أي: الكافرين .

كما أن الكفر على نوعين : **كفر اعتقادي** وهو المُخرج عن الملَّة ، وهو المراد عند الإطلاق .

وكفر أصغر وهو الكفر العملي ، ومنه كفران العشير ، وكفر نعم الله تعالى وصرفها في غير ما شرع الله تعالى ، وذلك يشمل كل ذنب ، قال تعالى : ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ .

وفي ذلك يقول الإمام البخاري : باب كفران العشير ، وكفر دون كفر ، ثم أسند إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ : « أُرِيتُ النار فإذا أكثر أهلها النساء يكفرن » .

قيل : أيكفرن بالله ؟!.

قال : « يكفرن العشير ، — أي : نعمة الزوج — ويكفرن الإحسان ، لو أحسنتَ إلى إحداهنَّ الدهرَ ثم رأتْ منك شيئاً قالت : ما رأيتُ منك خيراً قطُّ » .

وكذلك الشرك هو نوعان :

شرك أكبر وهو الكفر ، قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ — أي : لا يغفر أن يكفر به ، كما قال تعالى : ﴿ إنه مَنْ يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ .

فالمراد بالشرك الذي لا يغفر هو الكفر بأنواعه ، وليس المراد به هنا الشرك مع الله غيره ، فلو أريد ذلك لكانت بقية أنواع الكفر جائزة الغفران ، لأنه تعالى قال : ﴿ ويغفر ما دون ذلك ﴾، بل المراد به الكفر بأنواعه ومنها الشرك مع الله غيره ، وأما ما دون ذلك من الذنوب فهو تحت المشيئة .

وهناك **شرك أصغر** : وهو الشرك العملي كالرياء في العبادات ،

والسمعة ، أو عدم الإخلاص فيها : بأن يبتغي فيها عرض الدنيا ويسمى الشرك الخفي ، ويسمى الأول الشرك الجلي .

قال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ فلا يقبل الله تعالى عملاً إلا إذا كان العمل صالحاً ، ولا يكون صلاح العمل إلا بمتابعته لشريعة سيدنا رسول الله ﷺ ــ هذا هو الشرط الأول .

والشرط الثاني : إخلاص صاحب العمل ، فقد روى الإمام أحمد وغيره عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » .

قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟.

قال : « الرياء ، يقول الله تعالى للمرائين يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم : إذهبوا إلى الذي كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً » .

وروى الترمذي وابن ماجه والإمام أحمد واللفظ له عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى منادٍ : من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » .

والفسق نوعان :

نوع اعتقادي وهو الأكبر المخرج من الملّة ، قال تعالى : ﴿ يضل به

كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ .

والفسق الأصغر : **هو الفسق العملي أو القولي** : ولا يخرج عن الملة،ويثبت ذلك بارتكاب الكبائر ، وبالإصرار على الصغائر دون توبة واستغفار من ذلك : قال تعالى : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ .

وقال ﷺ : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » .

والنفاق على نوعين : **نفاق أكبر** وهو النفاق في العقائد الإيمانية ، وهذا نفاق الكفر بأن يضمر الكفر الاعتقادي في نَفَق قلبه ، ويظهر الإيمان على لسانه .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ وهؤلاء نتيجتهم في الآخرة كما قال تعالى : ﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴾ الآية .

والنوع الثاني النفاق الأصغر : وهو النفاق في الأعمال والأقوال والأحوال ، وذلك بأن يأتي بها حسنةً في الظاهر ولكنها صدرت عن باطن

سيء أو بنية فاسدة ، فيظهر للناس خلاف ما يبطنه من السوء والفساد . وهو يحبط العمل ويبطل الثواب ، ويعرض صاحبه للعذاب — وقد أجملتُ الكلام على هذه الأنواع المتقدمة ههنا حتى لا نخرج عن موضوع بحثنا ، وسوف تأتي تفاصيلها في موضع آخر إن شاء الله تعالى .

أما وجوه الحكمة في تقديم ذكر الظالم لنفسه على بقية الأصناف فهي كثيرة أذكر بعضها :

أولاً —

إن ذلك من باب الترقي فهو سبحانه يذكر المفضول ثم الفاضل ثم الأفضل ، وهذا له نظائر كثيرة في القرآن الكريم ، وفيه من البلاغة ما فيه حيث يقتضيه الحال ويتطلبه المقال ، وقد يقتضي الحال تقديم الأفضل فالأفضل لمناسبات واعتبارات أخرى كما في قوله تعالى : ﴿ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾ اللهم اجعلنا منهم .

ثانياً —

ذكر الظالم لنفسه أولاً ليبشره بأنه لم يخرج بظلمه لنفسه عن كونه من المصطفين فلا يتخاذل بل ينهض ولا ييأس لأن له شأنه وكرامته ، ولكن لا ينبغي له أن يبقى ظالماً لنفسه يحرمها الخيرات والمنافع والفوائد وسعادة الدنيا والآخرة ، بل يجب عليه أن يترفع بنفسه عن ظلمها وبخسها حقها وينهض بها من حضيض الحرمان والظلم والكسل إلى مستوى الكمال والخير والفضل ، فلا يك بائساً يظلم نفسه ، ولا يكن بائساً ببقائه على ما هو عليه — ففي هذا بشارة له ونذارة وترغيب له وترهيب .

ثالثاً —

إن الله تعالى أخبر بعد هذه الآية عن دخول هؤلاء الأصناف الجنة فقال : ﴿ جنات عدن يدخلونها يحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ﴾ فأخّر سبحانه ذكر السابقين بالخيرات لأنهم أقرب إلى الجنة وأسبق إليها ، وذكر المقتصدين في الوسط لأنهم قريبون من الجنة ولكن يدخلونها بعد السابقين بالخيرات ، وأبعد ذكر الظالمين لأنفسهم لأنهم بعيدون عن الجنة بالنسبة للمقتصدين والسابقين وهم آخر الأصناف يدخلون الجنة .

الصنف الثاني : المقتصدون :

وأما المقتصد فالمراد به هنا المتوسط بين رتبتي الظالم لنفسه والسابق بالخيرات ، وهو الذي لم يقصر كالظالم لنفسه الذي ارتكب منهياً أو ترك أمراً واجباً في الشرع ، فهو مقتصد لم يقصر ، ولم يكثر كالسابق بالخيرات الذي جاء بكثرة النوافل التعبدية .

والمقتصد مشتق من القَصْد وهو التوسط كما في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا : « الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة — أي : التوسط فلا تقتير ولا تبذير — والتودُّد إلى الناس نصف العقل — أي : نصف ما يرشد إليه العقل ويحصله لصاحبه — وحسن السؤال نصف العلم »[1] .

وعن أنس مرفوعاً : « الاقتصاد نصف المعيشة ، وحسن الخلق نصف الدين »[2] .

---

(١) رواه البيهقي في (الشعب) والطبراني والعسكري وابن السني . اهـ كما في شرح (المواهب) .
(٢) رواه الطبراني والخطيب وغيرهما .

فالمقتصد المراد بالآية الكريمة هو المتوسط بين المقصِّر وهو الظالم لنفسه وبين المكثر وهو السابق بالخيرات .

ويقال للمقتصدين الأبرار عند مقابلتهم بالمقربين ، قال تعالى : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون تعرف في وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عيناً يشرب بها المقربون ﴾ .

فالمراد بالأبرار هنا جمع البَرّ وهو الذي أدَّى واجبات البرِّ أي الإيمان ، قال تعالى ﴿ ولكن البِرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ... ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ ولكن البرَّ من اتقى ﴾ .

فالبَرُّ هو التقيُّ أي : الممتثل ما أوجب الله تعالى عليه والمنتهي عما نهى الله تعالى عنه .

وأما المقرَّبون في قوله تعالى ﴿ عيناً يشرب بها المقربون ﴾ : فالمراد بهم السابقون بالخيرات في الدنيا ، وإلى الجنة في الآخرة .

ويقال للمقتصدين أصحاب اليمين عند مقابلتهم بالمقربين أيضاً ، قال تعالى : ﴿ فأمَّا إنْ كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة . وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون أولئك المقربون ... ﴾ الآية .

وقال سبحانه بعد ذلك : ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ﴾ الآيات .

وأما إذا ذكر الأبرار وأصحاب اليمين منفرداً دون مقابلة بالمقربين فهو يشمل المقتصدين والسابقين المقربين :

قال تعالى : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم ﴾ الآية .
وقال تعالى : ﴿ وما عند الله خير للأبرار ﴾ .

وقال تعالى معلماً الدعاء لعباده:﴿ وتوفنا مع الأبرار ﴾ أي : أصحاب اليمين والمقربين ، فعند الإطلاق يعم ، وعند المقابلة يخص .

وهكذا أصحاب اليمين ، قال تعالى : ﴿ إلا أصحاب اليمين في جنات يتساءلون عن المجرمين ماسلككم في سقر ﴾ .

فالمراد أصحاب اليمين هنا عامة المقتصدين والسابقين المقربين،وإنما سمى السابقون بذلك لأنهم سبقوا بالخيرات بإذن الله تعالى .

وأما تسمية أصحاب اليمين بذلك فاختلف العلماء في توجيه تسميتهم بأصحاب اليمين وتسميتهم أصحاب الميمنة .

قال الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى : والميمنة يحتمل أن تكون مشتقة من اليمن ، وهو ضد الشؤم ، وتكون المشأمة مشتقة من الشؤم .

أو تكون الميمنة من ناحية اليمين ، والمشأمة من ناحية الشمال ، واليد الشؤمى هي الشمال ، وذلك لأن العرب تجعل الخير من اليمين والشر من الشمال .

قال الله تعالى : ﴿ فأمّا مَنْ أوتي كتابه بيمينه فيقول : هاؤم اقرءو

كتابيه ﴾ ثم قال : ﴿ وأمّا مَنْ أوتي كتابه بشماله فيقول : يا ليتني لم أوت كتابيه ﴾ الآيات .

أَوْ لِأَنَّ أهل الجنة يُحملون إلى جهة اليمين ، وأهل النار يحملون إلى جهة الشمال .

أو يكون مِنْ أَخْذِ الكتاب باليمين أو الشمال ، فمن أخذ كتابه بيمينه فهو من أصحاب اليمين .

أو يقال : أصحاب الميمنة أصحاب اليمين على أنفسهم أي : كانوا ميامين — مباركين وأخياراً — على أنفسهم ، وأصحاب الشمال مشائيم على أنفسهم . اهـ كلام السيوطي .

قال عبد الله : ويحتمل أنهم سُمّوا بذلك على حسب حالهم عن يمين أبيهم آدم عليه السلام أو عن شماله ، كما جاء في حديث المعراج قال ﷺ : « فلما علونا السماء الدنيا فإذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة » — أي : أشخاص — قال : « فإذا نَظَرَ قِبَلَ يمينه ضحك ، وإذا نظر قِبَلَ شِماله بكى ، فقال : مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح » قلت : « يا جبريل من هذا ؟»
قال : « هذا آدم ﷺ ، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه — أي : نفوسهم — فأهل اليمين أهل الجنة ، والأسودة التي عن شماله أهل النار » الحديث كما في مسلم وغيره .

وإنما بيّنت لك أيها القارىء اللبيب معنى المقتصد المقابل لطرفي الظالم لنفسه والسابق بالخيرات في هذه الآية على الوجه المتقدم — لأن المقتصد قد يطلق في مقابل المتشدِّد في دين الله تعالى المتنطِّع المتعمِّق والمتغالي في شرع

الله تعالى ، الذي حذَّر منه ﷺ ، فهناك مقتصد ويقال له قاصد ، ويقابله **المتشدِّد المتغالي** ، فالمقتصد يكون معناه أنه الذي سلك طريق القصد والهدي المحمدي فهو يشمل المقتصدين بالمعنى السابق ، ويشمل السابقين المقربين .

روى الإمام أحمد عن بريدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم هدياً قاصداً فإنه مَنْ يشادّ هذا الدين يغلبه » .

قال ابن حجر : والمعنى لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع . اهـ .

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لن ينجِّي أحداً منكم عمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟

قال : « ولا أنا إلا أن يتغمّدني الله برحمته ، سدِّدوا وقاربوا واغدوا وروحوا ، وشيء من الدُلجة ، والقصدَ القصدَ تبلغوا » .

فالقصد المراد هنا هو الهديُ المحمدي الذي جاء بالوسط من الأمور ، لا إفراط ولا تفريط ، ولا تشدّد ولا غلوَّ في دين الله تعالى ، ولا تَفلُّت من أوامر الله تعالى ، وارتكاب ما نهى الله تعالى عنه .

قال ابن المنير : في هذا الحديث عَلَم من أعلام النبوة : فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متنطِّع في الدين ينقطع — أي : عن العبادة — وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة ، فإنه من الأمور المحمودة ، بل منع الإفراط المؤدِّي إلى الملال ، والمبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل ، أو إخراج الفرض عن وقته كمن بات يصلي الليل كله ويغالب النوم إلى أن غلبته عيناه آخر الليل فنام عن صلاة الصبح في الجماعة ، أو إلى أن خرج

الوقت المختار ، أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة . اهـ وهو يظن أنه قد أحيى ليلته بالعبادة وأتى أمراً عظيماً من القربات .

وروى الإمام أحمد عن ابن الأدرع عن النبي ﷺ أنه قال : « إنكم لن تنالوا هذا الأمر بالمغالبة ، وخيرُ دينكم أيسرُه » .

ومعنى قوله ﷺ : « فسدِّدوا » وهو مشتق من السَدَاد وهو الصواب من غير إفراط أي : مجاوزة الأمر الشرعي ، ولا تفريط أي : التقصير عن الأمر الشرعي ، وقاربوا أي : إن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل ، فاعملوا بما يقرب منه .

ومعنى قوله ﷺ : « واغدوا وروحوا وشيء من الدُلجة » وفي رواية للبخاري « واستعينوا بالغدوة والرَوحة وشيء من الدُلجة » أي : استعينوا على المداومة في العبادة بإيقاعها في الأوقات المنشطة .

والغدوة : سير أول النهار ، **والروحة** : المسير بعد الزوال ، **والدلجة** : سير آخر الليل كله ، ولهذا عبَّر فيه بقوله : « وشيء من الدُلجة ».

وهذه الأوقات هي أطيب أوقات المسافر سفراً طويلاً ، فإنه إذا مشى وسافر الليل والنهار جميعاً وواصل سيره عجز وانقطع ، وإذا جزّأ سيره وتحرّى أوقات نشاطه وصل إلى مقصده بدون مشقة .

وهكذا السائر إلى الله تعالى ، والمسافر إلى الآخرة ، يتحرَّى لنوافله وتطوعاته أوقات النشاط ، فله في الضحى وقت واسع ، وبعد الزوال كذلك ، ولا بد له من سير الليل ، وذلك بقيام الليل ، ولا يتكلف ما فيه الإشقاق على النفس وتحميلها فوق طاقتها ، فيصير منبتاً أي : منقطعاً .

فقد روى الإمام أحمد عن أنس مرفوعاً : « إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق » أي : ادخلوا فيه برفق وتوسط دون إرهاق وإشقاق .

وعن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « إن هذا الدين متين فأوغل — أي : أدخل — فيه برفق ، ولا تبغِّض إلى نفسك عبادة الله ، فإن المنبَتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى »[1].

والمنبَتُّ هو الذي انقطع في سفره بسبب شدة إسراعه حتى قطع ظهر فرسه .

وكذلك من تكلَّف من العبادة ما لا طاقة له به ، فإنه سينقطع عنها ، ولذلك قال ﷺ : « والقصدَ القصدَ تبلغوا » أي : تبلغوا المقصود .

والقصد : هو الأخذ بالأوسط المعتدل دون تقصير ولا تغالي وتكلف فوق الطاقة — وهو منصوب على الإغراء .

فمن سار في العبادة قاصداً مقتصداً — بلغ المقصود ، وانتهى إلى المطلوب المحبوب ، وذلك بالاهتداء بالهدي المحمدي ، والسير على نوره صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

اللهم اجعلنا منهم .

وقد قيل فيهم :

مَنْ لي بمثل سيرك المدلَّل ... يمشي رويداً ويجي في الأوَّل

ويدخل تحت هذا أصحاب اليمين والسابقون ، فإن كلاً منهما قاصدٌ ومقتصد بالنسبة لرتبته ، ومنزلتهما من باب التقي والأتقى ، والفاضل والأفضل .

---

(١) رواه البيهقي والبزار والحاكم وغيرهم .

وإلى ذلك يشير قوله تعالى : ﴿ وعلى الله قصْدُ السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ .

يقال في اللغة العربية:طريق قَصْد وقاصد أي : مستقيم معتدل لا انحراف فيه ولا التواء .

ويقابله الجائر وهو الطريق المنحرف الذي فيه اعوجاج .

ومعنى الآية الكريمة يحتمل أمرين غير متعارضين بل هما متلازمان :

الأول : أن تكون ﴿ على ﴾ للوجوب والمعنى : وعلى الله حتماً هو حتّمه على نفسه أن يبين لعباده السبيل القصد المستقيم الموصلة إليه سبحانه ، وفي ذلك البيان تقوم الحجة على العباد في الدنيا ويوم المعاد ، وهذا هو هدي البيان كما قال تعالى : ﴿ إنّ علينا للهدى ﴾ أي : علينا حتماً أن نبين الهدى .

وقال تعالى : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ الآية .

فالسبيل القصد هو السويّ المستقيم الذي بيّنه الله تعالى فيما أوحاه إلى رسوله الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

قال تعالى : ﴿ فستعلمون مَنْ أصحاب الصراط السويّ ومن اهتدى ﴾ أي : سلك ذلك الطريق الموصلة إلى الله تعالى وهو الطريق الذي دعا إليه سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

الثاني : يحتمل أن تكون ﴿ على ﴾ في الآية : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ للدلالة ، والمعنى أن السبيل القصد السويَّ المعتدل يدل سالكه

على الله تعالى ويوصله إليه ـ قال تعالى : ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله ﴾ الآية ﴿ وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ﴾ أي : ومن السُبل سبيل جائر منحرف فيه اعوجاجات لا يوصل سالكه إلى مقصوده بل يجعله في حيرة ومضيعة لتشعبه ، والمراد بذلك اتباع سبل الأهواء والآراء ، دون استناد إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

﴿ وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ .

أي : ولو شاء لهداكم توفيقاً لسلوك السبيل القصد بعد أن هداكم بياناً ودلالة على السبيل القصد ، فاستهدوه يهدكم إليها ، ولذلك أمر الله تعالى عباده أن يقولوا : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ أي : وفقنا لذلك ، فهداية الدلالة هي حجة الله تعالى على عباده ، وقد أوجبها سبحانه على نفسه ، قال تعالى : ﴿ إن علينا للهدى ﴾ أي : الدلالة وبيان الحق ، وقال تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ أي : دللناهم وبيّنّا لهم الخير من الشر ، والصَلاح من الفساد ، ولكنهم اختاروا العمى والهوى والكفر واستحبوا ذلك .

وهداية التوفيق لسلوك الصراط المستقيم ، والسبيل القصد لها مقامات كثيرة ، ومراتب متعددة متفاوتة ، ولذلك أمر الله تعالى عباده كلهم أن يسألوه في صلواتهم هداية التوفيق لسلوك مراحل ذلك الطريق ، كلٌّ على حسب مقامه ورتبته .

اللهم : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ آمين . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

والآن نعود إلى الآية الكريمة التي نحن في رحابها وهي موضوع البحث .

قال تعالى : ﴿ ومنهم مقتصد ﴾: فالمراد به المتوسط بين المقصر الظالم لنفسه ، وبين السابق بالخيرات بإذن الله تعالى وهذا يعتبر من أصحاب اليمين في الجنة .

ويبين ذلك ما جاء في الحديث الذي رواه مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : جاء رجل فقال : يا محمد أتانا رسولك فزعم أنك تزعم أن الله تعالى أرسلك ؟

فقال ﷺ : « صَدَق »
قال الرجل : فَمَنْ خلق السماء ؟ قال : « الله تعالى »
قال : فمن خلق الأرض ؟ قال : « الله تعالى »
قال : فمن نصب الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال : « الله تعالى »

قال الرجل : فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب الجبال وجعل فيها ما جعل آللهُ أرسلك ؟

فقال ﷺ : « نعم » .
قال : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا .
قال : « صدق » .
قال : فبالذي أرسلك آلله تعالى أمرك بهذا ؟
فقال ﷺ : « نعم » .
ثم ذكر الزكاة ثم الصيام ثم الحج كذلك .

قال أنس : والنبي ﷺ يقول في كل سؤال « صدق » فيقول

الرجل : فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا . فيقول ﷺ : « نعم » .

ثم ولَّى الرجل وقال : والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهنَّ ولا أنقص منهن .

فقال ﷺ : « لئن صدق ليدخلن الجنة » .

وفي الصحيحين وغيرهما عن طلحة بن عبيد الله قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس نسمع دويَّ صوته ولا نفقه ما يقول حتى دنا من رسول الله ﷺ فإذا هو يسأل عن الإسلام .

فقال رسول الله ﷺ : « خمس صلوات في اليوم والليلة »

فقال الرجل : هل عليَّ غيرهنّ ؟

قال ﷺ : « لا إلا أن تطَّوع » .

فقال ﷺ : « وصيام رمضان » .

فقال الرجل هل عليَّ غيره ؟ فقال ﷺ : « لا إلا أن تطَّوع » .

وذكر له الزكاة ، فقال : هل عليَّ غيرها ، قال : « لا إلا أن تطوع ».

فأدبر الرجل وهو يقول : لا أزيد على هذا ولا أنقص منه .

فقال رسول الله ﷺ : « أفلح إن صدق » أو « دخل الجنة إن صدق » .

ولم يذكر الراوي ـ الحج هنا ـ من باب الاقتصار بدليل ذكره في روايات أخرى كما نبه على ذلك علماء الحديث .

وليس المقصود من ذكر هذه الفرائض الخمسة الاكتفاء بها وترك

ما وراءها من الواجبات الشرعية ، وارتكاب المحرمات والمنهيات الشرعية .

وإنما ذُكِرتْ هذه الفروض الإسلامية الخمسة لأنها أهم الفرائض والواجبات الدينية،فإن هناك واجبات دينية أخرى لا بدَّ منها ، وهناك محرمات لا بدَّ من اجتنابها ، كما جاء بيان ذلك في بقية الأحاديث عن النبي ﷺ .

فقد روى مسلم وغيره عن جابر رضي الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال : أرأيت إذا صليت المكتوبات وصمت رمضان وأحللت الحلال وحرَّمت الحرام و لم أزد على ذلك شيئاً أأدخل الجنة ؟

فقال ﷺ : « نعم »

فقال الرجل : والله لا أزيد على ذلك شيئاً ـ أي : من النوافل والتطوعات .

وروى مسلم وغيره أيضاً عن أبي أيوب رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : دلني على عمل أعمله يدنيني من الجنة ويباعدني من النار .

قال ﷺ : « تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة وتصل ذا رحمك » .

فلما أدبر الرجل قال رسول الله ﷺ : « إن تمسَّك بما أُمِر به دخل الجنة » .

فالمقتصد هو الذي أدى جميع الواجبات وترك جميع المحرمات ، وهذا

هو صاحب قرب الفرائض والواجبات كما سيأتي في الحديث القدسي إن شاء الله تعالى .

فهذا هو المقتصد الذي أدّى جميع ما أوجبه الله تعالى عليه تاماً ، واجتنب ما نهى الله تعالى عنه ، وأحلَّ الحلال وحرَّم الحرام ، ولكنه لم يأت بنوافل وتطوعات زيادةً على فرائضه الكاملة .

نعم قد يقع في بعض المحرمات ، ولكنه سرعان ما يتوب ويستغفر ، فإن الله تعالى يتوب عليه ويغفر له .

قال تعالى : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾ .

وروى الترمذي وصححه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار .

فقال ﷺ : « لقد سألتَ عن عظيم ، وإنه ليسير على مَنْ يسَّره الله تعالى عليه :

تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان،وتحج البيت » .

فبين له النبي ﷺ تلك الأعمال التي تكون سبباً لدخول الجنة — أي : مع القيام ببقية الواجبات وترك المنهيات — وبذلك يكون من المقتصدين .

ثم بين النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه مقام المقربين السابقين بالخيرات القائمين بالنوافل والتطوعات .

فقال ﷺ منبهاً إلى رفعة الهمة وقوة العزيمة : « ألا أدلك على أبواب الخير ؟ » .

قال معاذ : قلت بلى يا رسول الله ﷺ .

فقال ﷺ : « الصوم جنة ، والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار ، وصلاة الرجل في جوف الليل – ثم تلا قوله تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ » إلى تمام حديث معاذ .

فالأول مقام قرب الفرائض كاملة ، وبه يكون من المقتصدين ، والثاني وهو قوله ﷺ : « ألا أدلك على أبواب الخير »، هو مقام قرب النوافل ، وبه يكون من المقربين السابقين .

ولكل مقام أحكامه كما سأوضحه بعد إن شاء الله تعالى .

فالمتقرب إلى الله تعالى هو الذي تقرب إليه سبحانه بفعل المأمورات ، وتقرب إليه سبحانه بترك المحرمات ، فترك المحرمات تخلية عن الرذائل ، وأداء المأمورات تحلية بالفضائل .

جاء في الحديث الذي رواه الطبراني والأصبهاني وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ في مناجاة الله عز وجل لموسى عليه السلام ، وفيه أن الله عز وجل قال: « يا موسى إنه لم يتصنّع[1] إلَيَّ المتصنِّعون بمثل

---

(١) أي : لم يصنع في إرضائي صنعاً مثل الزهد في الدنيا .

الزهد في الدنيا ، ولم يتقرَّب إلي المتقرِّبون بمثل الورع – أي : الترك والكف – عمَّا حرَّمتُ عليهم ، ولم يتعبَّد إليَّ المتعبدون بمثل البكاء من خشيتي » .

فقال موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام : « يا ربَّ البرية كلِّها ، ويا مالكَ يوم الدين ، ويا ذا الجلال والإكرام ، ماذا أعددت لهم ؟ وماذا جزيتَهم ؟ » .

فقال سبحانه : « **أمّا الزهَّاد في الدنيا** فإني أبحتُهم جنتي يتبَوَّؤن منها حيث شاؤوا .

وأما الورعون عمَّا حرمته عليهم فإنه إذا كان يوم القيامة لم يبق عبد إلَّا ناقشتُه وفتَّشتُه – أي : في الحساب – إلا الورعون – أي:لكن الورعون – فإني استحييهم وأجلُّهم وأكرمهم وأدخلهم الجنة بغير حساب .

وأما البكاؤن من خشيتي فأولئك لهم الرفيق الأعلى لا يُشارَكون فيه » .

قال العلامة ابن الأثير : الورَع في الأصل هو الكفُّ عن المحارم ، والتحرج منها ، قال : ثم استعير للكف عن المباح إلخ .

قلت : الوَرع قد يراد به الكف والبعد عن المحرمات والشبهات الظاهرة ، وهذا أمر واجب على المسلم ، وهذا ورع المقتصدين من المقربين ، وقد يطلق الورع ويراد به ترك المباحات خوف الوقوع في المكروهات ، وترك ما فيه أدنى شبهة ؛ وهذا ورع السابقين من المقربين .

أما الورع الأول فهو كما جاء في الحديث المتفق عليه عن النعمان بن

بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الحلال بَيِّنٌ والحرام بَيِّنٌ ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهنَّ كثيرٌ من الناس ، فمن اتَّقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ألا وإن لكل ملك حِمًى ، ألا وإن حمى الله في أرضه محارمُه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحتْ صلح الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » .

وأما الورع بالمعنى الثاني فهو ما يدل عليه حديث الترمذي وابن ماجه والحاكم عن عطية السعدي عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يَدَع ـ أي : يترك ـ ما لا بأس به حذراً مما به بأس » .

وفي رواية : « لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس » .

وهذا أعلى مرتبة في التقوى والورع .

قال أبو الدرداء رضي الله عنه : (تمام التقوى ـ أي . كمال التقوى ـ أن يَتَّقِي اللهَ العبدُ حتى يتقيه من مثقال ذرة ، وحتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً ، يجعل ذلك حجاباً بينه وبين الحرام) اهـ .

فإنتهاك المحارم والاسترسال فيما حرم الله تعالى يبعد عن الله تعالى ، ويوجب غضبه ومقته .

روى ابن ماجه ـ والرواة ثقات ـ عن ثوبان رضي الله عنه عن

النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « لأعلمنَّ أقواماً من أمتي يأتون يوم القيامة بأعمال أمثال جبال تهامة بيضاء ، فيجعلها الله تعالى هباءً منثوراً ».

قال ثوبان رضي الله عنه : يا رسول الله : صِفْهم لنا ؛ جَلِّهم لنا ؛ لا نكون منهم ونحن لا نعلم .

قال ﷺ : « أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم ، ويأخذون من الليل كما تأخذون ، ولكنهم قوم إذا خلَوا بمحارم الله انتهكوها » أي : وقعوا فيها ولم يتباعدوا عنها خوفاً من الله تعالى .

فلو أنهم خافوا الله تعالى وراقبوه ، وخافوا موقفهم يوم يحاسبهم الله تعالى ، لما انتهكوا حرمات الله تعالى .

وروى البزار والبيهقي واللفظ له عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « الطَابَع معلَّقة بقائمة عرش الله عز وجل ، فإذا انتهكت الحرمة وعُمِلَ بالمعاصي واجترِىء على الله تعالى بَعث الله الطابَع فيطبع على قلبه فلا يعقل بعد ذلك شيئاً » .

وإن الله تعالى ليغار على عبده المؤمن أن يأتي ما حرَّمه عليه ، ويكره له ذلك :

كما ورد في الصحيحين :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إن الله عزَّ وجلَّ يغار ، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرَّم الله عليه » .

فعبادة الله تعالى لا تتم إلا بامتثال ما أمر الله تعالى به ، وبترك ما حرم

الله تعالى عليه ، فمن كان أتقى وأبعد عن المحرمات فهو أعبد لله تعالى .

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أخذ رسول الله ﷺ بيدي وعدَّ خمساً .

قال : « اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً ، وأحبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً ، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب » .

وقد ذكرت لك فيما مضى أن من المحرمات الغيبة والنميمة والسخرية والحسد والحقد ، واحتقار عباد الله تعالى ، والكبر ، فلا تقع فيها ، وتغترّ بنوافل ليلك أو نهارك .

فقد رأى النبي ﷺ المغتاب والنمام يعذبان في قبورهما كما جاء في الأحاديث .

وقال ﷺ : « لا يدخل الجنة قتّات » أي : نمام .

وقال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » الحديث – يعني : مع أنهم يصلون ويصومون ، إذ لو كانوا لا يصلون ، أو لا يصومون ، أو لا يزكون ، لأخبر عنهم أنهم لا يدخلون الجنة بسبب تركهم الصلاة ، أو الصيام ، أو الزكاة ، فإنها أهم وأعظم .

وقال ﷺ : « إياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ».

فالمقتصد هو الذي أدى الواجبات كلها وترك المحرمات كلها ، وإن

وقع في شيء من ذلك فتاب ؛ تاب الله عليه ـ اللهم إنا نسألك توبةً نصوحاً .

الصنف الثالث : السابقون بالخيرات بإذن الله تعالى :

قال الله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ﴾ .

فقد بين الله تعالى في هذه الآية الكريمة أصناف هذه الأمة المحمدية المسلمة ، وهي ثلاثة ، وكل صنف منها يحتوي على مراتب متعددة متفاوتة في الفضل والدرجة عند الله تعالى .

فالسابقون المقربون من سلف هذه الأمة أهل القرون الثلاثة ، هم من حيث الجملة أفضل وأرفع درجة من السابقين المقربين من آخر هذه الأمة .

والسابقون من أهل القرون الثلاثة المشهودة بالخيرية هم أيضاً متفاوتون ، فالقرن الذي فيه سيدنا رسول الله ﷺ هو خير القرون ، ثم وثم وفي الحديث كما ورد في الصحيحين وغيرهما ، قال رسول الله ﷺ : « خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » .

وأصحاب اليمين من سلف هذه الأمة هم من حيث الجملة أعلى منزلة وأفضل من أصحاب اليمين من آخر هذه الأمة ـ وفي كلٍ خير وفضل .

قال تعالى في شأن السابقين من سلف هذه الأمة وآخرها : ﴿ ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ﴾ فالسابقون المقربون ما ينقطعون في هذه الأمة من أوّلها إلى آخرها ، لكنهم في صدرها أكثر منهم في آخرها .

وقال تعالى في أصحاب اليمين : ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾.

وفي الحديث الشريف كما في مسلم : « مَثَل أُمتي مثل المطر لا يُدرى أوَّله خير أم آخره » ـ أي : كله خير مستمرّ لا ينقطع ، فالعلماء العاملون ، والأولياء المقربون ، باقون في هذه الأمة .

فالسابقون هم الذين سبقوا المقتصدين إلى المنازل العالية ، ونيل الثواب العظيم ، والفضل الإلهي الكبير ، وإلى دخول الجنة بسبب الخيرات التي تقربوا بها إلى الله تعالى — من أعمال صالحة ، ونوافل وتطوعات قولية ، وعملية ، ومالية ، وحالية ، وخلقية — كما تقدم في أول الكتاب والحمد لله رب العالمين .

فالخيرات في الآية الكريمة هنا تشمل نوافل الأعمال الصالحة ، والأقوال الطيبة ، والأخلاق الزكية ، والأحوال المرضيَّة لله تعالى .

ويقابل هذه الخيرات المنكرات العملية والقولية ، والخلقية والحالية ، ويدلك على هذا الأحاديث النبوية التي فيها التبيان لمعاني القرآن .

فقد جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وأحمد وغيرهما أن النبي ﷺ قال في دعائه لما تجلَّى عليه ربُّ العزَّة في صلاة الليل قال : « اللهم إني أسألك فعلَ الخيرات ، وترك المنكرات ، وحبَّ المساكين ، وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردتَ فتنةً في قوم فتوفَّني غيرَ مفتون ، وأسألكَ حُبَّكَ وحبَّ مَنْ يحبك ، وحبَّ عمل يقرِّبُني إلى حبك » الحديث كما ذكرته برواياته في كتاب : (صعود الأقوال) مُفصلاً .

فقوله ﷺ : « اللهم إني أسألك فعل الخيرات » أراد بالخيرات جميع الأعمال والأقوال ، والأخلاق والأحوال التي يحبها الله سبحانه ويرضاها ، بدليل المقابلة بقوله : « وترك المنكرات » فافهم .

وهذا معنى ما تقدم في حديث معاذ رضي الله عنه لما قال له ﷺ : « ألا أدلُّكَ على أبواب الخير » ؟ ثم ذكر له نوافل الأعمال التعبدية والصدقات المالية .

فقوله تعالى : ﴿ ومنهم سابق بالخيرات ﴾ يشمل تلك النوافل والتطوعات بأنواعها .

وهذا معنى قوله تعالى في صفتهم : ﴿ أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴾ يعني أنهم يسارعون ويسبقون في فعل الخيرات من القربات والطاعات والعبادات بأنواعها حسب استطاعتهم ، فجزاؤهم أنهم للخيرات سابقون ، أي : هم سابقون إلى المكرمات الإلٓهية ، والمنازل العليَّة ، والمراتب السنيَّة .

وهذا كما قال تعالى فيهم : ﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون ﴾ .

فالسابقون في الدنيا إلى فعل الخيرات ـ كما بينا لك ـ هم السابقون إلى الدرجات عند الله تعالى والمقامات ، وهم السابقون إلى الجنة ، وهم الذين نالوا مقام القرب الإلٓهي الخاصِّ ، وذلك أنهم تقربوا إليه سبحانه بنوافل الخيرات والطاعات ، تقرباً خاصاً ، لم يأت بها المقتصدون ، فقرَّبهم سبحانه إليه قرباً خاصَّاً .

فلما تَقَرَّبوا قُرِّبُوا ، فهم مُقرَّبون أي هو سبحانه قرَّبهم من لدنه قرباً خاصاً .

وإن أقرب المقرَّبين هو إمام الأنبياء والمرسلين ، صاحب مقام الوسيلة التي هي أعلى المنازل والمراتب كلها ، وجميع المراتب والمنازل دونها ، فهو ﷺ شفيع الكلّ ولا شفيع له ، وهو وسيلة الكلّ ولا وسيلة له ، وهو إمام الكلّ ولا إمام له ، وهو المتقدم أمام الكُلّ ولا يتقدم أمامه أحد ، قال ﷺ : « ثم يضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أوّل من يجوز من الرسل بأمته » .

وقال ﷺ : « آتي باب الجنة فأستفتح ، فيقول الخازن : مَنْ ؟ فأقول : محمد — ﷺ — فيقول : بكَ أُمرتُ أن لا أفتح لأحدٍ قبلك » .

فجميع أهل الجنة على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم ، لا يدخلون الجنة إلّا من وراء النبي ﷺ أبداً أبداً — اللهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين .

وكان الفراغ من جمع هذا الكتاب في السابع والعشرين من شهر رجب الفرد سنة ١٤٠٨هـ وأسأل الله تعالى أن ينفعني بهذا الكتاب ، وأن ينفع به العباد ، وأن يجعلنا من المهتدين بهدي رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، السائرين على صراطه المستقيم ، وشرعه القويم — إنه ذو الفضل العظيم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسَلَّم وعلينا معهم أجمعين ، في كل وقت وحين ، عدد ما وسعه علم الله تعالى رب العالمين .

المحتوى

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

كُتُبٌ لِلمُؤَلِّف

* حول تفسير سورة الفاتحة ـ أم القرآن الكريم .
* حول تفسير سورة الحجرات .
* حول تفسير سورة قٓ .
* حول تفسير سورة الملك .
* حول تفسير سورة الإنسان .
* حول تفسير سورة العلق .
* حول تفسير سورة الكوثر .
* حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين بعدها .
* هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان .
* هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان .
* تلاوة القرآن المجيد : فضائلها ـ آدابها ـ خصائصها .
* شهادة لا إلـٰه إلا الله محمد رسول الله ﷺ ـ فضائها ـ معانيها ـ مطالبها .
* سيدنا محمد رسول الله ﷺ : خصاله الحميدة ـ شمائله المجيدة .
* الهدي النبوي والإرشادات المحمدية ﷺ إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب السنية .
* التقرب إلى الله تعالى : فضله ـ طريقه ـ مراتبه .
* الصلاة في الإسلام : منزلتها في الدين ـ فضائلها ـ آثارها ـ آدابها .

* الصلاة على النبي ﷺ : أحكامها ـ فضائلها ـ فوائدها .

* صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال .

* الدعاء : فضائله ـ آدابه ـ ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات .

* حول ترجمة الشيخ الإمام محمد نجيب سراج الدين الحسيني .

* الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها .

* الإيمان بالملائكة عليهم السلام ـ ومعه بحث حول عالم الجن .

* الأدعية والأذكار الواردة آناء الليل وأطراف النهار .

* شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث .

* أدعية الصباح والمساء ومعها استغاثات .

* مناسك الحج ـ ومعه أحكام زيارة النبي ﷺ وآدابها .

* الصيام: آدابه ـ مطالبه ـ فوائده ـ فضائله .

* * * *

من آثار المؤلف رحمه الله

* محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم .

* دروس حول تفسير بعض آيات القرآن الكريم .

* * * *

وكلها تطلب من مكتبة دار الفلاح حلب : أقيول

أمام جامع أسامة بن زيد هاتف : ٣٢١٧٣٠٠